بسم ا الرحمن الرحيم

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

شعر قضاة الأندلس من الفتح حتّى نهاية عصر ملوك الطوائف

دراسة نقدية تحليلية

إعداد
أشجع رشدي عبد الجبار دريدي

إشراف
أ. د. وائل فؤاد أبو صالح

قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلّبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلّية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
2006م

شعر قضاة الأندلس من الفتح حتّى نهاية
عصر ملوك الطوائف
دراسة نقدية تحليلية

إعداد

أشجع رشدي عبد الجبار دريدي

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2006/09/17 وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة	**التوقيع**
1- أ. د. وائل أبو صالح/ مشرفا ورئيساً	....
2- أ. د. تيسير عودة/ ممتحناً خارجياً	....
3- أ. د. إحسان الديك/ ممتحناً داخلياً	....

الإهداء

إلى شمعة الحب ونبراس الحياة

إلى من ضحيا بمباهج الدنيا وزينتها من أجلنا

إلى من كانا أول من يجوع وآخر من يشبع

إلى فرقدي عمري وجناحي قلبي

إلى أغلى الناس وأعز البشر

إلى روحي ونفسي

إلى **أمي وأبي**

إلى كواكب دربي

إلى رفـاق عمـري

إلى سلاحي وسندي وعضدي

إلـى أخـوتـي وأشقـائـي

إلى **همام** وزوجه وابنيهما ندية وعمر

إلـى **ضرغـام** وزوجـه

إلى **محمـد**

إلـى **زلفـى**

إلى **أحمـد**

إلى أرواح قضـاة **الأندلـس**

إلى قضـاة **فلسـطيـن**

إلى قضاة **المسلميـن**

إلى قضاة **الأرض**

إلى **العدل والحقّ** المنشودين فيهم

إليهـم جميعـا أهـدي هـذا البحـث

الشكر والتقدير

كثيرون هم العاملون، وقليل منهم المحسنون، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وما إحساني إلا أن أتقدم من فضيلة أستاذي المشرف **الدكتور وائل أبو صالح** بجزيل الشكر وعظيم الامتنان والعرفان، فلقد أحسن بي إذ أخرجني من مستنقع الخوف والتقليد إلى معارج البحث والتجديد، فبذل الجهد والوقت الكبيرين في إرشادي وإعانتي على اكتمال صورة هذا البحث، ولطالما جئته حائرا تائها في دروبه وثناياه، فبصرني بجوانبه وطرق تناوله، كلّ هذا بابتسامته المفعمة بالمرح والحياة، ودعابته المحملة بالحب والعطاء، فلقد كان لي نعم المشرف والمرشد، ولئن قصرت الكلمات عن ترجمة خالص تقديري وجزيل شكري له، فإن معانيه أسمى وأرفع مما قد يبوح به اللسان، وأدعو سائلا ا عز وجلّ أن يكلأه بحفظه ورعايته، ويقر عينه في نفسه وأهله.

ولئن كنت أنسى فلا أنسى الأستاذ فايز سلوم في مكتبة جامعة النجاح الذي لم يبخل علي بمعلومة، ولم يضن علي بتقديم يد العون المساعدة، فقد حباه ا علما نافعا، ونفسا زكية، فأبثّه خالص شكري ومحبتي، وأسأل ا له ولأهله دوام الصحة والعافية.

قائمة المحتويات

شعر قضاة الأندلس من الفتح حتّى نهاية

عصر ملوك الطوائف

دراسة نقدية تحليلية

إعداد

أشجع رشدي عبد الجبار دريدي

إشراف

أ. د. وائل فؤاد أبو صالح

الملخص

لقد عنونتُ أطروحتي هذه بشعر قضاةِ الأندلسِ من الفتح حتى نهايةِ عصر ملوكِ الطوائفِ، وفيها خضع لنطاقِ بحثي كل من تولّى مهنةَ القضاءِ في بلادِ الأندلسِ، سواء أكان أندلسي المولدِ أم غير ذلك، وذلك في الفترةِ الممتدةِ من الفتح الإسلامي للأندلسِ عام اثنين وتسعين للهجرةِ (92) حتى نهايةِ عصر دول ملوكِ الطوائفِ عام أربعةٍ وثمانين وأربعمائةٍ للهجرة (484) والتي امتدتْ إلى ما يقارب من نصفِ الحِقْبةِ التاريخيةِ لحضارةِ الأندلسِ.

وقد جاء بحثي موزعا في ثلاثةِ فصولٍ، فكان الفصلُ الأولُ بعنوان" خُطّة القضاءِ في الأندلسِ"، وقد قمتُ بجمع المادةِ الدراسيةِ من مختلفِ كتبِ الفقهِ والحديثِ والأدبِ والتاريخ والتراجمِ، فكانتْ خُطّةُ القضاءِ في الأندلسِ من أعظمِ الخُططِ عند الخاصةِ والعامةِ لتعلّقها بأمور الدين والدنيا، وتحدثتُ فيهِ عن مفهومِ القضاءِ، ومشروعيتِه، وما يشترطُ في القاضي من عقلٍ وبلوغٍ وإسلامٍ وحريةٍ وذكورةٍ وعدالةٍ وعلمٍ بالأحكامِ الشرعيةِ وسلامةِ حواسٍ، وتعددتِ الجهاتُ التي تتولّى مسؤوليةَ تعيينِهم كالحاكم أو نائبِه، وأمراءِ الأقاليمِ وقضاتِها، وأهل الشورى، كما تنوعتِ اختصاصاتُهم ما بين قضائيةٍ كالنظرِ في الجراحِ وقضايا الأحداثِ والمناكحِ، والمواريثِ، وغير قضائيةٍ، كالنظرِ في أموال اليتامى، والأحباس، كما اتّخذ كثير منهم له بعض الأعوان والمساعدين، كالكاتبِ، والحاجبِ، والقَومةِ، والأمناءِ، والشيوخ، وقد كانت حياةُ القضاةِ مثالا في الزهدِ والأمانةِ والبساطةِ، ونجد لهم كذلك ألقابا متعددةً، كقاضي الجندِ، والمسددِ، وقاضي الجماعةِ، وقاضي القضاةِ، وخليفةِ القاضي، وأما مذاهبهم الفقهيةُ، فلم يكن لديهم في البدايةِ مذهب مشترطٌ ومتّبع، وبقي الحال كذلك حتى عهدِ الأمير هشامِ بن عبدِ الرحمن بن معاويةَ الداخل عام سبعين ومائةٍ للهجرة، فألزمهم جميعا بمذهبِ مالكٍ، وقد حظِي القضاةُ بِوفْرةٍ من العلوم

والمعارفِ، فكانوا من طبقةِ العلماءِ، وقليلٌ منهم من تخلو حياتُه من الرحلاتِ العلميةِ، وأنهيتُه بالحديثِ عن خصوصياتِ القضاءِ من حيثُ وقتُه ومجلِسه، وديوانُه، واستقلاليتُه.

أما الفصلُ الثاني فقد جاء بعنوان (الأغراض الشعرية لقضاةِ الأندلسِ)، وفيه بذلتُ جاهدا أن أحصي جميع أشعارهم، وأنقّب عنها في بطون أمهاتِ الكتبِ، فكان عدد قضاةِ الأندلسِ كبيرا جدا، وقلّةٌ منهم من استطعنا العثور له على مخلّفاتٍ شعريةٍ، وهم لا يتجاوزون الستّةَ عشَر، وقد قمتُ بدراسةِ هذه الأشعار دراسةً تحليليةً مستفيدا من المناهجِ الأدبيةِ المختلفةِ، وصنّفت أغراضهم الشعريةَ في ثلاثةَ عشَر غرضا وهي: الوصفُ، وجاء على شكل مقطوعاتٍ شعريةٍ حفَلت بالصورةِ الفنيةِ، غير أنّها لم تقترن بفنون شعر المتعةِ الحسيةِ، وغرض الشوق والحنين، الذي شغلَ حيزا واضحا في أشعارهم، ، فعبروا عن طول غربتِهم وشدةِ شوقِهم للأهل والأحبابِ بعواطفَ حارةٍ وصادقةٍ، وغرض المديح، الذي دفعهم إليه حسن النيةِ والشعور، وتوسم الخير في الممدوحِ، فخلعوا عليه ألقابا علميةً وإسلاميةً، وأما غرض الهجاءِ فكان على نوعين: أهاجٍ اجتماعيةٍ تذم أحوالَ الناسِ وسوء معتقداتِهم، وابتعادهم عن روحِ الإسلامِ، وأهاجٍ علميةٍ تدعو إلى العلمِ والاجتهادِ، وتذم أهلَ الجهل والتقليدِ، وغرض الفخر، وتمثّلَ في الاعتزاز بما يكتسبه الإنسان من علومٍ ومعارفَ، وكان غرض الرثاءِ يتمثّلُ في رثاءِ الأبناءِ، فقد لمسنا صدقَ العاطفةِ وحرارتِها عند القاضي أبي الوليدِ الباجي، وكان غرض الشكوى بدافعِ الغَيرةِ، والحرص على الدين ومحارمِه، فساءهم ما آلَ إليه حالُ المسلمين من معصيةٍ وضلالٍ، وقد كان غرض الغزل نَزرا ولا ينبع من عاطفةٍ أو وجدانٍ، ولم نعثر على أشعارٍ في غرض الاستصراخ سوى مقطوعةٍ واحدةٍ، بينما أكثروا من غرضِ العلمِ، وأجادوا فيه، وتنوعت أشعارهم ما بين القصيدةِ والمقطوعةِ، ولعل أكثر ما نظم فيه القضاةُ كان في غرضِ الزهدِ، فحذّروا من قيمةِ الدنيا أمام الآخرةِ، وذكّروا بالموتِ والفناءِ، ودعوا إلى العبادةِ والانقطاعِ إلى الله تعالى، واستلهموا معاني التوبةِ والحمدِ والشكر، وأما غرض الإخوانياتِ والمراسلاتِ، فكان في موضوع الاستعارةِ، والنقدِ، والقضاءِ، والفكاهةِ، والهديةِ، والعلمِ، والاجتماعياتِ، وأخيرا كان غرض الأخلاقِ الذي ما برح قضاتُنا يستلهمونَه ويضمنونَه سائر الأغراضِ تارةً، ويستقلّون به تارةً أخرى.

وكان الفصلُ الثالثُ بعنوان (الخصائص الفنية لشعر قضاةِ الأندلسِ)، وفي ميدان البحثِ عن خصائصِ أشعارهم الفنيةِ، كان بناؤها اللغوي سهلا وبعيدا عن التكلّفِ، حتى أن أسلوبهم في كثيرٍ من الأحيان اقترب من لغةِ النثر، وقد أثّرت الحضارةُ في كثيرٍ من مفرداتِها، كما كثُـر لـديهم أسلوب الطباق، فحقّقوا به تقويةَ الفكرةِ والمعنى، والتعبير عن حالةِ الاضطرابِ لديهم من جراءِ واقعِ الحياةِ وتعقيداتِها، وقد جاءت الجملُ الخبريةُ مؤكدةً بالأسماءِ والحروفِ، مما عكس فـصلَ القول والخطابِ لديهم، وأعطى الكلام نوعا من الحجةِ والبرهان، كما استخدموا الجملَ الإنشائيةَ الطلبيةَ بكثرةٍ، وخرجت إلى معاني متعددةٍ، فأضفَتْ على المعنى والأسلوبِ القوةَ والبيان، كمـا كان لديهم تأثّر واضح وكبير بالقرآن الكريمِ، وذلك من حيثُ القَصص والمعاني والألفاظُ، وهـذا دليلٌ على سعةِ علومِهم، وعنايتِهم بالدين الإسلامي، وكذلك تحدثتُ عن بنـاءِ الـصورةِ الفنيـةِ، فتناولتُ التشبيه المفرد، والتمثيلي والضمني، والاستعارةَ والمجاز والكنايةَ، وقد عكستْ صورهم الفنيةُ حالتَهم النفسيةَ، وتلونت بأحاسيسِها وعواطِفِها، ، وذلك بحسبِ التعريفاتِ والاهتماماتِ التي يؤمنون بها، كما درستُ البناء الموسيقي لتلك الأشعارِ، وتناولتُ عدةَ جوانب في ذلك، كالجناسِ، والترديدِ، والتدويرِ، والتصريعِ، وشكل القصيدةِ وأسلوبِها، والوزن الشعري، والقافيةِ.

وقد ألحقتُ تلك الفصول بجميع أشعارِ القضاةِ التي استطعتُ جمعها، ورتبتُها ترتيبـا أبتثيـا حسب حرفِ الروي، كما وثّقتُ تلك الأشعار من مصادرها التي وردت فيها، وأشرتُ إلى بعضِ التغييراتِ التي أدخلتُها على بعضِ الأبياتِ لتفادي الخطأ في النقل والطباعةِ، وليـستقيم الـوزن الشعري على بحورِ الخليل.

المقدمة

أقبل الدارسون على دراسة الجانب التخصصي والمهني للشخصيات، وأغفلوا كثيرا من الجوانب الأخرى المتمثّلة في اجتماعياتهم، وسياساتهم، واقتصادياتهم،فدرسوا للأدباء آدابهم، وللشعراء أشعارهم، وللفقهاء فقههم، ولأصحاب الحرف حرفهم، وهذا لم يعط الصورة التامة والمتكاملة لتلك الشخصيات، لأن زاوية الرؤية كانت واحدة، والمنهج العلمي يقتضي على الناقد النظر من عدة جوانب وزوايا، وذلك حتى تكون رؤيته أشمل، وحكمه أصوب وأدقّ، فليس معنى شهرة شخصية ما بفن أو مهنة معينة أن أدرس هذا الفن أو هذه المهنة لتلك الشخصية فحسب، فربما كان في دراسة الجوانب الأخرى لتلك الشخصية أعظم فائدة، وأكثر مصداقية.

بثثت أستاذي الدكتور وائل أبو صالح ما يجول في عقلي ونفسي، وذلك بدراسة فئة من فئات المجتمع الأندلسي الذي أهدى البشرية حضارة ثمانية قرون مليئة بالعلوم والمعارف، أنارت ظلام الجهل وبددت عتمة عصور الظلام، فكان أن أشار علي بدراسة أشعار قضاة الأندلس، فصادف هذا الموضوع في قلبي صدى وهوى، فكثيرا ما كانت تطالعني أسماء القضاة، ومسائلهم الفقهية، وتقع بين يدي أحيانا نتف من أشعارهم، ونبذ عن سيرهم وعلومهم، فأثار ذلك في نفسي الفضول وحب العلم والمعرفة، كلّ هذا كان دافعا وحافزا لي لأن أشحذ ذهني، وأحفّز همتي لدراسة هذا الجانب المشرق من تاريخ حضارة الأندلس.

فبدأ مشواري العلمي مع قضاة الأندلس وأشعارهم، وأخذت مشكلات البحث ومصاعبه تترى وتواجهني تباعا، وتمثّلت في قلّة المصادر والمراجع التي تخدم هذا الغرض، وعدم تناسبها وعبء المرحلة الأندلسية وامتدادها، فوجدت قصورا لدينا في دراسة هذه الحقبة من الزمن، والعناية بتراثها الفكري والعلمي، ونضيف إلى ذلك أن دارسينا لم يهتموا بالقضاة إلا من الناحية الفقهية الدينية، وحتّى في هذا الجانب فإنّني لم أعثر على تصور كامل، ودراسة وافرة تعنى بتسليط الضوء الساطع على خطّة القضاء في الأندلس، سوى ما جاء نتفا متفرقة هنا وهناك، فتضاعف بذلك العبء والجهد، واتّسم البحث بطابع الجدة والطرافة، ولقد بذلت الجهد والوقت وأنا أبحث بين طيات المصادر عن أشعار القضاة، فلم تكن سهلة المنال، كما كانت تفتقر إلى

الدراسة والتحقيق، فعملت جاهدا على توثيق الأشعار في أكثر مـن مـصدر، لتحـري الدقـة والصواب، وعرضها على بحور الشعر العربي لضبط أوزانها، وتشكيل كلماتهـا، كمـا كـان لجرائم الاحتلال البغيض بالغ الأثر في اشتداد معاناة شعبنا في جميع الميادين، فقطّعوا أوصـال هذا الشعب، وفرضوا الحواجز والإغلاقات، مما أعاق من حركة الباحث، وأدى إلى عدم تمكّنه من الوصول إلى الجامعة ودور العلم بيسر وسهولة.

ولم أكن مبدعا في هذا البحث، ولست أول من تناول جوانب هذا العمل العلمي، وكـان موضوع بحثي طريفا، ولم يسبقني إليه أحد، غير أنّه كان هناك دراسات سابقة تناولـت بعـض جوانبه، فرجعت إليها في كثير من القضايا، وكان عليها الاعتماد في هيكلية البحـث وقـضاياه، ولعلّ أوفى المصادر التي اعتمدت عليها في مادة البحث كتاب (تاريخ قضاة الأندلس، والمسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا) للنباهي أبي الحسن عبد ا بن الحسن المالقي، وكتاب (قضاة قرطبة) للخشني أبي عبد ا محمد بن حارث بن أسيد القيرواني، فقد تضمن هذان الكتابان وفرة عن قضاة الأندلس وخطّة القضاء فيها، كما اعتمدت على الأستاذ ظافر القاسـمي في كتابه (نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي)- الكتاب الثاني (السلطة القضائية)- وقـد كان هذا الكتاب من أوفى المراجع التي أفدت منها في هذا البحث، ويعود الفضل إليه في وضـع هيكلية الفصل الأول، ولا أنسى أن أشير إلى دراسات أستاذي المشرف الدكتور وائل أبو صالح، فقد كان له دراسات أدبية في بعض القضاة، فله كتاب (منذر بن سعيد البلوطي)، وبحث بعنوان (شعر أبي الوليد الباجي)، وكان لهاتين الدراستين الفضل الكبير في إثراء مادة البحث، فقد أفدت منهما، واقتفيت أثرهما.

ولقد قسمت بحثي إلى ثلاثة فصول، فكان الفصل الأول بعنوان (خطّـة القـضاء فـي الأندلس)، وتناولت فيه مفهوم القضاء لغة واصطلاحا، ومشروعيته في القرآن الكريم والحـديث الشريف والإجماع، والشروط الواجب توفّرها في القاضي كالعقل والبلوغ، والإسلام، والحريـة، والذكورة، والعدالة، والعلم بالأحكام الشرعية، وسلامة الحواس، وشروط أخرى، وتحدثت عـن امتناع بعضهم عن قبول القضاء لثقل هذه الأمانة وعظم مسؤوليتها، كما ذكرت الجهـات التـي تتولّى تعيين القضاة كالخليفة ونائبه، وأمراء الأقاليم وقـضاتها، وأهـل الـشورى، والترشـيح

والانتخاب، كما تعرضت لأهم اختصاصاتهم القضائية وغير القضائية، وتحدثت عن أعوانهم مثل الكتاب، والحجاب، والقومة، والأمناء، والشيوخ، وتعرضت كذلك لخصوصيات القضاة وأحكامهم من حيث مباشرتهم البيع والشراء بأنفسهم، وحضورهم الولائم، وعيادتهم المرضى وحضور الجنائز، وعدم إضافة الخصم دون صاحبه، وامتناعهم عن قبول الهدية، وعدم إصدارهم الأحكام في حالة الغضب، وتحدثت -أيضا- عن أرزاق القضاة ومساكنهم وألبستهم ومراكبهم وألقابهم ومذاهبهم الفقهية وعروبتهم وعلومهم ورحلاتهم. كما بحثت في خصوصيات القضاء، من حيث المجالس والوقت والديوان وضم أعمال مختلفة إليه.

أما الفصل الثاني فقد جاء بعنوان (الأغراض الشعرية لقضاة الأندلس)، ووزعت أغراضهم الشعرية في ثلاثة عشر غرضا وهي: الوصف، ولم يحفل قضاتنا به، فأبتعدوا عن وصف مباهج الطبيعة وزينتها سوى ما جاء في نتف قليلة، وانشغلوا عن ذلك بمهنة القضاء وفعل الطاعات، وغرض الشوق والحنين، فقد كثر لديهم هذا الغرض، وأجادوا فيه، وأكثروا من القصائد، فعبروا أصدق التعبير عن معاناتهم في رحلاتهم وأسفارهم، وما يختلج قلوبهم ونفوسهم من بواعث الماضي والذكريات، وعواطف الشوق والحنين، وغرض المديح، الذي لم يكن الباعث وراءه التكسب والتملّق، وإنّما دفعهم إلى ذلك صدق النية والشعور، وتوسم الخير في الممدوح، فخلعوا عليه ألقابا علمية وإسلامية، وأما غرض الهجاء فقد ابتعد عن صورته التقليدية، وسما عن فواحش القول ورذائل الأمور، فغلب عليه طابع المقطوعة، وكان الهجاء لديهم على نوعين، أهاج اجتماعية تذم أحوال الناس وسوء معتقداتهم، وابتعادهم عن روح الإسلام، وأهاج علمية تدعو إلى العلم والاجتهاد، وتذم أهل الجهل والتقليد، وغرض الفخر الذي نحوا به منحى جديدا، فتمثّل في الفخر بما يكتسبه الإنسان من علم ومعرفة وفصاحة وبيان، لا بما يرثه من حسب ونسب وهيئة وجمال، وكان غرض الرثاء يتمثّل في رثاء الأبناء، فقد لمسنا صدق العاطفة وحرارتها عند القاضي أبي الوليد الباجي، بينما لم يكن غرض الشكوى نتيجة هموم ذاتية، بل كانت بدافع الغيرة، والحرص على الدين ومحارمه، فساءهم ما آل إليه حال المسلمين من معصية وضلال، وقد كان غرض الغزل نزرا ولا ينبع من عاطفة أو وجدان، ولم نعثر على أشعار في غرض الاستصراخ سوى مقطوعة واحدة، بينما أكثروا من غرض العلم، وأجادوا

فيه، وتنوعت أشعارهم ما بين القصيدة والمقطوعه، مما عكس مدى اهتمامهم به، ولعلّ أكثر ما نظم القضاة كان في غرض الزهد، فحذّروا من قيمة الدنيا أمام الآخرة، وذكّروا بالموت والفناء، ودعوا إلى العبادة والانقطاع إلى ا تعالى، واستلهموا معاني التوبة والحمد والشكر والتـضرع والدعاء إلى ا عز وجلّ، وغرض الإخوانيات والمراسلات، وكان في موضـوع الاسـتعارة، والنقد، والقضاء، والفكاهة، والهدية، والعلم، والاجتماعيات، وغرض الأخلاق الذي مـا بـرح قضاتنا يستلهمونه ويضمنونه سائر الأغراض تارة، ويستقلّون به تارة أخرى.

وكان الفصل الثالث بعنوان (الخصائص الفنية لشعر قضاة الأندلس)، وتناولت فيه البناء اللغوي، من حيث السهولة والبعد عن التكلّف، والبساطة والشعبية والاقتراب من لغـة العامـة، واقتراب أسلوب الشعر من النثر، والطباق، والترادف، والجمل الخبريـة والإنـشائية، والتـأثّر بالقرآن الكريم والحديث الشريف من حيث المعاني والألفاظ والقصص، وكذلك تحدثت عن بنـاء الصورة الفنية، فتناولت التشبيه المفرد، والتمثيلي والضمني، والاسـتعارة والمجـاز المرسـل والكناية، كما درست البناء الموسيقي لتلك الأشعار، وتناولت عدة جوانب في ذلـك، كالجنـاس، والترديد، والتدوير، والتصريع، وشكل القصيدة وأسلوبها، والوزن الشعري، والقافية.

وقد ألحقت تلك الفصول بجميع أشعار القضاة التي استطعت جمعها، ورتبتها ترتيبا أبتثيا حسب حرف الروي، كما وثّقت تلك الأشعار من مصادرها التي وردت فيها، وأشرت إلى بعض التغييرات التي أدخلتها على بعض الأبيات لتفادي الخطأ في النقل والطباعة، وليـستقيم الـوزن الشعري على بحور الخليل، كما قمت بعمل جداول توضيحية تشير إلى المخلّفات الشعرية لكـل قاض على حدة، وكذلك تبين نسبة شيوع كل غرض شعري لديهم، أضف إلى ذلك نسبة شـيوع البحور والقوافي والقصيدة والمقطوعة.

وبعد، فهذا جهد المقلّ، فإن أصبت فهذا بتوفيق ا ومنّه، وإن أخطأت، فحـسبي أنّـي حاولت واجتهدت، وبا التوفيق.

الفصل الأول

خطّة القضاء في الأندلس

- مفهوم القضاء
- مشروعية القضاء
- شروط القاضي
- الامتناع عن قبول القضاء
- تعيين القضاة
- اختصاصات القضاة
- أعوان القضاة
- خصوصيات القضاة
- خصوصيات القضاء

مفهوم القضاء

في اللغة:

القضاء الحكم، وأصله قضاي، لأنه من قضيت، والجمع أقضية، والقضية مثله، والجمع قضايا، والقاضي القاطع للأمور المحكم لها، وأصل القضاء القطع والفصل، ويأتي بمعنى الصنع والتقدير، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[(1)]:

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تُبع[(2)]

" الكامل "

ويكون بمعنى العمل كقوله عز وجلّ: "فَاقْضِ ما أَنْتَ قَاضٍ"[(3)]، والقضاء الحتْم والأمـر، ومنه القضاء والقدر، ويأتي بمعنى الفراغ من الشيء، تقول: قضيت حاجتي، ويكـون بمعنـى الوصية والعهد، كقوله تعالى: "وقَضينَا إلى بني إسرائيلَ فِي الكتابِ"[(4)]، ويـأتي بمعنـى الأداء والانتهاء، تقول: قضيت ديني، والقاضية الموت، والقضاء من الدروع التي تم إحكام صـناعتها، قال الشاعر[(5)]:

وكل صموتٍ نثلةٍ تُبعيةٍ ونسج سليمٍ كلّ قَضاء ذائل[(6)]

" الطويل"

---

(1) الهذليين. الديوان، ص19. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة: 1385هـ- 1965م.

(2) مسرودتان: درعان مخروزتان أو منسوجتان، السوابغ: جمع سابغة، وهي ما تمت صناعتها من الدروع، تبع: من ملوك حمير، كانت تنسب إليه الدروع التبعية، ينظر: لسان العرب، المواد: (سرد، سبغ، تبع). دار صادر ودار بيروت، بيروت: 1955م.

(3) طه: الآية (72).

(4) الإسراء: الآية (4).

(5) النابغة الذبياني. الديوان ، ص95. تحقّيق: كرم البستاني، دار صادر ودار بيروت، بيروت: 1383هـ- 1963م.

(6) الصموت من الدروع: الناعمة المصقولة، النثلة: الدرع الواسعة، قضاء ذائل: درع طويلة.

والقضاة جلدة رقيقة تكون على وجه الصبي حين ولادته[1].

وجميع هذه المعاني تدور حول معنى القطع والفصل والإنهاء، فالقاضي يقطع الخلافات بين الخصوم، ويفصل الحقّ عن الباطل، وينهي المنازعات.

في الاصطلاح:

جاء تعريف القضاء المقترن بالقدر في كتاب التعريفات بأنه "عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبـد"[2]، ويـذكر الشيخ المولوي في موسوعته أن القضاء "في الشرع قول ملزم يصدر عن ولاية عامة، وقيل هو في الشرع فصل الخصومات وقطع المنازعات"[3]، ويؤكد ذلك البهوتي بقولـه: "تبـين الحكـم الشرعي، والإلزام به، وفصل الحكومات"[4].

وهذه التعريفات الاصطلاحية جميعها مأخوذة من أصل معناهـا اللغـوي، وهـو القطـع والفصل. ومن هنا يكون القضاء تبيان الحكم الشرعي بالفصل في الخصومات بإعطاء كل ذي حقّ حقّه، وقطع المنازعات بين الخصوم وإنهائها على وجه الإلـزام. فالقاضـي يحكـم بـين الخصوم، ويفصل الحقّ عن الباطل، ويمنع المظالم.

---

(1) أنظر: الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد. كتاب العين، مادة (قضي). تحقّيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، ط1، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت: 1408هـ-1988م. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، مادة: قضي. دار صادر ودار بيروت، بيروت: 1955م. الجوهري، إسماعيل بن حماد. الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (قضي). تحقّيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت: 1399هـ- 1979م. الزبيدي، الإمام محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (قضي). تحقّيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت: 1414هـ-1994م.

(2) الجرجاني، علي بن محمد الشريف. كتاب التعريفات، مادة (قضي). مكتبة لبنان، بيروت: 1969م.

(3) التهانوي، الشيخ المولوي محمد أعلى بن علي. موسوعة اصطلاحات العلوم الإنسانية (المعروف بكشّاف اصطلاحات الفنون)، ج5، مادة (قضي). خياط، بيروت، (د.ت).

(4) البهوتي، منصور بن يونس. الروض المربع بشرح زاد المستنقع، ص508. ط1، مكتبة العبيكان، الرياض: 1413هـ - 1993م.

مشروعية القضاء

القرآن الكريم:

يعتبر القرآن الكريم أهم مصدر للتشريع الإسلامي، وقد جاءت كثير من آياته تخاطب الرسول- صلّى ا عليه وسلّم- والمسلمين،وتأمرهم باتّخاذ شريعة الإسلام العادلة أصلا ودستورا في الحكم والقضاء بين المسلمين ،يقول ا عز وجلّ: "وأن احكُم بينَهم بما أَنْزلَ ا "[1]، فا تعالى بعث سيدنا محمدا -عليه الصلاة والسلام- ليبلّغ الناس رسالته ويحكم بينهم بشريعته التي ارتضاها لهم، وليس الخطاب خاصا برسولنا الكريم وحده، بل يعم جميع المسلمين، فإن ا لا يرضي بغير حكمه.

ويقول تعالى: "إن ا يأْمركُم أن تُؤَدوا الأماناتِ إلى أَهلِها، وإذا حكمتُم بين الناسِ أَن تَحكُموا بِالعدل"[2]، وهنا إشارة إلى وجوب تقصي العدل بين الناس دون ظلم أو جور، ودون تمييز بين مسلم وكافر، فالقاضي المسلم يتحرى العدالة دائما ما أمكنه ذلك، ويبتعد عن التعصب والهوى، وقد اقترن عدل القضاء بالأمانة، لأن القضاء أمانة، بالعدل يكون حفظها، وبالجور تكون خيانتها، فيقول تعالى: "يا داود إنا جعلْنَاك خَلِيفَةً في الأرضِ فَاحكُم بين الناسِ بِالحقّ، ولا تّتبِعِ الهوى فَيضِلَك عن سبِيل ا "[3]، فقد تتصادم أهواء الإنسان مع الحقّ، فلا يجدر به أن يتبع هواه، فالحقّ أحقّ أن يتبع.

ويخاطب ا عز وجلّ رسوله الكريم قائلا: "فَلا وربك لا يؤْمِنُون حتّى يحكموك فِيما شَجر بينَهم، ثُم لا يجِدوا فِي أَنْفُسِهم حرجا مِما قَضيتَ ويسلموا تَسلِيما"[4]، فالآية تنفي الإيمان عمن لم يحتكم إلى شرع ا ، فيطمئن به قلبه ويرضى به، ويسلّم لحكمه عز وجلّ.

---

(1) المائدة: الآية (49).

(2) النساء: الآية (58).

(3) ص: الآية (26).

(4) النساء: الآية (65).

الحديث الشريف:

يأتي الحديث في المرتبة الثانية في التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، و قـد قـضى الرسول - صلّى ا عليه وسلّم- بنفسه بين المتنازعين، وحكم بين المتخاصمين، وقـد بينـت السنّة المكانة التي يتبوؤها القاضي والقضاء في التشريع الإسلامي، فيقول عليه الصلاة والسلام: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"(1)،وفي ذلـك دعوة إلى الاجتهاد من قبل الحاكم أو القاضي.

وقال رسول ا - صلّى ا عليه وسلّم- : "القضاة ثلاثة: واحد في الجنّة، واثنان فـي النار، فأما الذي في الجنّة فرجل عرف الحقّ فقضى به، ورجل عرف الحقّ فجار فـي الحكـم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل، فهو في النار"(2) ،وهنا يوضح الحـديث وجـوب القضاء عن علم ومعرفة، فالجاهل غير العالم بالأحكام الشرعية يحرم عليه القـضاء، لأن فـي حكمه ضياعا للحقّوق ومجلبة للظلم والفساد، وهذا يتنافى مع رسالة القاضـي والقـضاء، لـذا فالقاضي الجاهل يضارع القاضي العالم الجائر. ويؤكّد هذا بقوله أيضا: "إن ا عز وجلّ مـع القاضي ما لم يجر، فإذا جار برئ ا منه، ولزمه الشيطان"(3) ،ويبين الرسـول الكـريم مغبـة

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن عمرو بن العاص، ينظر:

البخاري، أبو عبد ا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة. صحيح البخاري، مج4، ج8، كتاب الاعتصام 97، الباب 21، حديث رقم 7352، ص198. تحقّيق: الشيخ عبد العزيز بن عبد ا بن باز، ط1، دار الفكر، بيروت: 1411هـ-1991م. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. صحيح مسلم، ج3، كتاب الأقضية 30، الباب 6، حديث رقم 15، ص1343، تحقّيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت: 1398هـ- 1978م. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي. سنن أبي داود، مج3، كتاب الأقضية، باب القاضي يخطئ، حديث رقم 3574، ص 299. تحقّيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،دار إحياء السنّة النبوية.

(2) أخرجه أبو داود وابن ماجة عن أبي بريدة عن أبيه، والهيثمي عن عثمان بن عفّان رضي ا عنه، ينظر:

أبو داود. سنن أبي داود، مج3، كتاب الأقضية، باب القاضي يخطئ، حديث رقم 3573، ص 299. ابن ماجة، أبو عبد ا محمد بن يزيد القزويني. سنن ابن ماجة، ج2، كتاب الأحكام 13، الباب 3، حديث رقم 2315، ص776. تحقّيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت: 1373هـ- 1954م. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المجلد الثاني، ج4، كتاب الأحكام، باب في القضاء، ص 193. ط2، دار الكتاب العربي، بيروت: 1402هـ- 1982م.

(3) أخرجه البيهقي عن أبي أيوب الأنصاري رضي ا عنه، ينظر:

الإعراض عن الحقّ في شرع ا بقوله: "إذا جلس القاضي للحكم بعث ا إليه ملكين يـسددانه ويرشدانه ويوفقّانه، فإن جار تركاه وعرجا إلى السماء"[(1)].

وقد قلّد رسول ا القضاء، فولّى معاذ بن جبل قضاء بعض اليمن وقـال لـه: "كيـف تقضي إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب ا . قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنّة رسـول ا ، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب صدره وقال: الحمد الذي وفّـق رسـول رسوله لما يرضيه"[(2)]، فالرسول الكريم يريد أن يبين مصادر التشريع الإسلامي، فالقران الكريم أولا، والسنّة ثانيا، والاجتهاد ثالثا، كما ولّى - أيضا- عليا قضاء ناحية اليمن، وقـال لـه: "إذا حضر الخصمان إليك فلا تقض لأحدهما حتّى تسمع من الآخر"[(3)]، وفي هـذا الحـديث يـضع الرسول أصلا من أصول القضاء، وهو أن تستمع من الطرفين قبل إصدار الحكم. كما استخلف رسول ا عتّاب بن أسيد على مكّة بعد الفتح واليا وقاضيا[(4)].

وهكذا فقد كان الرسول عليه السلام إذا أسلم قوم أقام عليهم من يعلّمهم شرائع الـدين، يقضي بينهم.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي. السنن الكبرى، ج10، كتاب آداب القاضي، الباب 1، حديث رقم20167، ص151. تحقّبق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت:1414هـ-1994م.

(1) المصدر نفسه، حديث رقم20166، ص 151.

(2) أخرجه أبو داود والدارمي والبيهقي عن معاذ بن جبل رضي ا عنه، ينظر:

أبو داود. سنن أبي داود، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، حديث رقم 3592، ص303. الدارمي، عبد ا بن عبد الرحمن السمرقندي. سنن الدارمي، المقدمة، الباب 20، حديث رقم 168، ص 72. تحقّيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي. البيهقي، السنن الكبرى، ج10، كتاب آداب القاضي، حديث رقم20151، ص 147،148.

(3) أخرجه أبو داود وابن ماجة والبيهقي عن سيدنا علي كرم ا وجهه، ينظر:

أبو داود، سنن أبي داود، مج3، كتاب الأقضية، باب كيف القضاء، حديث رقم 3582، ص 301. ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج2، كتاب الأحكام 13، الباب 1، حديث رقم 2310، ص 774، 775. البيهقي، السنن الكبرى، ج10، كتاب آداب القاضي،حديث رقم 20153، 20154، 20155، ص 148.

(4) هو الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن عتّاب بن أسيد بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، أسلم يوم الفتح، واستعمله الرسول على مكّة حين خروجه إلى حنين، فلم يزل إلى أن مات. ينظر ترجمته في:

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد ا بن محمد. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مج3، رقم 1756، ص1023-1024. تحقّيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجيل، بيروت: 1412هـ-1992م. البستي، أبو حاتم محمود بن أحمد بن حبان. مشاهير علماء الأمصار، رقم155، ص 38. تحقّيق: مجدي بن منصور بن سعيد الشوري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1416هـ-1995م. العسقلاني، ابن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة، مج4، رقم5395، ص429. تحقّيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجيل، بيروت: 1412هـ- 1992م.

الإجماع:

وقد أجمع الخلفاء الراشدون على أهمية القضاء، فقعدوا مجالسه يحكمون بين الناس، ويفضون منازعاتهم، كما قلّدوا القضاة والحكام في الأمصار، ، فولّى أبو بكر الصديق سيدنا عمر - رضي ا عنهما- القضاء[1]، والذي بعث بدوره في خلافته ابن سور[2] على قضاء البصرة، وشريحا[3] على قضاء الكوفة[4]، وعبد ا بن مسعود على القضاء وبيت المال[5]، أما عثمان بن عفّان - رضي ا عنه - فقد عرض القضاء على ابن عمر فأبى[6]، كما حكم سيدنا علي بين الناس، وبعث عبد ا بن عباس إلى البصرة قاضيا[7].

وهكذا فإنّنا نجد القضاء قد استمد مشروعيته من القرآن الكريم والحديث الشريف والسنّة النبوية وإجماع الصحابة، أضف إلى ذلك فإن هناك دليلا عقليا يوجب نظام القضاء في المجتمعات، إذ لا يعقل أن يترك الناس فوضى دون قانون أونظام يحكمهم ويحفظ لهم حقوقهم، وإن كان هناك نظام فإن من المنطق والبدهي أن يتولّى حمايةَ هذا النظام أو القانون حامٍ ومسؤول تكون المرجعية إليه للحكم بين الناس، والقضاء فيما اختلفوا فيه، والذي يتمثّل في القاضي ونظام القضاء.

---

(1) أخرج البيهقي عن محارب بن دينار: "لما ولي أبو بكر ولّى عمر رضي ا عنه القضاء، وولّى أبا عبيدة رضي ا عنه المال، وقال: أعينوني، فمكث عمر سنة لا يأتيه اثنان، أو لا يقضي بين اثنين"، ينظر:

البيهقي، السنن الكبرى، ج10، كتاب آداب القاضي، حديث رقم 20156، ص 148- 149.

(2) هو كعب بن سور بن بكر بن عبيد بن ثعلبة، من أفاضل التابعين، يحكى أنّه علّق المصحف في عنقه يوم الجمل، وجعل يذكر الصفّين با . ينظر في ترجمته:

ابن عبد البر، الاستيعاب، مج3، رقم2195، ص1318-1321. البستي، مشاهير علماء الأمصار(744)، ص126.

(3) شريح القاضي: هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي التابعي، ، قال الكثيرون استقضاه عمر على الكوفة، وأقّروه بعده، فبقي على قضائها ستّين سنة إلى زمن الحجاج، وتوفي سنّة 78هـ كما في تاريخ البخاري، وله 120 سنة. ينظر في ترجمته:

ابن عبد البر. الاستيعاب، مج2، رقم1172، ص 701-702. العسقلاني، الإصابة، رقم3884، ص334_336.

(4) البيهقي، السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، حديث رقم 20158، ص 149.

(5) المصدر نفسه، حديث رقم 20157، ص 149.

(6) الهيثمي، مجمع الزوائد، مج2، ج4، كتاب الأحكام، باب في القضاء، ص 193.

(7) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري. الطبقات الكبرى، ج2، قسم2، ص119_124. دار صادر، بيروت: (د.ت).

شروط القاضي:

ولما يناط في القضاء من مهام جسام ومصالح عظيمة تعود على الأمة بالخير والصلاح فإن منصب القضاء لم يك يوما هدفا سهل المنال يتولاه القاصي والداني، بل على العكس من ذلك فقد اشترط الفقهاء -في الأندلس- فيمن يتولّى هذا المنصب شروطا عدة، يقول النباهي المالقي: "وشروط القضاء التي لا يتم للقاضي قضاؤه إلا بها عشرة: الإسلام، والعقل، والذكورية، والحرية، والبلوغ، والعدالة، والعلم، وسلامة حاسة السمع والبصر من العمى والصمم، وسلامة حاسة اللسان من البكم، وكونه واحدا لا أكثر"[1]،وهذه الشروط ليست محلّ اتّفاق بينهم، ونحن هنا نأخذ أرجح الشروط وأوفقها بينهم .

أولا: البلوغ والعقل[2]:

وهذا أمر بدهي ، لأن ولاية القضاء تحتاج إلى العقل الناضج المدرك للأمور، وعليه فلا يقلّد صبي أو مختلّ عقل، وإذا كانت شهادة الصبي غير البالغ و المجنون غير مقبولتين فمن باب أولى ألا تنعقد ولايتهما للقضاء، ولا يكتفى في القاضي العقل والبلوغ المتعلّق بهما التكليف، بل لابد أن يكون نافذ البصيرة متوقّد الذهن كامل العقل، "قال الماوردي: ولا يكتفي بالعقل الذي يتعلّق به التكليف حتّى يكون صحيح الفكر، جيد الفطنة، بعيدا عن السهو والغفلة، يتوصل بذكائه إلى وضوح المشكل وحلّ المعضل"[3].

فالعقل والبلوغ أمران ضروريان، وهما صفتان موجودتان لدى عوام الناس، ولكن على القاضي أن يتميز بأرجحية في عقله، وصفاء في ذهنه، فلا يقوده هوى، ولا يحكمه غضب أو طيش، ولدى قراءتنا تاريخ قضاة الأندلس ، لم نعثر على حكاية واحدة تدلّ على تولّي أحد قضاة

(1) النباهي الشيخ أبو الحسن عبد ا بن الحسن المالقي تاريخ قضاة الأندلس والمسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا ، ص4، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

(2) ينظر: الشربيني شمس الدين محمد بن الخطيب. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، كتاب القضاء،ج4، ص501، تحقّيق: محمد خليل عيتاني ط1، دار المعرفة، بيروت: 1418هـ- 1997م. الكاساني الإمام علاء الدين أبو بكر بن مسعود. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، كتاب آداب القاضي، ج7، ص3، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت: 1406هـ- 1986م.

(3) الشربيني، مغني المحتاج، كتاب القضاء،ج4، ص501.

الأندلس هذا المنصب وهو صغير أو طائش اللب، بل كنّا نجدهم جميعا مثالا حيا للتعقل والرزانة والحكمة، فقد جاء عن القاضي ابن بشير[1] أنه كان "جيد الفطنة، حسن الانبساط، صادق الحس، قوي الإدراك"[2]، أضف إلى ذلك أن معظمهم كانوا يتولّون القضاء بعد سن متقدمة من العمـر، وهذا أدعى إلى الحكمة والتعقل.

ثانيا: الإسلام[3]:

وما دمنا نتحدث عن القضاء الإسلامي فمن الطبيعي أن يشترط الفقهاء الإسـلام فـي القاضي، ولأن القضاء ولاية، ولا تجوز ولاية الكافر على المسلم لقوله تعالى: "ولن يجعـل ا للكافرين على المؤمنين سبيلا"[4]، وقد ذكر الماوردي الشافعي في كتاب الأحكام السلطانية عـن أبي حنيفة أنه يجيز أن يكون الكافر قاضيا بين أهل دينه، وعللوا ذلك بأن أهلية القضاء بأهليـة الشهادة، والذمي من أهل الشهادة على الذميين فهو أهل لتولي القضاء عليهم[5]،. ويرى الدكتور عبد الكريم زيدان رأي الجمهور، فلا يجوز أن يتولّى سلطة القضاء في دار الإسلام إلا المسلم ، سواء أكان قضاؤه على المسلمين أم غير المسلمين[6].

---

(1) هو القاضي أبو بكر محمد بن بشير بن شراحيل المعافري، لقي مالك بن أنس وسمع عنه، ولاه الحكم بن هشام قضاء الجماعة بقرطبة، وتوفي سنة198هـ. ينظر في ترجمته:

النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص47-53. الخشني،أبو عبد ا محمد بن حارث بن أسد القيرواني. قضاة قرطبة، ص28-38. الدار المصرية للتأليف والترجمة:166. الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ص53-54. ت: روحية عبد الرحمن السويفي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1417هـ- 1997م. ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك. المغرب في حلى المغرب، ج1، ص94_95. تحقّيق: خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1417هـ- 1997م.

(2) عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج2، ص495. تحقّيق: أحمد بكير محمود، مكتبة الحياة، بيروت، مكتبة الفكر، طرابلس: 1387هـ- 1997م.

(3) ابن رشد القرطبي، الإمام أبو الوليد محمد بن أحمد. بداية المجتهد ونهاية المقتصد، كتاب الأقضية، الباب الأول، ج2، ص460، ط10، دار الكتب العلمية، بيروت: 1408هـ- 1988م. ابن حزم ، أبو محمد علي بن الاحمد. المحلى، كتاب الأقضية، ج9، ص363، تحقّيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت.

(4) النساء، الآية(141).

(5) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب: الأحكام السلطانية والولايات القضائية، ص84، دار الكتب العلمية، بيروت.

(6) زيدان، عبد الكريم: نظام القضاء في الشريعة الإسلامية، ص224، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت:1419هـ-1998.

ونحن نخالف الدكتور زيدان الرأي ونذهب في ذلك مذهب أبي حنيفة انطلاقا من إيماننّا بالحرية الدينية، واحترام عقائد الديانات الأخرى، فشخص لا يدين بديانتك من غير الممكـن أن تقاضيه بها، كما أنه من الضعف بمكان أن تحاكمه بشريعته، بل يترك هو وشـريعته وليحمـل وزر العمل بها، وهذا يكون في المسائل الدينية من إرث وزواج وعبادات، أمـا فيمـا يتعلـق بالأحكام الدنيوية من قتل وسرقة وحرابة فلا شك أنني أرى رأي الجمهور، فالأحكام تنطبق على جميع أفراد الأمة بغض النظر عن معتقداتهم. وهذا ما وجدناه في المجتمع الأندلسي، فعلى الرغم من تعدد جنسياته وأديانه إلا إننّا لم نسمع أو نقرأ أنه تم تعيين قاض غير مسلم، صحيح أنه كان هناك وزراء يهود أو مسيحيين[1] إلا أن القضاة كانوا جميعهم مسلمين.

ثالثا: الحرية:

ولا تجوز ولاية العبد بالإجماع، وذلك لأن العبد مولّى عليه، وليس له أهلية لأدنى الولايات، ولما لم يجز أن يكون شاهدا لم يصح أن يكون قاضيا[2]، وبما أن القضاء حكم وإلزام فكيف للمحكوم والمملوك أن يكون في موضع الآمر الناهي ففاقد الشيء لا يعطيه؟!، ولم نعثر في أثناء دراستنا لتاريخ قضاة الأندلس على قاض عبد أو مملوك.

رابعا: الذكورة:

ذهب جمهور الفقهاء في الأندلس إلى عدم جواز ولاية المرأة مطلقا[3]، وحجتهم في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة"[4]، ولهذا لم ينقل عن النبي ولا عـن الخلفاء الراشدين من بعده أنهم ولّوا امرأة قضاء ولا ولاية بلد ما .

---

(1) كأبي الفضل ابن حسداي، ينظر :

المقري، الشيخ أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ج3، ج3. تحقّيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت: 1388هـ- 1968م. وابن النغريلة الوزير الغرناطي اليهودي، ينظر: المقري، نفح الطيب، ج3. ابن حزم الاندلسي. الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى. ت: إحسان عباس، دار العروبة، القاهرة: 1960.

(2) الشربيني، مغني المحتاج، كتاب القضاء،ج4، ص501. الكاساني، بدائع الصنائع، كتاب آداب القاضي، ج7، ص3.

(3) ابن رشد القرطبي، بداية المجتهد، كتاب الأقضية، الباب الأول، ج2، ص460.

(4) ينظر: البخاري، صحيح البخاري، مج4، ج8، كتاب الفتن، باب18، ص124.

وقال فقهاء الحنفية بجواز أن تكون المرأة قاضية فيما تصح فيه شهادتها، وشهادتها تصح عندهم فيما سوى الحدود والقصاص، وعلّة ذلك عندهم أن أهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة[1]، أما ابن جرير الطبري وابن حزم فقد أجازا ولايتها للقضاء مطلقا كالرجل، وعلّلوا جواز ولايتها بجواز فتياها[2]، وبهذا القول قال فقهاء المذهب الظاهري: "وجائز أن تلي المرأة الحكم، وهو قول أبي حنيفة، وقد روي أن عمر بن الخطاب أنه ولّى الشفاء - امرأة من قومه- السوق، فإن قيل: قد قال رسول ا - صلّى ا عليه وسلّم: لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة قلنا: إنما قال ذلك رسول ا - صلّى ا عليه وسلّم- في الأمر العام الذي هو الخلافة"[3].

ونرى أن رأي جمهور العلماء هو الراجح في هذه المسألة لكثرة الأدلة التي تؤيدهم، ولإجماع أهل الأندلس وغيرهم على عدم تولية امرأة قضاء قط.

خامسا: العدالة[4]:

فالعدالة شرط لمن يتولّى القضاء، ويوجزها الماوردي بقوله: "أن يكون صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفا عن المحارم، متوقيا للمآثم، بعيدا عن الريب، مأمونا في الرضا والغضب، مستعملا لمروءة مثله في دينه ودنياه"[5]، فقد كان القاضي أبو العباس بن ذكوان[6] "ذا مروءة وافرة...وذا عفاف ونزاهة وبراءة من الريبة، وبعد همة وفرط هيبة وزكانة"[7] وخالف الحنفية في ذلك فأجازوا ولاية الفاسق للقضاء لجواز شهادته، ولم يعتبروا العدالة شرط جواز بل

---

(1) الرشداني، أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني. الهداية في شرح بداية المبتدي، ج3، كتاب أدب القاضي، ص101، تحقّيق: الشيخ طلال يوسف، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(2) الشربيني،، مغني المحتاج، كتاب القضاء،ج4، ص501. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص83.

(3) ابن حزم، المحلى، ج9، ص429-430.

(4) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، أدب القاضي، ج1، ص635، تحقّيق: محيي هلال السرحان، مطبعة الإرشاد، بغداد: 1391هـ- 1971م. الكاساني، بدائع الصنائع، ج7، ص3.

(5) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص84.

(6) هو أبو العباس أحمد بن عبد ا بن ذكوان، ولاه القضاء المنصور بن أبي عامر، وكان يفاوضه في تدبير الملك، توفي سنة413هـ. ينظر ترجمته في: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص84-87. الضبي، بغية الملتمس، ص159-160.

(7) عياض، ترتيب المدارك، ج4، ص662.

اعتبروها شرط كمال وأفضلية، فيحسن بالإمام ألا يختار الفاسق، فإن اختاره فولايتـه جـائزة، وأحكامه نافذة[1].

وأمر العدالة شيء أساسي فقد كان الداعي إلى نظام القضاء لتحقّيق المساواة ورد الحقّوق إلى أصحابها، فالقضاء مرتبط بالعدالة، ومع أن العدالة أمر ضروري وأساسي في القاضي إلا إنّنا نرى رأي الأحناف وذلك لما فيه من المحافظة على حرمة القضاء ونفاذه، وخوفا من أن تعم الفوضى والمعصية بحجة فسق القضاة.

وقد كان قضاة الأندلس مضرب المثل في الحقّ والمساواة والعدالة، فالقاضي ابن بـشير "كان شديد الشكيمة، ماضي العزيمة، صلبا في الحقّ مؤيدا، لا هوادة عنده لأحد، ولا مداهنة لديه لأحد من أصحاب السلطان، لا يؤثر غير الحقّ في أحكامه"[2]، كما أن القاضي ابن أبي عيسى[3] "بسط الحقّ، وأحيى العدل، ونصر المظلوم، وقمع الظالم، ولم يطمع شريف في حيفه، ولا يـئس وضيع من عدله"[4]. وهكذا فإنّنا نجد في أخبار القضاة ما يدل على عدالتهم، وعدم تحيزهم إلـى فئة، كما أنهم لم يداهنوا الولاة والأمراء والخلفاء، فالكل كان سواسية في مجلس القضاء.

سادسا: العلم بالأحكام الشرعية:

ينبغي لمن يتولّى القضاء أن يكون عالما بالأصول التي تستنبط منها الأحكام الـشرعية، وعلى معرفة بالفروع فيما انعقد عليه الإجماع، أو حصل فيه اختلاف، ليتبع الإجماع، ويجتهـد

---

(1) الكاساني، بدائع الصنائع، ج7، ص3.

(2) عياض، ترتيب المدارك، ج2، ص495.

(3) هو أبو عبد ا محمد بن عبد ا بن يحيى بن يحيى بن يحيى بن أبي عيسى بن كثير بن وسلاس،من أهل قرطبة، له علم بالأدب، ولي قضاء كورة جيان وكورة إلبيرة وكورة طليطلة، ثم ولاه الناصر قضاء الجماعة بقرطبة عام326هـ، وكان الخليفة ينتدبه في السفارات إلى كبار الأمراء، ويرسله لترتيب المغازي، توفي عام338هـ وقيل339هـ، ويقال لم يكن في قضاة الأندلس أكثر شعرا منه. ينظر ترجمته في: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص59-63. الخشني، قضاة قرطبة، ص118-120. الضبي، بغية الملتمس، ص94-95.

(4) عياض. ترتيب المدارك، ج4، ص408.

في الاختلاف[1]، وبهذا اشترط في القاضي أن يكون مجتهدا، فقال بذلك الإمام مالك والـشافعي والحنابلة، وحجتهم أن القضاء آكد من الإفتاء لأنه إفتاء وإلزام، والمفتي لا يجوز أن يكون عاميا مقلدا، فالقاضي أولّى ألا يكون مقلدا[2].

أما فقهاء الحنفية فقالوا إن الاجتهاد ليس شرطا لتولي القضاء، لأنه يمكن للقاضي غيـر المجتهد أن يقضي بعلم غيره بالرجوع إلى فتوى غيره من العلماء، واستدلّوا بأنـه إذا جـاز أن يحكم في الاستفتاء في نفسه جاز أن يحكم به في حقّ غيره لأنهما معا حكم بعلم، وقالوا لأن من جاز أن يكون شاهدا جاز أن يكون قاضيا كالعالم[3]. والذي رأينا عليه قضاة أهل الأندلس هـو التبحر في العلوم، وعلى معرفة ودراية بالأصول والفروع وما انعقد عليه الإجماع، فقـد كـان القاضي محمد بن يبقى بن زرب[4] "دقيق التفقه، مستبحرا في المسائل، حافظا للأصول، حاذقـا بالفنون، كثير الأقتداء، متثبتا في أحكامه"[5]. أما القاضي أبو الوليد الباجي[6] فقـد كـان "فقيهـا نظارا محقّقا راوية محدثا، يفهم صيغة الحديث ورجاله"[1].

---

(1) الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص636- 637.

(2) الرملي، شمس الدين محمد بن أبي العباس الأنصاري. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، ج8، كتاب القضاء، ص238، الطبعة الأخيرة، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر: 1386هـ-1967م. ابن قدامى، الإمامان موفق الدين وشمس الدين. المغني ويليه الشرح الكبير، ج11، كتاب القضاء، ص382، دار الكتاب العربي، بيروت: 1403هـ-1983م.

(3) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص85.

(4) هو قاضي الجماعة أبو بكر محمد بن يبقى بن محمد بن زرب بن يزيد بن مسلمة، ولي سنة367هـ، وتوفي381هـ. ينظر ترجمته في: ابن الفرضي، أبو الوليد عبد ا بن محمد بن يوسف بن نصير. تاريخ علماء الأندلس، ص369- 370. تحقّيق: روحية بن عبد الرحمن السويقي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1417هـ-1997م. الضبي، بغية الملتمس، ص127، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص77-82.

(5) عياض، ترتيب المدارك، ج4، ص631.

(6) هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد التبيجي القرطبي، فقيه مالكي كبير من رجال الحديث، أصله من بطليوس، ومولده في باجة عام 403هـ، ولي القضاء في بعض أنحاء الأندلس عام 439هـ بعد أن عمل قاضيا في حلب لمدة سنتين، وله كتب جمة في الفقه والأصول والفروع. ينظر ترجمته في: ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري المدني المالكي. كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ص37. دار الكتب العلمية، بيروت. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج2، ص408-409. ت: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص327_328. الحموي، ياقوت. معجم الأدباء، ط3، مج6، ج11، ص46-251. دار الفكر، بيروت: 1400هـ-1980. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك.

سابعا: سلامة الحواس[2]:

اشترط العلماء في القاضي أن يكون سليم الحواس من بصر ونطق وسمع، فـلا تجـوز ولاية الأعمى والأخرس عند الشافعية والحنابلة والحنفية، فالأعمى لا يميز المدعِي من المـدعى عليه، والأخرس غير قادر على النطق بالاحكام، ولا يفهم جميع الناس إشاراته، أما سلامة السمع فقد اشترطها الشافعية والحنابلة حتّى يسمع القاضي قول الخصمين وشهادة الشهود.

والراجح في مذهب مالك أن السمع والبصر والنطق مشترطة فـي اسـتمرار ولايـة القاضي للقضاء، وليست مشترطة في جواز ولايته له، فقد جاء في شروط من يـولّى القـضاء: "وما يقتضي عدمه الفسخ، وإن لم يشترط في الصحة: كونه سميعا بصيرا..."[3].

ونرى ما ذهبت إليه المالكية أحرى رعاية لمصالح الناس، واستقرارا للأمور، وحرمـة للقضاء، إلا أن هذه المراعاة لا تعني جواز استمرار بقاء القاضي في ولايته، ولكن تعني صحة ولايته وشرعيتها، ولكن على الحاكم عزله وتولية غيره ممن توفرت فيهم الشروط.

وفي أخبار قضاة الأندلس ما يدلّ على ما سبق، فقد ورد أن القاضي أسـلم بـن عبـد العزيز[4] "كفّ بصره في أخريات أيامه، فطلب لأجل ذلك الإعفاء فأعفي، ولزم بيتـه صـابرا محتسبا إلى حين وفاته"[5]، كما أن القاضي إسماعيل بن عباد[1] في إشبيلية "نزل الماء في عينيه

الوافي بالوفيات، ج15، ص372-374. اعتناء: بيرند راتك، دار النشر فرانز شتايز شتوتغارت، بيروت: 1411هـ-1991م.

(1) عياض. ترتيب المدارك، ج4، ص662.

(2) ينظر: الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص621-625.

(3) القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس. الذخيرة، ج10، ص16، تحقّيق: الأستاذ محمد بوخبزة، ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1994م.

(4) هو قاضي القضاة أبو الجعد أسلم بن عبد العزيز بن هاشم بن خالد بن عبد ا بن الحسن بن جعد بن أسلم بن أبان بن عمرو مولى عثمان بن عفّان، ولي قضاء الجماعة مرتين، وتوفي سنة319. ينظر ترجمته في:

ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص81. الضبي، بغية الملتمس، ص204. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص63.

(5) ابن الخطيب، لسان الدين. الإحاطة في أخبار غرناطة،ج1،ص432. تحقّيق: محمد عبد ا عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة: 1393هـ-1973م.

فقدحه ورجع شيء من بصره، فلم يستنجز الحكم بين الناس بـه فـولّى ولـده أبـا القاسـم[2] القضاء"[3].

ثامنا: شروط أخرى:

وأضاف الفقهاء شروطا أخرى حري بالقاضي الاتصاف بها ، فينبغي أن يكون القاضي قويا من غير عنف ، لينا من غير ضعف، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الـضعيف مـن عدله، ذا فطنة وتيقظ، لا يؤتى من عقله، ولا يخنع لغرة، عفيفا، بصيرا، بعيدا عـن الطمـع[4]، وهذا ما وجدناه في قضاة الأندلس، فقد كانوا يتحلون بمحاسن الأخلاق وحسن العـشرة ولطافـة الدعابة من غير ضعف، فهذا القاضي ابن السليم[5]، "كان مع هيبته ورئاسته حسن العشرة كريم النفس"[6]، كذلك فقد كان القاضي منذر بن سعيد البلوطي[7]"-على متانة دينـه، وجزالتـه فـي

(1) هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد اللخمي، أول من استقلّ بإشبيلية من رجال الدولة العبادية، قدمه المنصور بن أبي عامر فتولّى القضاء بإشبيلية، وأضيفت إليه الأمانة فلقب بذي الوزارتين، واضطرب أمر الأمويين بالأندلس، فنهض بأعباء إشبيلية مستقلا. ينظر:

ابن عذارى المراكشي. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج3، ص193-194. تحقّيق: ج.س. كولان وإ.ليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت: 1973.

(2) هو أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد، من نسل ملك الحيرة النعمان بن المنذر، يقال له القاضي ابن عباد، وهو مؤسس الدولة العبادية في إشبيلية عام 414هـ، وكان في بدء أمره قاضيا بإشبيلية أيام استيلاء القاسم بن حمود عليها بعد زوال دولة الأمويين، ثم استقلّ بها وتلقب بالظافر وتملك قرطبة وغيرها. ينظر ترجمته في: الذهبي، شمس الدين أحمد بن عثمان. سير أعلام النبلاء، ج17، ص527-530. تحقّيق: شعيب الأرنؤوط، ط7، مؤسسة الرسالة: 1410هـ-990م. ابن عذارى المراكشي. الحميدي، أبو عبد ا محمد بن أبي نصر. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، قسم1، ص134. تحقّيق: إبراهيم الأبياري، ط2،دار الكتب الإسلامية، القاهرة وبيروت: 1403هـ- 1983م.

(3) ابن عذارى المراكشي. البيان المغرب، ج3، ص194.

(4) ابن قدامى، المغني، ج11، ص385.

(5) هو قاضي الجماعة الفقيه المشهور أبو بكر محمد بن إسحقّ بن منذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم بن أبي عكرمة الداخل إلى الأندلس، ولي المظالم والشرطة بقرطبة إلى أن توفي قاضيها منذر بن سعيد، فولي القضاء مكانه عام356هـ، وتوفي سنة367. ينظر ترجمته في: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص75-77. الخشني، قضاة قرطبة، ص120، الضبي، بغية الملتمس، ص50-51. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص355-356.

(6) عياض، ترتيب المدارك، ج4، ص542.

(7) هو أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد ا البلوطي، من أهل قرطبة، ولي قضاء ماردة ثم قضاء الثغور الشرقية، ثم استقضاه عبد الرحمن الناصر قضاء الجماعة بقرطبة سنة339هـ، وكان خطيبا شاعرا، وكان بصيرا بالجدل، متحرفا إلى مذاهب أصحاب الكلام، لهجا بالاحتجاج، وله كتب في القرآن والسنة والرد على أهل الملل والأهواء،ولد سنة273هـ، وتوفي355هـ. ينظر ترجمته في: الضبي، بغية الملتمس، ص406-407. المقري،

أحكامه- حسن الخلق، كثير الدعابة، ربما ارتاب بباطنه من لا يعرفه، حتّى إذا رام أن يـصيب من دينه ثار به ثورة الليث العادي"[1]، كما يظهر بعدهم عن الطمع بما أثر عـنهم مـن زهـد وتقشف، فلم يطمعوا في مال أو جاه، فقد كان ابن السليم "من أهل الزهد والتقـشف والبـر"[2]، وكان أبان بن عيسى بن دينار[3] "فقيها غاب عليه الزهد والورع"[4]. كما يستحب في القاضـي "سلامة أطرافه، وبهجة صورته،وزيادة ورعه، وزكانة تقواه، وحسن الأحدوثة عنه، وخلوه عن الشبهات في الاعتقادات، وتضلعه في علم الشروط والأقضية والحكومات، فإنها أمر وراء الفقه، واستمداده من علم الأدب المانع من اللحن والسقط، واتصافه بكل جميلة تزيده هيبة في النفـوس وعظمة في القلوب، وخلوه من كل ما ينقص من قدره ومنزلته في أقواله وأفعاله"[5]، وهذا مـا وجدناه في غالبية قضاة الأندلس، وسنوجز ذلك أثناء حديثنا عن علوم القضاة ورحلاتهم.

واشترط الماوردي أن يكون عاملا بأصول الشرع الأربعة، فلا يعدل عـن بعـضها، ويعتقد إبطال شرع منها، ولا يكون ممن لا يقولون بخبر الواحد، ولا يكـون ممـن لا يقولـون بحجة الإجماع، ولا يكون من نفاة القياس[6]. ولا شك أن هذه الصفات مرغوب فيهـا ولازمـة للقاضي، وعلى المولّى أن يتخير قضاته، وأن يجعل هذه الـصفات مرجحـات عنـد التكـافؤ والتساوي.

الامتناع عن قبول القضاء

نفح الطيب، ج2، ص16-22. ابن خاقان،أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد ا القيسي الإشبيلي. مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ص237- 259. تحقّيق: محمد علي شوابكة، ط1، دار عمار ودار الرسالة، بيروت: 1403هـ- 1983م. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص398. دار المعرفة، بيروت. الحموي، أبو عبد ا ياقوت الرومي. معجم الأدباء، ج19، ص174-185. ط3، دار الفكر، بيروت.

(1) الحميري، محمد بن عبد المنعم. الروض المعطار في خبر الأقطار، ص95. تحقّيق: د. إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت: 1984م.

(2) عياض، ترتيب المدارك، ج4، ص542.

(3)هو أبو القاسم أبان بن عيسى بن دينار بن واقد بن رجاء بن عامر بن مالك الغافقي، توفي سنة262. ينظر ترجمته في: ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص27. الضبي، بغية الملتمس، ص203.

(4) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص98.

(5) ابن أبي الدم، القاضي شهاب الدين إبراهيم بن عبد ربه. كتاب أدب القضاء، ص42، تحقّيق: محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1407هـ- 1987م.

(6) الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص641-642.

على الرغم من أن خطّة القضاء من أشرف الخطط وأعظم الرتب، إلا أن الكثير ممن عرض عليهم القضاء امتنعوا عن قبوله، وذلك لما له من أمانة وعبء لا يقوم به إلا أولي العزم، وكتب أخبار القضاة وتراجمهم تغص بأمثال هؤلاء، الأمر الذي يجعل القارئ ينظر إليهم نظرة إعجاب وتقدير ، فقد اشتروا آخرتهم بدنياهم، فلم يركنوا إلى متاع الدنيا الزائل وبهرجها.

فنرى كثيرا من هؤلاء فر بنفسه، وآثر الابتعاد عن أعباء القضاء ومشاكله "فلما أراد هشام[1]للقضاء بقرطبة زيادا بن عبد الرحمن[2] ، وعزم عليه خرج منها فارا بنفسه..."[3]، ومنهم الفقيه إبراهيم بن محمد بن باز[4]، فقد دعاه الأمير محمد بن عبد الرحمن[5] ليعرض عليه القضاء، فقال: "إن ألح علي الأمير في هذا ومثله هربت -وا - بنفسي من بلده، فما لي وله؟"[6]، وقد وصل الأمر أن أُكره بعضهم على القبول، وأوكل به الحرس خوفا من أن يهرب، فقد أكره الأمير محمد بن عبد الرحمن أبان بن عيسى بن دينار على قضاء كورة جيان، وأوكل به الحرس، فحكم بين الناس ليلة واحدة، ثم هرب على وجهه[7]، ومنهم من دعي للقضاء فأبى، فاستمهل ثلاثة أيام فمات خلالها وبذلك فضل لقاء ربه وليس في عنقه ولاية على أن يلقاه بولايته هذه فيحاجه الخصوم يوم القيامة[8].

---

(1) هو الأمير أبو الوليد هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، ثاني أمراء الدولة الأموية بالأندلس والمسمى بهشام الرضى، ولي الإمارة وسنه ثلاثون عاما، واتصلت ولايته سبعة أعوام، وتوفي عام 180هـ. ينظر ترجمته في: المقري، نفح الطيب، ج1، ص334-338. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص10. ابن عذارى المراكشي. البيان المغرب، ج2، ص61- 68.

(2) هو أبو عبد ا زياد بن عبد الرحمن بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي والمعروف بشَبطُون، فقيه الأندلس على مذهب مالك، وهو أول من أدخل مذهبه إلى الأندلس، توفي عام 204 على أرجح الآراء. ينظر ترجمته في: ابن الفرضي. تاريخ علماء الأندلس، ص131-132. الضبي، بغية الملتمس، ص253-254. المقري، نفح الطيب، ج2، ص45-46.

(3) النباهي. تاريخ قضاة الأندلس، ص12.

(4) هو الفقيه العالم أبو اسحقّ، المعروف بابن القزازن توفي سنة 273 وقيل 274. ينظر ترجمته في: الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص232. الضبي، بغية الملتمس، ص179-180. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص18.

(5) هو الأمير أبو عبد ا محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل، ولد عام207هـ، وولي238هـ، ومات273هـ. ينظر ترجمته في: الضبي، بغية الملتمس، ص20. المقري، نفح الطيب، ج1، ص350-120. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج2، ص93-113. ابن الأبار، أبو عبد ا محمد بن عبد ا بن أبي بكر القضاعي. الحلة السيراء، ج1، ص119-120. تحقّيق: حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة: 1985م.

(6) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص12.

(7) ينظر: الخشني. قضاة قرطبة، ص7. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص12-13.

(8) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص13.

تعيين القضاة[1]

ونقصد بتعيين القضاة الجهة المسؤولة عن ترشيحهم وتعيينهم، وفي دراستنا كتب القضاء وأخبار القضاة استطعنا أن نحدد الفئات التي كانت تعين القضاة، أو توكل إليها مهمة ترشـيحهم وتعيينهم.

أولا: الخليفة أو الأمير:

فهو المسؤول الأول والفعلي عن تعيين القضاة، ولا سيما تعيين قاضـي القـضاة، لأن القضاء في الأصل من واجبات الخليفة، وذلك لدخول القضاء في عموم ولايته، فالتقليد لا يصح إلا من جهته. وقد ذكر الخشني: "استقضى يحيى بن يزيد على الأندلس عمر بن عبد العزيز"[2]، كذلك فإن معاوية بن صالح الحضرمي[3] " ولاه الأمير عبد الرحمن بـن معاويـة[4] القـضاء بقرطبة"[5]، وفي ترجمة محمد بن بشير المعافري أنه "استقضاه الحكم بن هشام[6]"[7]، ومن هنـا

(1) الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص142-153. القاسمي، ظافر. نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الكتاب الثاني (السلطة القضائية)، ط3، دار النفائس، بيروت: 1407هـ- 1987م.

(2) الخشني، قضاة قرطبة، ص14.

(3) هو أبو عمرو وقيل أبو عبد الرحمن معاوية بن صالح بن حدير بن سعيد بن سعد بن فهر الحضرمي الحمصي، من كبار رواة الحديث، أخذ عنه جملة من العلماء كسفيان الثوري، ولاه عبد الرحمن الداخل قضاء الجماعة بالأندلس، وكان يحضر معه غزواته، وعزل في أواخر أيامه، توفي عام168 وقيل172 وقيل158. ينظر ترجمته في:

النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص43. الخشني، قضاة قرطبة، ص15-21. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص400-402. الضبي، بغية الملتمس، ص400-402. ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني. كتاب تهذيب التهذيب، ج10، ص189-191. ط1، دار الفكر، بيروت: 1404هـ-1984م.

(4) أبو مطرف هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل، أول أمراء بني أمية بالأندلس، ولد بالشام سنة113، وهرب لما ظهرت دولة العباس، ودخل الأندلس سنة138 في زمن أبي جعفر المنصور. ينظر ترجمته في:

الضبي، بغية الملتمس، ص8-9. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج2، ص47-68. المقري، نفح الطيب، ج1، ص327-334. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص35-42.

(5) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص43.

(6) هو الأمير أبو العاص الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، المعروف بالحكم الربضي، من أفحل ملوك بني أمية بالأندلس، ولي وعمره اثنتان وعشرون سنة، وتوفي سنت206. ينظر ترجمته في:

المقري، نفح الطيب، ج1، ص338_344. الضبي، بغية الملتمس، ص10. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج2، ص68-80. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص13-17. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص43-50.

(7) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص47.

فإنّنا نجد في كتب أخبار القضاة الأندلسيين وتراجمهم أن الحاكم الأعلى هو الذي كـان يتـولّى مباشرة تعيين القضاة بنفسه في الغالب، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على شرف هذه الخطّة وعظمتها، ولأنها أساس بناء الأمة فإن صلحت صلحت باقي الإمارات، واستتب الأمن والعـدل والحقّ في البلاد.

ثانيا: نائب الخليفة:

وهو الشخص الذي يختاره الخليفة، ويفوض إليه اختيار القضاة وتعيينهم كـولي العهـد والوزير وقائد الجند حين الفتح.

ثالثا: أمراء الأقاليم وقضاتها:

ويعتبر أمراء الأقاليم وولاتها نواب الخليفة، فيجوز لهم أن يعينوا القضاة في أقاليمهم إن أذن لهم الخليفة بذلك، حيث إن مهدي بن مسلم[1] "استقضاه على قرطبة عقبة بن الحجاج[2]، واستخلفه عليها، وأمره بالقضاء بين أهلها"[3]، كما يجوز لقاضي الإقليم الذي عينه الخليفة أن يعين قاضيا على بعض نواحي الإقليم، وذلك إذا عجز عن النظر في جميع النواحي، ويلزمه تقليد القضاء فيما عجز عن مباشرة النظر فيه، وذلك بعد إذن الخليفة.

رابعا: أهل الشورى:

ولا نقصد أنه كان للإمام مجلس شورى بالمعنى المعاصر، وإنّما كان يخـتص الحـاكم ببعض الوجوه والأعيان من الفقهاء والعلماء وأخص المقربين، فيستشيرهم في بعـض مـسائل الحكم، وشؤون الولايات، فقد "استشار الأمير عبد الرحمن بن معاوية أصحابه في قاض يوليـه

---

(1) ينظر ترجمته في: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص42. الخشني، قضاة قرطبة، ص8-12.

(2) هو الأمير عقبة بن الحجاج السلولي، دخل الأندلس سنة116 وقيل117 واليا عليها من قبل عبيد ا بن الحبحاب أمير مصر وأفريقية في أيام هشام بن عبد الملك، وقيل استشهد ببلاط الشهداء، وقيل ثار عليه أهل الأندلس فخلعوه سنة123. ينظر ترجمته في:

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. الكامل في التاريخ، مج5، ص250-252. دار صادر ودار بيروت، بيروت: 1385هـ-1965م. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج2، ص29-30. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم2، ص507.

(3) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص42.

على قرطبة، فأشار عليه ولده هشام وحاجبه ابن مغيث بالمصعب بن عمران[1]، ووقف الاختيار عليه"[2]، وكذلك فقد جاء أن محمدا بن بشير "أشير على الحكم بن هشام بتقديمه إلى خطة القضاء بقرطبة"[3]، وبهذا نري أن الحاكم كان يتمحص ويحتاط فيشاور أولي الأمر والمعرفة، فيـرجح أنسب المرشحين ويوليه.

كما أن كثيرا ممن كانوا يمتنعون عن قبول القضاء، كانوا يجبرون على الإشارة بقاض نيابة عنهم، فأشار الفقيه يحيى بن يحيى[4] لما أراده الأمير عبد الرحمن على القضاء بإبراهيم بن العباس بعدما امتنع، وأجبر على الإشارة[5]، وقلما كان يولّى عبد الرحمن قاضيا إلا بإشارته.

كما ورد أن قاضي الجماعة بقرطبة "كان يعينه الحاكم...فكان يتشاور مـع الـوزراء، والشخصيات ذوات الهيبة في قرطبة الذين كانوا يشيرون بالمرشّحين، ونادرا مـا كـان قـضاة قرطبة يعينون دون مشاورة سابقة"[6].

خامسا: الترشيح والانتخاب:

على الرغم من أن التولية هي الطريقة المتّبعة في خطّة القضاء، غير أننا نجد ما يـدعم فكرة ترشيحهم وانتخابهم، فربما كان الشعب هو الذي يولّي مباشرة، وربما كان هو الذي يرشّح فيلتزم المولي بالمرشح، وجاء في كتاب المغرب عن القاضي أبي بكر بن ذكوان[7] "إن أعيـان

(1) هو القاضي أبو محمد المصعب بن عمران بن شفى بن كعب بن كعبر الهمداني، ولي قضاء الجماعة أيام هشام وابنه الحكم، ينظر ترجمته في:

النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص45-47. الخشني، قضاة قرطبة، ص24_28. ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ص397.

(2) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص12.

(3) الضبي، بغية الملتمس، ص53.

(4) هو الفقيه أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس بن شملل بن منقايا، كانت فتيا الأندلس تعود عليه، وكان يفتي برأي مالك بن أنس، توفي سنة234. ينظر ترجمته في:

ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص431-432، الضبي، بغية الملتمس، ص445-446. المقري، نفح الطيب، ج2، ص9-12.

(5) ينظر: ابن سعيد، المغرب، ج1، ص97. الخشني، قضاة قرطبة، ص51. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص14-15.

(6) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص(ح).

(7) هو أبو بكر، محمد بن أحمد بن عبد ا بن هرثمة بن ذكوان، ولد سنة 395هـ، وتوفي435هـ. ينظر ترجمته في:

قرطبة هتفوا باسم أبي بكر في القضاء عند ولاية أبي الحزم بن جهور[1]، وأجمعوا على أنه في الكهول حلما، وعلما، ونزاهة، وعفة، وتصاونا، ومروءة، وثروة، فأمضى له الولاية ابن جهور..."[2]، وفي كتاب الصلة أنه "قلّده الرئيس أبو حزم بن جهور بإجماع أهل قرطبة على ذلك أحكام القضاء"[3]، فلم يكن الحاكم يوما ليجرؤ علي تعيين من لا إجماع عليه، كما نرى أن أمر تعيين قاضي القضاة كان حدثا بارزا ومهما يترقّبه الناس ويشيرون بمن هو أهل لذلك.

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك. كتاب الصلة، قسم2، ص395. الدار المصرية للتأليف والترجمة: 1966م. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص36. ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، ص42. دار الثقافة، بيروت.

(1) هو الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، ولد سنة364هـ، وتوفي435هـ. ينظر ترجمته في: المقري، نفح الطيب، ج1، ص302-304. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص245-251.

(2) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج1، ص36.

(3) ابن بشكوال، الصلة، قسم2، ص525.

اختصاصات القضاة

بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية أصبح من المتعذر على القاضي القيام بجميـع المهـام والاختصاصات القضائية التي تعرض عليه، الأمر الذي استدعي تخصيص بعض القضاة ببعض المهام، ويفصل الأستاذ ظافر القاسمي هذه المهام على النحو الآتي[1]:

أولا: الاختصاصات القضائية:

أ- الاختصاص النوعي، وهو اختصاص القاضي بنوع واحد من القضايا، مثل النظر في الجراح، وهو ما كان فيه اعتداء على الأنفس والأموال والأولاد والأعراض، وقضاء الأحداث، وهي الجرائم الكبرى التي تقع في المجتمع، مثل القيام بفتنة أو الحرابة وغيرها من الأمور التي تشكل خطورة على المجتمع بأسره. وقاضي الجند أو العسكر، وهو من يسير مع الجند ليفصل بينهم، ويحكم فيما اختلفوا فيه، ويذكر النباهي المالقي أنه "لما دخل الإمام عبد الرحمن بن معاوية قرطبة، ألفى فيها يحيى بن يزيد التبيجي قاضيا، فأثبته على القضاء، ولم يعزله إلى أن مات، قال: وكان يقال له وللقضاة قبله بقرطبة قاضي الجند"[2].

وقاضي الركب، وكان خاصا بركب الحجيج لفصل الخلافات التي يمكن أن تقع بيـنهم. وقاضي البر، ويقصد بالبر كل ما عدا المدن من أرياف وبواد، وقاضي المناكح، وهـو خـاص بعقود الزواج والحقّوق الزوجية، وخطّة المواريث، وهي المتعلّقة بقضايا الإرث والتركة.

ب- الاختصاص الكمي، ويكون القضاء فيها قاصرا على كمية محددة من المال، يقول الماوردي الشافعي نقلا عن أبي عبد ا الزبيدي: "لم يزل الأمراء عندنا بالبـصرة برهـة مـن الـدهر، يستقضون على المسجد الجامع قاضيا يسمونه قاضي المسجد، يحكم في مئتي درهم وعـشرين دينارا فما دونها..."[3].

---

(1) القاسمي، نظام الحكم، الكتاب الثاني، ص255_272.

(2) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص21. الخشني، قضاة قرطبة، ص14.

(3) الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص173.

ثانيا: الاختصاصات غير القضائية[1]:

أ- النظر في أموال اليتامى، فقد أمر أمير المؤمنين الحكم المستنصر با القاضي محمد بن السليم "أن يحترس بأموال اليتامى، ولا يولّي عليهم إلا أهل العفاف عنها وحسن النظر فيها، وأن يجدد الكشف والامتحان عن أموال الناس والأحباس واليتامى"[2]، فليس هناك من هو أرعى وآمن لمصالح اليتامى من القاضي الذي اجتمعت فيه صفات العلم والأمانة والدين فأهلته لهذا المنصب.

ب- النظر في الأحباس والوقوف، والتفقّد لأحوالها وأحوال الناظر فيها، فقد ورد في ترجمة القاضي الفرج بن كنانة[3]، وقد أراد أن يحمي جاره من طغيان رئيس الحرس، فقال له: "ليس هذا من شأنك، فعليك النظر في أحباسك وحكومتك، ودع ما لا يعنيك"[4]، وفي ترجمة معاذ بن عثمان الشعباني[5]: "قد ولّى أحباسه بقرطبة رجلا ظن به خيرا"[6]، فلم يكن الحبس جبا والداخل فيه ضائعا في غياهبه، بل كان يوكل إلى القاضي تفقد هذه الأحباس وأحوالها، وإعادة النظر في المحبوسين، والسماع لشكواهم.

ج- إلزام الولاية للسفهاء والمجانين، والتحجر على المفلس حفظا للأموال.

د- تنفيذ الوصايا على شروط الموصي إذا وافقت الشرع.

هـ- تزوج الأيامى من الأكفياء إذا عدم الأولياء، وأردن التزويج.

---

(1) القاسمي، نظام الحكم، الكتاب الثاني، ص275-279. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص5-6.

(2) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص76.

(3) هو الفرج بن كنانة بن نزار بن عتبان بن مالك الكناني، ولاه الحكم بن هشام قضاء الجماعة بقرطبة سنة198هـ، وتوفي213هـ. ينظر ترجمته في:
النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص53-54. الخشني، قضاة قرطبة، ص40-44. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص275. الضبي، بغية الملتمس، ص389.

(4) الخشني، قضاة قرطبة، ص41. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص53.

(5) ولاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم قضاء الجماعة بقرطبة. ينظر ترجمته في:
النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص55. الخشني، قضاة قرطبة، ص55-57.

(6) الخشني، قضاة قرطبة، ص56.

و- تصفّي الشهود، وتفقّد الأمناء، واختيار من يرتضيه لذلك.

وهكذا نرى أن القاضي لم تقتصر مهمته يوما على القضاء وفض النزاعات، بل كانـت تتعداها إلى مراقبة سائر مرافق الحياة والإشراف على مصالح العباد، وضمان الحقّوق والأموال والأمانات وحفظها، والقيام برعاية المحتاجين وأيتام، وولاية أمورهم.

أعوان القضاة

لا ريب أن القاضي بحاجة لمعاونين ومساعدين يخفّفون عنه أعباء القضاء ولوازمه، وخاصة بعد اتساع رقعة الدولة، وتشعب نواحي الحياة وتعقّدها، غير أن هؤلاء الأعوان لم يكونوا موحدين في جميع الأمصار والأزمان، حتّى في المصر الواحد والزمان الواحد كان هناك اختلاف في الأعوان من قاض إلى قاض آخر، ونحاول هنا أن نوجز أشهر هؤلاء الأعوان:

أولا: الكاتب:

وظيفته أن يكتب المحاكمات والشهادات ولوازمها، وذلك حتّى يتفرغ القاضـي لـسماع الخصوم والشهود، و "ينبغي للقاضي أن يتخير كاتبا من أهل العفاف والصلاح والفهـم، جـائز الشهادة، ثم يقعده حيث يرى ما يكتب وما يصنع"[1]،وقد عرف هذا المنصب في عهد سيدنا عمر بن الخطاب، فقد كان أبو موسى الأشعري قاضيا، وكان له كاتب، فقد "كتب عمـر إلـى أبـي موسى: إن كاتبك الذي كتب إلي لحن، فاضربه سوطا"[2].

وقد اتخذ قضاة الأندلس شأنهم شأن المشارقة كتّابا، ففي ترجمة محمد بن عبد ا بـن أبي عيسى: "قال القاسم بن محمد كاتبه أيام قضائه بإلبيرة: ركبنا..."[3]، وفي ترجمة إبراهيم بن العباس القرشي: "لما أبى يحيى بن يحيى من قبول القضاء، وأشار بـإبراهيم بـن العبـاس أن يستقضي، وأن يكون كاتبه زونان[4]..."[5]، وفي هذا دلالة واضحة على اتّخاذ القـضاة كتّابـا يسجلون المرافعات والشهادات ولوازمها. وربما أنيطت بالكاتب مهمة أخرى كمراقبة الأسـواق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي ترجمة أحمد بن محمد بن سعيد بن الحباب أنه "كان

---

(1) ابن عبد البر، ابو عمر يوسف بن عبد ا بن محمد النمري القرطبي، الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، كتاب أدب القاضي، ص498، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1407هـ-1987م.

(2) وكيع، محمد بن خلف بن حيان، أخبار القضاة، ج1، ص286، عالم الكتب، بيروت.

(3) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص61. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص405-412.

(4) هو الفقيه الزاهد أبو مروان عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زريق بن عبيد ا بن رافع بن أبي رافع مولى رسول ا المعروف بزونان، كان مفتيا أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن وأيام عبد الرحمن بن الحكم، توفي سنة232هـ. ينظر ترجمته في:

ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلي، ص220. الضبي، بغية الملتمس، ص328.

(5) الخشني، قضاة قرطبة، ص51.

كاتب القاضي منذر بن سعيد، ومخلّفه في السوق"[1]. غير أنّنا نجد بعض القضاة في الأندلس يستغنون عن الكاتب ويباشرون الكتابة بأنفسهم، فيروى عن القاضي محمد بن بشير المعافري أنه "كان إذا قعد للقضاء جلس وحده، لا يجلس معه أحد، وخريطته بين يديه، يتولّى أكثر الكتاب بيده"[2]، غير أن مثل هذه المواقف كانت خروجا عن النمط المألوف والمذهب الدارج، فكان موقف القاضي ابن بشير زيادة في الحيطة والحذر وذلك حتّى يتأكد من صحة ما يكتب ويملى، وذلك بمباشرته الكتابة بنفسه.

ثانيا: الحاجب:

وهو من يقف بباب مجلس القضاء، وينظّم دخول المتقاضين، ويحرس القاضي، فيذكر أن القاضي عمرو القبعة[3] كان يخرج إلى المسجد "وبين يديه رجل يحمل خريطته بكتب، وشيخ يمشي إلى جنبه، فإذا هم رجل أن يدنو من القاضي ليكلّمه في مسيره إلى المسجد دفعه عنه وقال: اذهب حتّى يجلس القاضي في مجلس القضاء"[4].

ولا نفهم من ذلك أن الحاجب كان يقوم بحجب المتظلمين والخصوم عن القاضي، بل كان مجلس القضاء مفتوحا أمام الجميع، وكل ما على الحاجب عمله هو تنظيم عملية سير القضاء، فالكلّ يدخل بدوره وفي انتظام، وذلك حتّى يبقى لمجلس القضاء حرمته، ويحتفظ بهيبته. وقد كان الأمير أو الحاكم يوصي بحسن اختيار الحاجب، والتأكد من عفافه وطهارته، حيث أمر أمير المؤمنين الحكم المستنصر با [5] القاضي محمدا بن السليم "أن يختبر كاتبه

---

(1) ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص24.

(2) المصدر نفسه، ص30.

(3) هو أبو عبد ا عمرو بن عبد ا بن ليث القبعة، استقضاه الأمير محمد بن عبد الرحمن قضاء الجماعة بقرطبة، وتوفي سنة273هـ. ينظر ترجمته في: الخشني، قضاة قرطبة، ص67-73. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص254-25.

(4) الخشني، قضاة قرطبة، ص69.

(5) هو أبو العاصي الحكم المستنصر با بن عبد الرحمن الناصر، ولي الإمارة سنة350هـ، وتوفي 366هـ. ينظر ترجمته في: المقري، نفح الطيب، ج1، ص382_396. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص200-205. الضبي، بغية الملتمس، ص21-24.

وحاجبه وخدمته، ويتفقد عليهم أحوالهم إذا غابوا عن بصره"[1]، كذلك أمر عقبة بن الحجاج القاضي مهدي بن مسلم "أن يكون حاجبه وأعوانه ومن يستظهر به على ما هو بسبيله أهل الطهارة والعفاف"[2].

وفي هذا إشارة واضحة على أن الحاجب كان يختار من أهل التقى والصلاح، وذلك حتّى لا يحابي أحد الحضور على الآخر، وحتّى يكون من أهل الخلق والدين فلا يستغل منصبه لأغراض دنيوية محرمة.

ثالثا: القومة:

وقد عرفوا بالأندلس، واختصاصهم قريب من الشرطة، فهم الموكّلون بحماية مجلس القضاء، وتنفيذ الأحكام الصادرة بحقّ الجناة، فيورد الخشني في ترجمته عن محمد بن زياد القاضي[3]: "يقول للقَومة وقد دعاهم: إنما بلغني عنكم...فاتقوا ا واستقيموا، وأعينوني على الحقّ، لئن وجدت أحدا منكم قد خاط لأجعلنه نكالا"[4]، وفي موضع آخر يقول: "...القاضي جالس في المسجد، وهذا طابعه، وهو يأمرك في النزول إليه فقال: سمعا وطاعة، وثنى رجله ونزل، فلما توسط باب المسجد بدر إليه من حضر من القومة، فقال لهم: تفقدوا لي أحد الخصوم..."[5].

والقومة شأنهم شأن باقي الأعوان يتم اختيارهم على أسس سليمة، كما يقوم القاضي بمراقبتهم والتأكد من قيامهم بالأعمال الموكلة إليهم على أكمل وجه دون ظلم أو جور.

---

(1) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص76.

(2) الخشني، قضاة قرطبة، ص10.

(3) هو محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير بن ناشرة اللخمي، ولي قضاء الجماعة في عهد عبد الرحمن بن الحكم، وتوفي سنة240. ينظر ترجمته في:

الضبي، بغية الملتمس، ص66. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص55_56. الخشني، قضاة قرطبة، ص57-61.

(4) الخشني، قضاة قرطبة، ص61.

(5) المصدر نفسه، ص78-79.

رابعا: الأمناء:

ويتولّون أعمالا متصلة بالقضاء، ويفترض فيهم توفر الأمانة، فقد جاء أن أحمد بن محمد بن زياد[1] لما أعيد إلى قضاء الجماعة وإلى الصلاة "تعنّت أمناء أسلم بن عبد العزيز وامتحـنهم في الودائع، واضطرهم إلى إحضار ما بأيديهم من الأموال"[2].

ويورد النباهي في ترجمة أحمد بن عبد ا [3]: "كان قد ولاه أمير المـؤمنين الـسوق، والنظر في أموال بعض كرائمه، وقلّده أسباب الأمانات في بعض الكور، وولاه قـضاء كـورة البيرة، فكان بها حتّى نقله أمير المؤمنين -أعزه ا - إلى قضاء الجماعة بقرطبة"[4]. ومن هنـا يظهر أن مهام الأمناء كانت حفظ الأمانات والودائع من أموال وغيرها، كما قـد توكـل إلـيهم الوصاية على أموال اليتامى، وأنّه منصب مستحدث لم يكن سابقا.

خامسا: الشيوخ:

يقوم القاضي بمشاورتهم، وبعرض الأحكام عليهم، ففي ترجمة أحمد بن مخلـد[5]، أنـه "ولي القضاء، فاتّخذ لخدمته أعوانا شيوخا أولي سداد، سأل أن يرزقوا من بيت المال"[6]، وهـم بمثابة مجلس شورى يرجع إليهم القاضي إن احتاج حكما شرعيا أو إفتاء ولا سيما إن لم يكـن من أهل الاجتهاد، لذلك فإن هؤلاء الشيوخ هم مجموعة من العلماء والفقهاء أصـحاب الـرأي والاجتهاد.

---

(1) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بالحبيب، استقضي أيام الإمام الناصر لدين ا مرة بعد مرة، وتوفي سنة312هـ. ينظر ترجمته في:

ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص33-34. الخشني، قضاة قرطبة، ص101-109،105-110.

(2) الخشني، قضاة قرطبة، ص110.

(3) هو قاضي الجماعة أبو عمر أحمد بن عبد ا بن أبي طالب غصن بن طالب بن زياد بن عبد الحميد بن الصباح بن يزيد بن زياد الأصبحي، توفي سنة326هـ، وقيل327هـ. ينظر ترجمته في: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص63. الخشني، قضاة قرطبة، ص117-118. الضبي، بغية الملتمس، ص158. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص38.

(4) الخشني، قضاة قرطبة، ص118.

(5) هو قاضي الجماعة أبو عبد ا أحمد بن بقى بن مخلد، ويكنى أبا عمر وقيل أبا عبد ا ، توفي سنة344هـ. ينظر ترجمته في: الضبي، بغية الملتمس، ص148. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص38. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص63-65. الخشني، قضاة قرطبة، ص222-231.

(6) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص64.

خصوصيات القضاة

أولا: مباشرة القاضي البيع والشراء بنفسه:

يرى الماوردي الشافعي كراهية مباشرة القاضي البيع والشراء بنفسه خوفا عليه من المحاباة والزيادة، فإن احتاج إليهما وكّل من ينوب عنه، ولا يكون معروفا به، فإن لم يجد بدا من مباشرته ذلك بنفسه، واحتكم إليه من بايعه أو شاراه فعليه ألا ينظر في حكومته بنفسه، ويستخلف من ينظر فيها[1].

غير أنّنا نجد القاضي الأسوار بن عقبة[2] "يحمل خبزه إلى الفرن بنفسه، ويتصرف في مهنة أهله"[3]، كذلك كان القاضي أبو عمر أحمد بن يحيى بن سحيق "يتناول شراء حوائجه بنفسه حتّى البقل..."[4] ونرى في هذا دلالة على التواضع وحسن السيرة، من غير أن نجد في ذلك ما يشين القاضي من محاباة أو زيادة.

ثانيا: حضور القاضي الولائم:

قال الشافعي: "ولا أحب أن يتخلف عن الوليمة، إما أن يجيب كلا، وإما أن يترك كلا ويعتذر إليهم، ويسألهم التحليل"[5]، وذلك لأن على القاضي أن يشارك أهل بلده في الأفراح والأتراح ولا ينعزل عنهم، وبذلك يكون قريبا من قلوب الناس وعالما باجتماعياتهم وهمومهم.

ثالثا: عيادة القاضي المرضى وحضوره الجنائز:

"قال الشافعي: ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويأتي مقدم الغائب، وهذا صحيح، وهذه قرب يندب إليها جميع الناس، فكان الولاة فيها كغيرهم، لأن المقصود بها طاعة الله عز وجلّ،

---

(1) الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص237-241.

(2) هو القاضي أبو عقبة الأسوار بن عقبة بن حسان بن عبد الله النصري، استقضاه عبد الرحمن بن الحكم بقرطبة، وتوفي عام213هـ. ينظر ترجمته في: ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص81. الخشني، قضاة قرطبة، ص110.

(3) الخشني، قضاة قرطبة، ص48-49.

(4) ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص57.

(5) الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص241.

وطاعة رسول ا - صلّى ا عليه وسلّم"[1]، فالقاضي لا ينخلع من محيطه الذي يعيش فيه، بل يمارس مهنته القضائية، ويصل إخوانه ويتفقدهم ويساعدهم ما أمكنه ذلك.

رابعا: لا يضيف القاضي الخصم دون صاحبه:

ولا ينبغي أن يضيف القاضي الخصم دون صاحبه، لما فيـه مـن ظهـور الممايلـة والتحيز[2]، وهذا من أساسيات القضاء، فالناس أمام الشرع والقانون سواسية، لا مجـال فيهمـا للصداقة والإخوانيات.

خامسا: منع القاضي من قبول الهدية:

ويجب أن يمتنع القاضي عن قبول الهدية، وإن كان يهدى إليه قبـل ذلـك حتّـى تنفـذ خصومته، وينبغي لكل ذي ولاية أن يتنزه عن قبول هدايا أهل عمله[3]، وقد جـاء أن القاضـي محمد بن يبقى بن زرب قبل هدايا المنصور محمد بن أبي عامر[4]، "فعـابوه بقبولـه لهـداياه، والاستساغه لعطيته"[5].

سادسا: لا يحكم القاضي وهو غضبان:

فعلى القاضي اختيار الوقت المناسب للقضاء، ويكون فيه مطمئن القلب هادئ النفس، فلا يحكم بين المتخاصمين وهو غضبان، فالغضب يصرف الإنسان عن التعقل ودقة النظر[6]، وقد

---

(1) الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص245.

(2) ينظر: ابن عبد البر، الكافي، كتاب أدب القاضي، ص497. الماوردي، أدب القاضي، ج2، ص263_264.

(3) ابن عبد البر، الكافي، كتاب أدب القاضي، ص498. الماوردي، أدب القاضي، ج2، ص264-265.

(4) هو محمد بن عبد ا بن محمد بن عبد ا بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، أمير الأندلس في دولة المؤيد با هشام بن الحكم المستنصر با ، حيث إنه لما مات المستنصر با كان المؤيد صغيرا، فخيف الاضطراب فقام بشؤون الدولة ودامت له الإمرة ستة وعشرين عاما، وكان قبل ذلك قد ولي قضاء كورة رية ثم إشبيلية، ولد عام327هـ، وتوفي392هـ. ينظر ترجمته في: ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص268-277. المقري، نفح الطيب، ج1، ص396-423. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص80-82. الضبي، بغية الملتمس، ص99-100.

(5) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص79.

(6) ابن عبد البر، الكافي، كتاب أدب القاضي، ص497.

روي عن النبي - عليه الصلاة والسلام- :"لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان"[(1)].

سابعا: أرزاق القضاة:

ولعلّ سيدنا عمر هو أول من عين للقضاة أرزاقا من بيت المال فقد "استعمل عمر بـن الخطاب زيد بن ثابت على القضاء، وفرض له رزقا"[(2)].

ومع ذلك فإنّنا نجد قضاة لم يقبلوا أخذ أجر على القضاء، وكان يعمل بنفسه، ويقتـات من ثمن عمله، فقد جاء في ترجمة القاضي محمد بن اسحقّ بن السليم: "إنه كان يتصيد الحيتـان بنهر قرطبة، ويقتات من ثمنها"[(3)]، كذلك كان القاضي أبو عمر أحمد بن سحيق "يختلف إلى غلّة له بحومة المترب، يعمرها بالعمل ليعيش منها"[(4)]، وبهذا نرى أن القضاة كانوا جـد مثـابرين، ومثالا في العمل والتواضع. ومنهم من امتنع عن أخذ الأجرة عن يوم العطلة، فقد ذكر النباهي في ترجمة القاضي نصر بن طريف اليحصبي[(5)] أنه كان "من زهده وورعـه إذا اشـتغل عـن القضاء يوما واحدا لم يأخذ لذلك اليوم أجرا..."[(6)]، ويذكر الخشني في ترجمة سليمان بن أسـود الغافقي[(7)]: "لما عزل سليمان عن قضاء ماردة وافى باب القصر بقرطبة، وكتـب إلـى الأميـر محمد -رحمه ا -: "إن بيدي مالا تجمع من أرزاقي، وجب علي صرفه إلى بيت المال، وهـو مما حاسبت فيه نفسي من أيام الجمع وأوقات الاشتغال، والأحيان التي وجب علي فيها النظر فلم أنظر"[(8)].

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي بكرة. ينظر ترجمته في: البخاري، صحيح البخاري، ج8، كتاب الأحكام، باب13، رقم7158، ص138. مسلم، صحيح مسلم، مج3، كتاب الأقضية، باب7، رقم1717، ص1342. البيهقي، السنن الكبرى، ج10، كتاب آداب القاضي، باب10، رقم20275، ص179.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، مج2، ص359.

(3) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص147.

(4) ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص58.

(5) ينظر ترجمته في: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص44. الخشني، قضاة قرطبة، ص23-24.

(6) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص44.

(7) قلده الأمير محمد بن عبد الرحمن قضاء الجماعة بقرطبة، ويذكر أنه قضى اثنين وثلاثين عاما، وعاش تسعة وتسعين عاما. ينظر ترجمته في: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص56-59. الخشني، قضاة قرطبة، ص73-82.

(8) الخشني، قضاة غرناطة، ص73.

وبعضهم كان لا يأخذ رزقا إلا من مال الفيء بقدر كفاف حاجته، حيث اشترط محمد بن بشير المعافري على الحكم بن هشام لما استقضاه "أن يكون رزقه كفافا من المال الفيء..."[1]. ومن هذه النصوص نجد أن القضاة كانوا متفرغين لمهنة القضاء، ويتقاضون راتبا من بيت المال، لكنهم كانوا لا يأخذون إلا ما يستحقّون، فبعضهم يرفض أن يأخذ أجرا في أيام العطل، وبعضهم كان لا يأخذ إلا كفافا.

ثامنا: بيت القاضي:

يقول الماوردي في القاضي: "ويختار أن يسكن في وسط البلد ليقرب على جميع أهله..."[2]، وأما من حيث البناء ومحتواه، وما به من متاع وأثاث فقد كانت بيوتهم غاية في البساطة لا تحوي غير أساسيات المسكن دون نعومة أو بذخ وترف.

ونرى أنه "لما عزل يحيى بن معمر[3] عن القضاء بقرطبة، بعث إليه أحد الوزراء - وكان من أخص إخوانه به- ابنا له بزوامل[4] وأعوان، وقال لابنه: تذهب إلى القاضي -رحمه ا - وتسأله أن يحمل على هذه الزوامل ثقله وما احتاج إليه، فلما أتاه ابن الوزير برسالة أبيه، وأحضره الزوامل قال له القاضي: ادخل حتّى ترى ما عندنا من الثّقْلة[5]، فدخل فإذا بيت القاضي ليس فيه إلا حصير وخابية[6] بدقيق وصحفة وقُلة[7] للماء وقدح[8] وسرير كان يرقد عليه، فقال له ابن الوزير: وأين الثقلة؟ فقال: هذه ثقلتي أجمع، ثم قال للغلام: فرق الدقيق على

(1) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص48.

(2) الماوردي، أدب القاضي، ج1، ص194.

(3) أبو بكر هو يحيى بن معمر بن عمران بن منير بن عبيد بن أنيف الإلهاني، استقضاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم قضاء الجماعة بقرطبة سنة209هـ. ينظر ترجمته في: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص44-45. الخشني، قضاة قرطبة، ص45-48. الضبي، بغية الملتمس، ص442. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص430.

(4) الزامل من الدواب الذي يظلع في سيره من نشاطه.

(5) الثقلة: الأمتعة.

(6) الخابية: وعاء يحفظ فيه الطعام ونحوه، وجمعها خوابٍ

(7) القلة: الجرة العظيمة من الفخار، وجمعها قُلل وقلال

(8) القدح: إناء للشرب، وجمعها أقداح.

من بالباب من الضعفاء، وامضي في بعض القومة يقصوا هذا الحصير والأواني، ثم خرج وقال: جزى ا الوزير أباك خيرا، تقرؤه سلامي، ثم توجه إلى إشبيلية"[1].

وهكذا نجد بيت القاضي بسيطا خاليا من مظاهر النعمة والترف، بل كان يقتصر علـى أدنى أساسيات المعيشة، كما يظهر لنا في خبر عزل يحيى بن معمر وقصته مع ابن الـوزير أن الدولة كانت تتكلّف ببيت القاضي وتوفره له، فكان البيت ملك الدولة تمنحه للقاضي طالما هو في مهنته، فإن انتهت يخرج من بيت القضاء ليسكنه القاضي الجديد، وهذا يظهر في طلب الـوزير من ابنه أن يذهب إلى بيت القاضي ويحمل حاجاته وأمتعته على الدواب ليخلّي البيـت ويخـرج منه.

تاسعا: لباس القاضي ومركبه:

حدثنا الخشني أن القاضي سعيدا بن سليمان الغافقي[2] " جلس للحكم في المسجد وعليـه جبة صوف بيضاء، وفي رأسه (أقروف)[3] أبيض، وغِفارة[4] بيضاء من ذلك الجنس"[5]، وفـي ترجمة عمرو بن عبد ا بن ليث: "...فرأيتـه جالـسا يحكـم بـين النـاس، وعليـه ثـوب (شركاب)[6]..."[7].

(1) الخشني، قضاة قرطبة، ص48.

(2) أبو خالد هو سعيد بن سليمان بن حشيب بن المعلى بن إدريس بن محمد بن يوسف الغافقي البلوطي، من أهل قرطبة، استقضاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم مرتين لقضاء الجماعة. ينظر ترجمته في:

الخشني، قضاة قرطبة، ص61-65. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص54، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص138.

(3) لم نعثر له على معنى دقيق، وأقرب ما وجدناه: القروف الأوعية تتخذ من الجلود ونحوها، وهي أيضا الأدم الأحمر، الواحد قرف، ينظر:

الصاحب، إسماعيل بن عباد. المحيط في اللغة، ج5، مادة (قرف)، ص394، تحقّيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت: 1414هـ-1994م.

(4) كل ثوب يغطى به شيء فهو غفارة، وجمعها غفارات وغفائر، والغفارة زرد ينسج من الدروع يلبس تحت القلنسوة، ينظر: مطلوب، أحمد. معجم الملابس في لسان العرب، ص89، ط1، مكتبة لبنان، بيروت: 1995م.

(5) الخشني، قضاة قرطبة، ص62.

(6) لم أعثر له على تسمية.

(7) الخشني، قضاة قرطبة، ص70.

ويخبرنا ابن بشكوال في كتابه الصلة في ترجمة ابن فطيس[1] "أنه كان من أبناء الدنيا، فلما ولي القضاء غير زيه، وترك زي الوزراء، وعاد إلى الأخضر زي الفقهاء"[2].

فنجد أن ألبسة القضاة لم تكن موحدة، فأحدهم يلبس الأبيض والثاني يلـبس الأخـضر وآخر يقترب زيه من زي الرؤساء، وعلى الرغم من عدم توحدها إلا أن في طبيعة ألبستهم مـا يميزهم عن غيرهم من عامة الناس.

وبالنسبة للعمائم[3]، فقد لبسوها في غرب الأندلس بينما تركوها فـي شـرقها، يقـول المقري: "وأما زي أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، ولا سيما في شرق الأندلس، فـإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا إليه إلا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بـشرقها في ذلك"[4].

كما نجد الطيلسان[5] لباسا شعبيا عندهم، "فلا تجد في خواص الأندلس، وأكثر عـوامهم من يمشي دون طيلسان، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظّمون"[6]. كما يظهر لنا تواضع القضاة، فلم يركبوا الخيول والبغال والعربات، حتّى إنهم امتنعوا عن ركوب الحمـار داخل المدينة، وآثروا المشي على القدمين، فيقول الخشني في ترجمة سعيد بن سليمان الغـافقي:

---

(1) هو أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطين بن أصبغ بن فطيس بن سليمان، ولي خطة القضاء بقرطبة مجموعا إلى خطة الوزارة والصلاة. ينظر ترجمته في:

ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص309_313. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص87_88. الضبي، بغية الملتمس، ص309.

(2) ابن الأبار، الصلة، قسم1، ص312.

(3) جمع عِمامة، من لباس الرأس،وهي ما تلف على الرأس تكويرا، ينظر: الصعيدي ، عبد الفتاح، وحسين يوسف موسى، الإفصاح في فقه اللغة، ص376. ط2، دار لاالفكر العربي: 1384هـ_1964م.مطلوب، معجم الملابس في لسان العرب، ص88.

(4) المقري، نفح الطيب، مج1، ص222.

(5) الطيلسان: ضرب من الأكسية من لباس العجم، وجمعها طيالس وطيالسة. ينظر في: الصعيدي، عبد الفتاح وحسين يوسف موسى. الإفصاح في فقه اللغة، ج1، ص371

(6) المقري، نفح الطيب، مج1، ص222.

"ثم خرجنا معه نمشي، ولم يركب"[1]، ويقول فيه أيضا: "كان سعيد بن سليمان القاضي يحكم في المسجد الجامع، ويأتي إليه ماشيا"[2].

كما وجدنا في ترجمة القاضي محمد بن بشير أنه أحدث في لباسه، وجاء بما لم يأت به قاض قبله، فقد كان يرى "داخلا على باب المسجد الجامع يوم الجمعة، وعليه رداء معـصفر ، وفي رجليه حذاء يصر، وعليه جمة[3] مفرقة، ثم يقوم فيخطب، ويقضي وهو في هذا الزي"[4]، وحكي عنه أيضا "أنّه أتاه رجل لا يعرفه، فلما نظر إلى زي الحداثة، من الجمة المفرقة والرداء المعصفر، وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء في يديه لم يتوسم عليه القضاء"[5] ، "وقد لـبس ابن بشير الخز فلم يتبعه الناس"[6].

عاشرا: ألقاب القضاة:

أ- قاضي الجند، وجد هذا اللقب من بداية الفتوحات الإسلامية، حيث كان هذا القاضي مرافقـا للجنود ومختصا بالقضاء بينهم، "فلما دخل الإمام عبد الرحمن بن معاويـة قرطبـة، وقـام بالإمامة ألفى فيها يحيى بن يزيد قاضيا، فأثبته على القضاء، ولم يعزله إلى أن مات. قـال: وكان يقال له وللقضاة قبله بقرطبة قاضي الجند... وإن تسمية القاضي اليوم بقاضي الجماعة اسم محدث لم يكن في القديم"[7].

ب- المسدد، وهو من ولّي القضاء على بلدة صغيرة، فقد جاء: "وأما خطّة القضاء بالأنـدلس، فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة، لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان لو توجه عليه حكم

---

(1) الخشني، قضاة قرطبة، ص64.
(2) المصدر نفسه، ص64.
(3) الجمة من الإنسان: مجتمع شعر ناصيته، أو ما ترامى من شعر الرأس على المنكبين.
(4) الخشني، قضاة قرطبة ، ص32.
(5) المصدر نفسه، ص32.
(6) المصدر نفسه، ص36.
(7) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص21.

حضر بين يدي القاضي، هذا وضعها في زمان بني أمية، ومن سـلك مـسلكهم، ولا سـبيل أن يتسمى بهذه التسمية إلا من هو وال للحكم الشرعي في مدينة جليلة، وإن كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها إلا مسدد خاصة"[1]، ويظهر أن هذه التسمية كانت تطلق في عصر ولاية بني أمية.

ج- قاضي الجماعة، وهو في الأندلس نظير قاضي القضاة عند المشارقة، وفي رواية الخـشني "أن القاضي يحيى بن يزيد التبيجي هو أول من سمي قاضي الجماعة، وأنه اسم محدث لم يكـن في القديم"[2].

د- قاضي القضاة، وأول ما عرف هذا اللقب في المشرق، ويبدو انه عرف في الأندلس منذ الفتح حتّى أواخر عصر الولاة، فقد جاء أن "قاضي القضاة يقـال لـه: قاضـي القـضاة وقاضـي الجماعة"[3]، كما يظهر أن لقب قاضي القضاة حلّ محلّ قاضي الجماعة في الدولـة العامريـة، فورد في ترجمة القاضي أبي العباس بن ذكوان أن الحاكم عبد الرحمن بن المنـصور[4] "رفـع منزلته، وولاه الوزارة مجموعة إلى قضاء القضاة، وبقي ذلك إلى أن انقرضت دولة بني عـامر بقيام المهدي بن عبد الجبار المرواني[5] عليهم، أول ملوك الفتنة...وأزال عنـه اسـم قاضـي القضاة، واقتصر به على قضاء الجماعة"[6].

(1) المقري، نفح الطيب، مج1، ص217-218.

(2) الخشني، قضاة قرطبة، ص14.

(3) المقري، نفح الطيب، مج1، ص217-218.

(4) هو عبد الرحمن الناصر بن المنصور بن أبي عامر ويلقب بشنجول، وهو حاجب الخليفة هشام بن الحكم بقرطبة وآخر العامريين، ولي الحجابه بعد أخيه المظفر، وطلب من الخليفة هشام أن يوليه العهد من بعده فولاه هشام ذلك لضعفه. ينظر ترجمته في:

المقري، نفح الطيب، ج1، ص424_426. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج3، ص38_50.

(5) هو أبو الوليد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي الملقب بالمهدي با ، خرج على المؤيد با الأموي بقرطبة سنة399هـ، وبايعه الناس وملك قرطبة وحبس المؤيد في القصر ثم أظهر أنه مات، واستقر أمره إلى أن انتقض عليه سليمان بن الحكم وتغلب عليه، فسار ابن عبد الجبار إلى طليطلة وجمع عسكرا وعاد إلى قرطبة فاستولّى عليها وجدد البيعة بها لنفسه. ينظر ترجمته في:

ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج3، ص50_62. المقري، نفح الطيب، ج1، ص426.

(6) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس،ص 86.

هـ - خليفة القاضي: إن التخليف والنيابة أمران طبيعيان ومعلومان بالضرورة، فكل مسؤول أو صاحب ولاية له مخلّف ينوب عنه في غيابه أو تعذر قيامه بمهامه، والقضاة في الأندلس شأنهم شأن باقي الولاة كان لهم مخلّفون يتابعون مهام القضاء في حالة غياب القاضي أو عجـزه عـن متابعة قضاء بعض أقاليمه، فقد كان أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الحسن الجذامي المتوفى عام واحد وستين وأربعمئة "مخلفا للقضاة بألبيرية وبجانة"[1]، وفي ترجمة أبي الربيـع سليمان بن عمر بن محمد الأموي المعروف بابن صهيبة أنه "كان ابن يعـيش يـستخلفه علـى القضاء، وكان يدعى بالقاضي"[2].

حادي عشر: مذاهب القضاة:

لم يكن هناك في الأندلس بداية مذهب متّبع، ولئن وجدنا أن المذهب الأوزاعي كان سائدا في الأندلس منذ بداية الفتح، غير أن الولاة والأمراء لم يحملوا القضاة على القضاء بهذا المذهب، بل وجدنا أن كلّ قاض كان يقضي بما يراه مناسبا، فالمصعب بن عمران "كان لا يقلّـد مـذهبا، ويقضي بما يراه صوابا"[3]، وبقي القضاء في الأندلس على هذه الحال حتّى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فألزم القضاة جميعهم بالتزام مذهب مالك، وصير القضاء والفتيا عليه عام سبعين ومائة للهجرة[4].

وجدير بالذكر أن عمل أهل قرطبة كان حجة في المغرب، "قال الإمام ابـن عرفـة - رحمه ا -: في اشتراط الإمام على القاضي الحكم بمذهب معين - وإن خالف معتقد المـشترط اجتهادا وتقليدا- ثلاثة أقوال: الصحة للباجي[5] ولعمل أهل قرطبة"[6]، من هنا يظهـر أن ابـن

(1) ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص62.

(2) المصدر نفسه، قسم1، ص199.

(3) المصدر نفسه، قسم1، ص47.

(4) عياض، ترتيب المدارك، ج1، ص55.

(5) هو أبو الوليد سليمان بن خاف بن سعد التبيجي القرطبي الباجي، فقيه مالكي كبير، ومن رجال الحديث، ولد في باجة عام403هـ، وتوفي عام474هـ، ينظر ترجمته في:

الكتبي، محمد شاكر. فوات الوفيات والذيل عليها، ج2، ص64_65. تحقّيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت: 1973ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج2، ص408_409. ابن فرحون، الديباج المذّهب، ص120_122.

(6) المقري، نفح الطيب، مج1، ص556.

الباجي كان يجيز اشتراط الإمام على القاضي الحكم بمذهب معين، كما أن قضاة قرطبة كـانوا يحكمون بمذهب الإمام، وهو المذهب المالكي الذي انتشر على يد الفقيه يحيى بن يحيى، وأصبح هو المتّبع في الأندلس، وقد كان القاضي منذر بن سعيد البلوطي "متفننا في ضروب العلوم، غاب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي الإصبهاني المعروف بالظاهري، فكان منذر يـؤثر مذهبه ويجمع كتبه، ويحتج لمقالته، ويأخذ به في نفسه وذويه، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه، وهو الذي عليه العمل بالأندلس، وحمل السلطان أهل مملكته عليه"(1).

ثاني عشر: العروبة:

وكأن الأمر كان امتدادا للدولة الأموية بدمشق التي كانت تـستأثر بمناصـبها للعـرب، وتحرم الموالي من تبوؤ المناصب الهامة وشغلها، فقد كان هذا الحال في الأندلس ،حيـث كـان معظم القضاة من العرب، وأخص بالذكر منصب قاضي الجماعة، وقلّة قلية من المـوالي التـي حظيت بهذا المنصب، ففي ترجمة عمرو بن عبد ا بن ليث القبعة أنّه كان "أول من ولي قضاء الجماعة للخلفاء من الموالي، فشقّ ذلك على العرب...فقال العرب: أما القضاء فإنا لا نعتـرض فيه لأنه من سلطانه، وأما الصلاة فإنّا لا نصلّي وراءه، فولّى الأميـر -رحمـه ا - الـصلاة النميري عبد ا بن الفرج(2)"(3).

ثالث عشر: علوم القضاة ورحلاتهم:

تعتبر الرحلات العلمية عند الأندلسيين امتدادا لرحلات المشارقة، ولا سيما أئمة الحديث الذين جابوا البلاد والأمصار شرقا وغربا جمعا للأحاديث النبوية والتحقّق من صحتها، ولما كانت بغداد كعبة العلم آنذاك فلا عجب أن نرى علماء الأندلس يشدون الرحال إلى الديار المشرقية للسماع والنقل عن أئمة اللغة والفقه والسنن وغيرها، حتّى غدوا هم بدورهم أعلاما بارزين يقصدهم طلاب العلم من كل حدب وصوب.

---

(1) المصدر نفسه، مج2، ص21.

(2) هو عبد ا بن الفرج بن جميل بن سليمان النميري، من أهل قرطبة، توفي سنة260هـ. ينظر ترجمته في: الضبي، بغية الملتمس، ص303. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص177.

(3) الخشني، قضاة قرطبة، ص67.

والقاضي معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي "كان من جلّة أهل العلم وكبار رواة الحديث، شارك مالكا بن أنس في بعض رجاله، وأخذ عنه جملة من الأئمة، منهم سفيان الثوري(1) والليث بن سعد(2) وابن عيينة(3)...ورحل إليه زيد بن الحباب(4) من الكوفة، فسمع منه بالأندلس حديثا كثيرا"(5).

وكثيرا ما كان هؤلاء القضاة يتجشّمون عناء السفر بعيدين عن الأهل والأوطان جامعين الروايات من مختلف الأصقاع، فالقاضي ابن أبي عيسى "ولي القضاء بقرطبة بعد رحلة رحلها إلى المشرق، وجمع فيها الروايات والسماع كلّ مفترق، وجال في آفاق ذلك الأفق، لا يستقر في بلد، ولا يستوطن في جلد(6)، ثم كر إلى الأندلس فسمت رتبته"(7)، وكثيرا ما كان هؤلاء يستقضون بعد رحلاتهم هذه التي يجمعون فيها مختلف العلوم، ولا سيما الشرعية من فقه وحديث، ويسمعون من كبار العلماء والرواة ويأخذون عنهم.

---

(1) هو شيخ الإسلام الفقيه الكوفي أبو عبد ا سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد ا بن موهبة بن أبي عبد ا بن عبد ا بن منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن ملكان بن ثور، كان سيد أهل زمانه علما وعملا، ولد عام97هـ، وتوفي191هـ. ينظر ترجمته في:

ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص386-39. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص278_280. الذهبي، الإمام أبو عبد ا شمس الدين. تذكرة الحفاظ، مج1، ج1، ص203-207. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(2) هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن، إمام أهل مصر في الفقه والحديث، ولد بقلقشندة سنة94هـ. ينظر ترجمته في:

ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص127-132. الذهبي، تذكرة الحفاظ، مج1، ج1، ص224-227.

(3) هو شيخ الإسلام الإمام الكوفي ثم المدني أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، طلب العلم وهو غلام وسمع من كبار أئمة الفقه والحديث، وقيل إنّه حج سبعين حجة، ولد سنة107هـ، وتوفي198هـ. ينظر ترجمته في: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص281_282. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص391_393. الذهبي، تذكرة الحفاظ، مج1، ج1، ص262-265.

(4) هو زيد بن الحباب بن الريان أو رومان، أبو حسين العكلي الخراساني، كان حافظا زاهدا رحالا جوالا، روى له مسلم والأربعة، وتوفي سنة203هـ. ينظر ترجمته في:

الذهبي، الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ص160-161. ت: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت: 1414هـ-1993م. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص44.

(5) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص43.

(6) الجلد: الأرض

(7) المقري، نفح الطيب، مج2، ص12.

وأمثال هذه الرحلات كثيرة جدا عند القضاة، فمن يستعرض تراجمهم وأخبارهم يجدها حافلة بها، الأمر الذي جعل صاحب النفح يورد بابا خاصا في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق[1].

ويذكر الدكتور وائل أبو صالح بان رحلات علماء الأندلس كانت على درجتين: داخلية، وتكون بين المدن الأندلسية بعد مرحلة الكتاب، وخارجية، وتكون خارج حدود الأندلس بعد الرحلة الداخلية[2]، حيث جمع القضاة علوما شتّى، فالقاضي محمد بن يبقى بن زرب "كان أحفظ أهل زمانه للفقه على مذهب مالك وأصحابه"[3]، وللقاضي محمد بن خليفة الأنصاري[4] على الموطأ شرح حسن بليغ[5]، كما كان القاضي أبو الوليد أحمد بن رشد الأكبر "صاحب التصانيف في الأصول والفروع والخلافيات"[6]، وللقاضي محمد بن يبقى "حظّ كبير في علم الإعراب والفقه"[7]. وهكذا فقد كان للقضاة حظّ وافر من العلوم والمؤلفات. كما كان لبعضهم أُثر جم في هذه التصانيف والمؤلّفات، نذكر منهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي، وله "كتب مؤلّفة في السنّة والقرآن والورع والرد على أهل الأهواء والبدع"[8]، وللقاضي أبي بكر محمد بن حسن الزبيدي[9] كتب في مختلف العلوم ولا سيما اللغوية، أهمها (طبقات النحويين واللغويين) و(مختصر العين) و(الاستدراك على سيبويه في كتاب الأبنية) وغيرها، وللقاضي أبي الوليد

---

(1) ينظر: المقري، نفح الطيب، ج2، الباب الخامس، ص5-704.

(2) أبو صالح، وائل. منذر بن سعيد البلوطي، ص6، جامعة النجاح الوطنية: 1987م.

(3) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص78.

(4) هو أبو عبد ا محمد بن سليمان بن خليفة بن عبد الواحد الانصاري، فقيه مشهور من أهل مالقة، ولي القضاء بها، توفي سنة499هـ، وقيل500هـ. ينظر ترجمته في:
الضبي، بغية الملتمس، ص67. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص100.

(5) ابن عسكر، أبو عبد ا وأبو بكر بن خميس. أعلام مالقة، ص74. تقديم: د. عبد ا المرابط الترغي، ط1،دار الأمان: 1420هـ-1999م.

(6) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص106.

(7) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص77.

(8) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص238.

(9) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد ا بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، عالم باللغة والأدب وشاعر، ولد بإشبيلية عام 316هـ، وولي القضاء فيها إلى أن توفي عام 379هـ، ينظر ترجمته في:
الضبي، بغية الملتمس، ص57. السيوطي، بغية الوعاة، ص34. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج7، ص372-374.

سليمان الباجي كتب في الفقه والأصول، منها (اختلاف الموطآت)، و(الحدود)، و(المنتقى)، وللقاضي أبي عمر يوسف بن عبد البر[1] (التمهيد)، و(بهجة المجالس)، و(جامع بيان العلم)، وغيرها.

ومن هنا نرى أن القضاة لم يقتصروا على دراسة العلوم الشرعية فقط، بل درسوا مختلف العلوم وبرعوا فيها، ووضعوا الكتب والتصانيف، كما نشير إلى أنّهم عنوا عناية خاصة بموطأ الإمام مالك، وهذا يظهر في تصانيفهم، وهو دلالة إضافية على اعتناق أهل الأندلس المذهب المالكي.

(1) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، من كبار حفّاظ الحديث، مؤرخ أديب، يقال له حافظ المغرب، ولد بقرطبة عام 368هـ، ورحل رحلات طويلة، ولي قضاء لشبونة وشنترين، وتوفي عام 463هـ، ينظر ترجمته في:

الضبي، بغية الملتمس، ص427-428. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج7، ص66-72. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص357-359.

خصوصيات القضاء

أولا: مجالس القضاء:

لابد للقاضي من مكان معروف يباشر فيه عمله القضائي، ويجب أن يكون المكان مريحا له وللخصوم، ويصل إليه الناس بسهولة ويسر، "قال الشافعي: وأحب أن يقضي في موضع بارز للناس، ومراده بهذا شيئان: أحدهما، ألا يحوج مع البروز إلى الاستئذان عليه، والثاني، أن يكون الموضع فسيحا ترتاح فيه النفوس، ولا يسرع فيه الملل"[1]، وفي حين أن القضاة لم يخصصوا مكانا واحدا للقضاء، إلا أنّهم غالبا ما كانوا يتّخذون المساجد لذلك، "فالمسجد أعدل المجالس له، لأنّه لا يحجب فيه، ولو قعد في المسجد وقتا، وفي داره وقتا لتصل إليه الحائض والذمي كان حسنا"[2]، فيذكر الخشني في ترجمة سعيد بن سليمان الغافقي، أنه "لما قدم قرطبة، ولاه الأمير - رحمه ا - القضاء، فجلس للحكم في المسجد..."[3]، وفي موضع آخر، "كان سعيد بن سليمان القاضي يحكم في المسجد الجامع، ويأتي إليه ماشيا..."[4].

وربما بالغ بعضهم زيادة في التقوى ومخافة ا ، وتوخي العدل في الحكم بما أنزل ا ، فحفر قبره أمامه في المسجد ليذكّره بالآخرة ويوم الحساب، ففي ترجمة محمد بن سليمان الأنصاري المالقي "كان حضور القاضي أبي عبد ا المذكور لتنفيذ الأحكام بالمسجد المذكور له من داخل مالقة، بإزاء قبر كان قد حفره بالزيادة هنالك، وأعده لنفسه، وفيه دفن..."[5].

وربما أتّخذ أحدهم سقيفة له في رحاب المسجد للقضاء فيها، فقد "كان محمد بن بشير يقضي في سقيفة معلّقة بقبلي مسجد أبي عثمان"[6]، ولعل هذا ما أشار إليه مالك بن أنس بقوله:

---

(1) الماوردي، أدب القاضي،ج1، ص196.

(2) ابن عبد البر، الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، كتاب أدب القاضي، ص499.

(3) الخشني، قضاة قرطبة، ص62.

(4) المصدر نفسه، ص64.

(5) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص100.

(6) الخشني، قضاة قرطبة، ص30.

"كان من أدركت من القضاة لا يجلسون إلا في الرحبات خارجا، ...ويستحب ذلك ليـصل إليـه اليهودي والحائض"[1].

وبالرغم من أن بعض الفقهاء أشترط في مكان القضاء أن يكون في موضع بارز حتّـى لا يحوج إلى الاستئذان، فإنّنا نجد بعضهم كان يتخذ بيته مجلسا للقضاء، فنرى أن "إبراهيم بـن العباس ربما جلس يقضي في بيته بين الناس، وخادمه ينسج في ناحية البيت"[2].

ومهما تعددت مجالس القضاء فالقاضي كان يخصص لنفسه مكانا أو أكثر يعلنه للنـاس فيقضي فيه، فقد كان مجلس القضاء معروفا لهم.

ثانيا: وقت القضاء:

لم يكن للقضاء وقت محدد، ولكن مع تطور الحياة المدنية، وزيادة العمران، وجدنا بعض القضاة يتخيرون بعض الساعات والأيام للقضاء، فبعضهم كان يفرغ نفسه في يوم الجمعة للعبادة والقيام بشؤون دنياه، فقد ورد عن القاضي سليمان بن أسود الغافقي أنّه "لما عزل عـن قـضاة ماردة وافى باب القصر بقرطبة، وكتب إلى الأمير محمد -رحمه ا -: أن بيدي مالا تجمع من أرزاقي، وجب علي صرفه إلى بيت المال، وهو مما حاسبت فيه نفسي من أيام الجمع..."[3].

والبعض الآخر كان يختار غير يوم الجمعة، فهذا المصعب بن عمران لما تولّى القضاء اشترط على هشام بن عبد الرحمن "أن يأذن له في اطّلاع ضيعته يومين في الجمعـة: الـسبت والأحد، ويحكم لسائر الأيام، فأجابه إلى ذلك"[4].

وربما تفرغ بعضهم طيلة شهر رمضان للعبادة، وامتنعوا عن الحكم، مثل محمـد بـن يبقى بن زرب الذي "كان لا يحكم في شهر رمضان، ويفرغ فيه نفسه للعمل والعبادة، ولم يـزل مواظبا على ذلك إلى أن مات رحمه ا "[1].

(1) القرافي، الذخيرة، ج10، ص60.

(2) الخشني، قضاة قرطبة، ص51.

(3) المصدر نفسه ، ص73.

(4) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص45_46.

وقد يتخير بعضهم ساعات من النهار للقضاء، جاء أن محمد بن بشير المعافري "كـان يقعد لسماع الخصومة من غدوة إلى قبل الظهر بساعة، ثم يقعد بعد صلاة الظهر إلـى صـلاة العصر، لا يكون نظره غير السماع من البينات، ولا يسمع من بينة في غير ذلك الوقـت..."[2]، والبعض الآخر كان يجلس فترة ما قبل الظهر وفترة العشاء، حيث "قضى سعيد بن سليمان يوما في المسجد إلى أن مضى صدر النهار، ثم قام منصرفا إلى داره، فلما هم بدخول الدار فإذا بوالد نصر الفتى مقبلا وأعوانه بين يديه، وكان أعجمي اللسان، فصاح على البعد بالعجمية: كلمـوا القاضي يثبت علي أكلّمه، فقال القاضي: قولوا له بالعجمية: إن القاضـي قـد أدركتـه الملالـة والسآمة من طول الجلوس للقضاء، فإذا جلس بالعشي في المسجد للنظر بين الناس تعـود إليـه لينظر في حاجتك إن شاء الله، ثم دخل القاضي داره، ولم يقف عليه"[3]، وهذا دليـل علـى أن بعض القضاة كانوا يجلسون في المسجد للقضاء، ولا ينظرون في الخصوم إلا فيه.

وقد جاء في الذخيرة أنه لا يفضل الجلوس بين العشائين، ولا يتعب نفسه فيقضي النهار كلّه، وليقعد ساعات من النهار، ولا ينبغي أن يجلس أيام النحر ويوم الفطر ويوم عرفـة ويـوم الطين والوحل، ويوم خروج الناس للحج، إلا عند الضرورة[4].

ثالثا: ديوان القضاء:

فقد وجد للقضاء في الأندلس ديوان خاص به، أورد الخشني عن قاضي القضاة أنه "لمـا ولي عمرو بن عبد الله القبعة القضاء أبى أن يقبض الديوان إلا من أحمد بن زياد"[5]، وكان هذا الديوان يضم ويجمع أسماء القضاة وسيرهم، ويحوي كتبهم وأجوبة الحكـام إلـيهم، فقـد جـاء "وقرأت في الديوان جواب الحكم -رضي الله عنه - إلى الفرج بن كنانة"[6].

---

(1) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص78.

(2) الخشني، قضاة قرطبة، ص30.

(3) المصدر نفسه، ص64.

(4) القرافي، الذخيرة، ج10، ص61.

(5) الخشني، قضاة قرطبة، ص67.

(6) المصدر نفسه، ص42.

كذلك كان يختص هذا الديوان بميزانية القضاء من صادرات وواردات، يقول الخشني في ترجمة قاضي القضاة سليمان بن الأسود وقد اتهم بالاختلاس: "وكان الديوان يومئذ لا شهود عليه...لو دلست في هذا المال لما أبقيت ذكره في الديوان".[1] ويظهر من هذه النصوص أن قاضي الجماعة بقرطبة هو من كان يختص بهذا الديوان.

رابعا: استقلال القضاء:

مع أن تعيين القضاة كان بيد الحاكم غير أن القضاء حافظ على مكانته واستقلاليته، فلم يك يوما ألعوبة بيد الحكام، بل كان القضاة يقفون موقفا صلبا في إحقّاق الحقّ ورد المظالم عن أصحابها ، فلم يكونوا يميزون بين غني وفقير ، وحاكم ومحكوم، فالجميع أمام القضاء سواسية، فقد جاء: "وأما خطّة القضاء بالأندلس، فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة، لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي..."[2].

و كان كثير من القضاة يشترطون على الحاكم شروطا لقبول ولاية القضاء، جاء في ترجمة محمد بن بشير المعافري أن الحكم بن هشام[3] استقضاه، "وقِبِلَ قضاءه على شروط: منها نفاذ حكمه على كلّ واحد، من الأمير إلى الحارس إلى السوق..."[4]، كما نجده يرفض شهادة الأمير الحكم بن هشام في خصومة عمه، فقد كان لا يجيز الشهادة على الخطّ في غير الأحباس، ولا يرى القضاء باليمين مع الشاهد[5].

وللقضاة مواقف حازمة مع الأمراء والخلفاء يرفضون تدخّلهم في شؤون القضاء، روي أن حبيبا القرشي شكا إلى الأمير عبد الرحمن بن معاوية القاضي نصر بن ظريف اليحصبي في

---

(1) الخشني، قضاة قرطبة، ص85.

(2) المقري، نفح الطيب، مج1، ص217-218.

(3) هو الأمير أبو العاصي الحكم بن هشام المعروف بالربضي، ولد 180هـ، وتوفي عام 206هـ، كان شجاعا أديبا خطيبا مفوها وشاعرا مجودا، كما وصف بالطاغية المسرف، فهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم، وهدم ديارهم ومساجدهم، ينظر ترجمته في:

ابن الأبار. الحلّة السيراء، ج1، ص43-50. الضبي، بغية الملتمس، ص19.

(4) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص47.

(5) المصدر نفسه، ص48-51.

ضيعة ادعى عليه الاغتصاب لها، فأرسل الأمير إلى القاضي، وكلّمه في حبيب فخرج القاضـي وعمل بضد ما أراد الأمير[1]، ويحكى أن العباس بن عبد الملك المرواني اغتصب رجـلا مـن أهل جيان ضيعته، فهلك الرجل وترك أيتاما، فلما كبروا شكوا مظلمتهم إلى القاضي المـصعب بن عمران، وأثبتوا حقّهم، ففزع العباس إلى الأمير الحكم بن هشام، فأوصى الحكم القاضـي أن يتخلّى عن النظر في القضية ليكون هو الناظر فيها، فرفض القاضـي وعقـد حكمـه للأيتـام بالضيعة[2].

ولم يجامل القضاة الحكّام، بل كانوا ينصحونهم ويعظونهم، فلما ابتنى الناصـر مدينـة الزهراء، وانهمك في زخرفتها وإتقانها، فانشغل عن شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتّخـذه ثلاث جمع متواليات، قام القاضي منذر بن سعيد بوعظه في غير مجلس حتّى إنه غض منه في خطبة الجمعة[3].

خامسا: ضم أعمال مختلفة إلى القضاء:

ولما للقضاة من مكانة مرموقة في المجتمع، ولثقة أولي الأمر والرعية بهم، فقد شـغلوا كثيرا من المناصب الحساسة التي لها صلة بمصالح الشعب، ومن أهمها:

أولا: الأمانات: حيث استقضى الناصر ابن أبي عيسى قضاء البيرة "وقلّده مع القـضاء أمانـة البيرة والنظر في عمالها"[4].

ثانيا: النظر في الأحساب: فقد قام القاضي سحنون بالنظر في الحسبة، وبمحاربة البدع، وبجعل الودائع عند الأمناء، "وهو أول من نظر في الحسبة من القضاة، وأمر بتغيير المنكر، وأول مـن فرق حِلَق البدع من الجامع، وشرد أهل الأهواء منه، وأول من جعل الودائع عند الأمناء، وكانت قبل في بيوت القضاة"[5].

---

(1) الخشني، قضاة قرطبة، ص23-24. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص44.

(2) الخشني، قضاة قرطبة، ص25-26. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص46.

(3) المقري، نفح الطيب، مج1، ص570-574.

(4) النباهي، تاريخ علماء الأندلس، ص60.

(5) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص29.

ثالثا: الصلاة وخطبة الجمعة: وكثيرا ما كان قاضي الجماعة بقرطبة يجمع إلى ولاية القـضاء الصلاة، فخطّة القضاء من أعظم الخطط قدرا ولا سيما إذا اجتمعت إليها الصلاة، فهذا قاضـي الجماعة الفرج بن كنانة "بقي قاضيا وصاحب صلاة زمانا ثم استعفى"[1]، ومنهم قاضي القـضاة معاوية بن صالح "فلما قدم معاوية بن صالح من الشام على الأمير عبد الـرحمن ولاه القـضاء والصلاة"[2]، غير أن قاضي الجماعة عمرو بن عبد ا بن ليث اقتصر على القضاء ولم يجمـع إليها الصلاة وذلك لاعتراض العرب عليه لأنه من الموالي[3]، ومنهم مـن جمـع إلـى قـضاء الجماعة الصلاة والخطبة، حيث إن أحمد بن بقى بن مخلد[4] "ولي تفريق الصدقات والصلاة، ثم قضاء الجماعة مقرونا بالخطبة"[5].

رابعا: الاستـسقاء: وغالبا ما كان يقوم قاضي الجماعة بصلاة الاستسقاء، ففي ترجمة عنترة بن الفلاح أنّه "استسقى يوما بالناس، فأحسن في دعائه وقيامه بالخطبة..."[6]، ويتأهب القاضي قبـل صلاة الاستسقاء بالقيام والصيام والإكثار من النوافل، فلما أصاب الناس القحط في أيام الناصـر أمر القاضي منذر بن سعيد البلوطي "بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فتأهب لذلك، وصـام بـين يديه أياما ثلاثة تنفلا وإنابة ورهبة...فلم ينقض النهار حتّى أرسل ا السماء بماء منهمر"[7].

خامسا: صلاة الخسوف والكسوف: وقد يتولّى القاضي صلاة الكسوف والخسوف، جـاء فـي ترجمة قاضي الجماعة يحيى بن معمر الألهاني: "وصلّيت صلاة الكسوف مع ابن معمـر فـي الجامع بقرطبة..."[8]، كذلك فإن يحيى بن معمر "صلى بالناس صلاة الخسوف بقرطبة"[9].

---

(1) المصدر نفسه، ص54.
(2) الخشني، قضاة قرطبة، ص17.
(3) المصدر نفسه، ص67.
(4) هو أبو عبد ا أحمد بن بقى بن مخلد، توفي عام 344هـ وقيل 324هـ، ينظر ترجمته في: ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص38. الضبي، بغية الملتمس، ص148.
(5) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص65.
(6) الخشني، قضاة قرطبة، ص12-13.
(7) المقري، نفح الطيب، مج1، ص572.
(8) الخشني، قضاة قرطبة، 46.
(9) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص430.

سادسا: الصلاة على الأموات: وكثيرا ما نجد القضاة في الأندلس يصلّون على الأموات، وفي ترجمة أبي بكر أحمد بن سعيد بن سليمان الصوفي أنه "صلى عليه القاضي أحمد بن ذكوان"[1]، وفي ترجمة أحمد بن قاسم النحوي المعروف بابن حبيب أنّه "صلى عليه القاضي أبو الوليد الزبيدي[2]"[3]، ومن هنا نرى أن مكانة القضاة في الأندلس بلغت مبلغا عظيما، فأصبح للقاضي الصدارة في كل شيء، فلا يتقدمه أحد بحضوره.

سابعا: الوزارة: ومنهم من تولّى الوزارة كالقاضي أبي العباس بن ذكوان حيث إن الحاكم عبد الرحمن بن المنصور "رفع منزلته، وولاه الوزارة مجموعة إلى قضاء القضاة، وبقي ذلك إلى أن انقرضت دولة بني عامر بقيام المهدي بن عبد الجبار المرواني[4] عليهم، أول ملوك الفتنة...وأزال عنه اسم قاضي القضاة، واقتصر به على قضاء الجماعة"[5]، وهنا يظهر أن لقب قاضي القضاة حلّ محل قاضي الجماعة في الدولة العامرية.

ثامنا: الوزارة والصلاة: وبعضهم جمع بين خطة القضاء والوزارة والصلاة، حيث إن أبا المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس "ارتقى إلى ولاية القضاء بقرطبة، مجموعا إلى خطّة الوزارة والصلاة، وقلّ ما اجتمع ذلك لقاض قبله في الأندلس"[6].

تاسعا: السفارة والإشراف على الثغور: وفي ترجمة محمد بن عبد الله بن أبي عيسى: "كان الخليفة لا يخلّيه مع قيامه بالقضاء من تصريفه في مهمات أموره، وإخراجه في السفارات إلى

---

(1) ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص23.

(2) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الإشبيلي، أصله من حمص، كان عالما باللغة والأدب والنحو شاعرا، ولد ونشأ بإشبيلية، ثم ولي القضاء بها، وله مؤلفات كثيرة خاصة في اللغة والنحو، توفي عام379هـ، ينظر ترجمته في: السيوطي، بغية الوعاة، ص34. الضبي، بغية الملتمس، ص57. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص366. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك النيسابوري. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج2، ص80-81. تحقّيق: د. مفيد محمد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1403هـ-1983م. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص179-184. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج16، ص417-418.

(3) المصدر نفسه، ص52.

(4) هو أول ملوك الشيعة، توفي عام 322هـ، ينظر ترجمته في:

ابن الأبار. الحلة السيراء، ج1،ص190-194.

(5) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس،ص 86.

(6) المصدر نفسه، ص87.

كبار الأمراء، والأمانات إلى الثغور والأطراف للإشراف عليها، وللإعلام بمصالحها، والبنيـان لحصونها، وترتيب مغازيها..."[1]

عاشرا: الخروج للحرب: ومنهم من كان يخرج لملاقاة العدو في الغزوات، فالحسن بن عبد ا الجذامي[2] "كان كثير البدارة إلى ملاقاة العدو بنفسه"[3]، كما "غزا معاوية بن صالح وهو قاضي الجماعة مع الأمير عبد الرحمن غزاة سرقسطة..."[4].

حادي عشر: الشرطة والسكة والمواريث: ولعل هذه الخطط لم تجتمع يوما لغير المنصور بـن أبي عامر وذلك في أيام المستنصر الأموي فقد "ولي الشرطة والسكة[5] والمواريـث، والـسكّة يومئذ أعلى الخطط في الإفادة، وقرن له بهذا كله القضاء بإشبيلية"[6]، ولأهمية دار الـسك فـإن الإشراف الأعلى عليها كان مسؤولية القاضي لإشاعة الثقة في المعـاملات ولـضمان شـرعية الدنانير أو الدراهم التي تصدر بأسماء السلاطين والحكام من حيث العيار والوزن.

---

(1) المصدر نفسه، ص60.

(2) وهو أول قضاة الدولة العامرية بكورة رية، وتوفي عام392هـ.

(3) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص82.

(4) الخشني، قضاة قرطبة، ص18.

(5) ويقصد بها فن ضرب العملة، وتعرف بدار السك أو الضرب، وكان يتولّى عليها رئيس مسؤول. ينظر في: عطية ا ، أحمد. القاموس الإسلامي، مج3، ص399-400. ط1، دار النهضة المصرية، القاهرة: 1390هـ-1970م.

(6) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم4، ص60.

الفصل الثاني

الأغراض الشعرية لقضاة الأندلس

- الشعر من منظور الإسلام
- الوصف
- الشوق والحنين
- المديح
- الهجاء
- الفخر
- الرثاء
- الشكوى
- الغزل
- الاستصراخ
- العلم
- الزهد
- الإخوانيات والمراسلات
- الأخلاق

الشعر من منظور الإسلام

رأيت قبل أن أتناول الأغراض الشعرية التي تناولها القضاة في الأندلس أن أبين موقف الإسلام من الشعر، حتى أرى إن كان هؤلاء القضاة في قرضهم الشعر قد جانبوا روح العقيدة الإسلامية السمحاء أم سايروها.

فقد اهتم الدارسون قديما وحديثا بموقف الإسلام من الشعر، وأثيرت حوله عدة تساؤلات: ما حكم التعاطي مع الشعر نظما واستماعا ورواية في الإسلام؟، وهل ضعف الشعر بمجيء الإسلام؟، وهل هناك تعارض بين الشعر والدين؟، وفي هذا ينبغي لنا أن ندرس الشعر على مستويين: مستوى المعاني، ومستوى الشكل والفن الأدبي، لقد جاء الإسلام بنظام جديد، وقيم روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية نبيلة، فسمت بالإنسان عن مواطن القبح والرذيلة إلى معارج السمو والرفعة والأخلاق، فحرم الإسلام كثيرا من الأفعال والأقوال، حرم الكذب والغش والغيبة والنميمة، وقذف المحصنات، وشهادة الزور، والسب والشتم وإيذاء الآخرين، كلّ هذا لم يكن مقصورا على لون معين من ألوان الكلام وفنون القول دون آخر، فكان واقع الشعر كواقع غيره من الكلام وفنون النثر.

والدارس لأشعار شعراء العصر الإسلامي يرى كثرة الشعراء المخضرمين، ولا يخفى علينا موقف الرسول من الشعر والشعراء، فقد اتّخذ حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة مدافعين عن الإسلام ورسوله أمام شعراء قريش، وقد استعطف كعب بن زهير الرسول بقصيدته التي ألقاها على مسمعه في المسجد النبوي، فعفا عنه، وخلع عليه بردته، "كلّ ذلك معناه أن الإسلام لم يثبط عن الشعر إلا حين وقف معارضا لدعوته، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه"[1]. ونجد في القرآن الكريم مهاجمة للشعراء في قوله تعالى: "والشُعراء يتبِعهم الغَاوون، ألَم تَرَ أنهم في كُل وادٍ يهيمون، وأَنهم يقُولون مالا يفْعلُون، إلاّ الذين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ، وذَكَروا الله كَثِيرا، وانْتَصروا مِن بعد ما ظُلِموا"[2]، ونرى في هذه الآية أنّها

---

(1) ضيف، شوقي. تاريخ الأدب العربي2، العصر الإسلامي، ص45. ط6، دار المعارف بمصر: 1963م.

(2) الشعراء. آية 224-227.

جاءت بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، فلم تهاجم الشعراء كافّة، وإنّما هاجمت الشعراء الـذين كانوا يقصدون الرسول الكريم بالسب والإيذاء، ولم يهاجم الشعر لذاته، وإنّما هوجم لتلك المعاني السيئة.

ونجد للأستاذ عبد الله حمادي في دراسته (الدين بمعزل عن الشعر) رأيا مغايرا وجديدا في هذه الآية، حيث يقول: "إن الآية الكريمة التي تكون وردت لتحديد الخاص فقد باتـت اليـوم تعني العام، نظرا لصلاحية القرآن لكل زمان ومكان، فإذا كان الله تعالى بموجب صـريح آيـة العموم هذه أجاز للشعراء أن يقولوا ما يريدون، فقد فعل هذا الامتياز الضمني، فعله في مـسيرة الأدب اللغوية والنقدية، فقد أجاز اللغويون للشعراء بدورهم مالا يجوز لغيرهم، وهم مكرهـون على ذلك، وبقيت بذلك أبواب الضرورات الشعرية مفتوحة أمام الشعراء، جمعت فيها مخالفاتهم للقواعد النحوية والصرفية وحتّى اللغوية، وقدروها أنّها ارتكبت تحت طائلة الـضرورات التـي تبيح المحظورات قياسا..." [1]، وهو يكرس مبدأ الدين بمعزل عن الشعر، فقد جعـل للـشعراء إجازات خاصة، لا لشيء سوى لأن الشعر أدرج ضمن الامتيازات الخاصة التي لا يحاسب فيها الشعراء على أقوالهم[2].

ونجد القاضي الجرجاني يشير إلى الفكرة نفسها، فيقول: "فلو كانت الديانة عـارا علـى الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخّر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الـدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله -صـلّى الله عليه وسلّم- وعاب من أصحابه بكما خرسا، وبكاء مفحمين، ولكن الأمرين متباينـان، والـدين بمعزل عن الشعر"[3]، وجدير بالذكر أن هذا الرأي لا يبعد عن الصواب، ولئن كنّا لا نطلقه على عمومه، ولا نعطي الإجازة للشعراء كاملة ليقولوا ما يحلو لهم، بل تبقى هناك ضوابط ومعـايير ينبغي على الإنسان التقيد والتحلّي بها، سواء أكان شاعرا أم غير ذلك.

(1) حمادي، عبد الله: الدين بمعزل عن الشعر. نزوى، 2001/26، ص85.

(2) ينظر: المرجع نفسه. ص81.

(3) الجرجاني، القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص58. تحقّيق: أحمد عارف الزين. مطبعة الفرقان، صيدا: 1331هـ.

ونحن في كلّ ذلك نرى فئات مختلفة ممن يشهد لهم بحـسن إسـلامهم وأخلاقهـم، لا يحجمون عن قول الشعر والسماع له وروايته، فقد كان للخلفاء الراشدين أشعار، فلسيدنا أبي بكر قصيدة من خمسة عشر بيتا يقول في مطلعها:

أمن طيفِ سلمى بالبطاحِ الدمائثِ أرقْتَ أوآمرٍ في العشيرةِ حادثِ

"الطويل"

وكان سيدنا عمر - رضي ا عنه- من أنقد أهل زمانه للشعر، وأنفذهم فيه معرفة، ومن شعره:

توعدني كعـب ثلاثـا يعدهـا ولا شك أن القول ما قال لي كعـب

وما بي خوفُ الموتِ إنّي لميتٌ ولكن خوف الذنـبِ يتبعـه الذنـبِ

"الطويل"

ومن شعر سيدنا عثمان بن عفّان -رضي ا عنه- :

غنى النفس يغني النفس حتّى يكفهـا وإن عضها حتّى يضر بها الفقر

وما عسـرةٌ فاصبـر لها إن لقيتَهـا بكائنـةٍ إلا سيتبعـ ـا يسـ ـر

"الطويل"

وكان سيدنا علي -*كرم ا وجهه*- مجودا في الشعر، وهو القائل بصفّين:

لمن رايـةُ حمـراء يخْفـقُ ظلّهـا إذا قلتُ قدمهـا حصيـن تقدمـا

فَيوردها في الصفّ حتّى يرد[1] بها حياض المنايا تقطر الموت والدما

"الطويل"

فنجد هذه الأشعار ذات معان سامية، ولا تضر بعقيدة هؤلاء الخلفاء، كما كان لطبقـة الفقهـاء والقضاة نصيب وافر من الشعر، فقد كان القاضي شريح بن الحـارث شـاعرا مجـودا، وقـد

(1) سكّن الفعل للضرورة الشعرية، وكان حقّه النصب.

استقضاه عمر بن الخطاب -رضي ا عنه -، وكتب إلى مؤدب ولده ، وقد وجده يلعب بجـرو كلب وقت الصلاة، وأودع الأبيات رقعة، وبعثها مع ولده مختومة إلى المؤدب:

تَرك الصلاةَ لأكلـبٍ يسعى بها	طلب الهراشِ مع الغواةِ الرجسِ
فليأتينّـك غُـدوةً بصحيفـةٍ	كتبـتْ لـه كصحيفة المتلمـس
فإذا همـتَ بضربِـه فبـدِرةٍ	وإذا بلغتَ بـه ثلاثـا فاحبـسِ
واعلم بأنّك مـا أتيـتَ فنفسـه	مع مـا يجرعني أعـز الأنفسِ[1]

"الكامل"

ونحن نلاحظ مدى اهتمام القاضي بفرائض الإسلام، ومقدار عنايته بتأديب ولده، وتربيته التربية الإسلامية الصحيحة، كما نلمس من هذه الأبيات الطابع والأثر القضائي، فهو يقضى بتعزير ولده ويحكم عليه بأن يضرب بالعصى ويحبس.

ومن كلّ هذا نجد أن الشعر لم يكن قاصيا عن الدين والمسلمين، ولم يتحرجوا يوما مـن نظمه، ولم يكن الشعر عارا على قضاتنا، ما دام ملتزما بأحكام الإسلام وآدابه.

وبعد، فهذه مقدمة رأيت مناسبا أن أمهد بها، ولنعد الآن إلى الأغراض الشعرية لقـضاة الأندلس.

(1) الأبيات التي وردت سابقا، تنظر في: القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق. العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج2، ص12-19. ط1، تصحيح: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي. محلّ محمد أمين الخانجي الكتبي وشركاه بمصر: 1325هـ-19.7م.

الوصف

لم يكن الوصف قديما غرضا مستقّلا بنفسه، فلم يعده النقاد من أغراض الشعر الأساسية، بل كان يأتي حشوا في ثنايا الأغراض الشعرية التقليدية من غزل ومديح ورثاء وهجاء، وهو ما يصطلح الدكتور إسماعيل شلبي على تسميته بالثنائية[1]، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن الوصف عنصر أصيل يدخل في جميع الأغراض الشعرية، "إذ المديح نوع من وصف خصال المحبوب، والرثاء ضرب من وصف مناقب الفقيد، والغزل نمط من وصف محاسن المرأة"[2].

وأما في العصر الأندلسي فإنّنا نجد شعراءه "يقتفون أثر الشعراء المشارقة، ولذلك كانت فنون الشعر تنضج في الأندلس بعد أن تكون قد بلغت أوجها في المشرق، ففي القرن الرابع الذي بلغ فيه وصف الطبيعة ذروته في حلب، وأصبحت مدارس الروضيات والزهريات والثلجيـات والمائيات في أوج إبداعها، كانت هذه الأغراض لا تزال تحبو في محاولات فردية على ألـسنة شعراء الأندلس وقرائحهم"[3]، وبدأ يأخذ تميزه ولكن دون أن يصل أوجه، فكثيرا ما كان يقتـرن بباقي الأغراض الشعرية لا سيما شعر المتعة الحسية كالخمر والغزل.

ونستطيع القول إن وصف الطبيعة أخذ يتسنم مكان الذروة في القرن الخامس الهجري، لذلك فإنّنا نجد الوصف إلى جانب ثنائيته غرضا مستقلا بذاته على شكل مقطوعات، ولم يقـف الوصف عند هذا الحد بل أصبح يحلّ محلّ أبيات النسيب في قصائد المديح[4]، ويصطلح الدكتور شلبي على تسميته بالإنفرادية[5]، وذلك لدواعي تجاوب الشاعر الأندلسي مع بيئته الجديدة التـي تعلّق بها وحضارته العريقة التي ارتبط بها، والتي كانت مثار افتنان الشعراء بهـا، فاسـتهوت أفئدتهم واستثارت عواطفهم ومشاعرهم، ففاضت قرائحهم تجاه محاسن هذه الطبيعـة وجمالهـا ببديع القول ومحاسنه، فقد ربطوا الطبيعة بالموضوعات الأخـرى، كمـا كـان لحيـاة اللهـو

(1) شلبي، د. أسعد إسماعيل. البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر -عصر ملوك الطوائف- ، ص177. نهضة مصر، القاهرة: 1978م.

(2) الدقاق، د. عمر. ملامح الشعر الأندلسي، ص206. دار الشرق، بيروت: 1975م.

(3) الشكعة، د. مصطفى. الأدب الأندلسي -موضوعاته وفنونه-، ص249. ط2،دار العلم للملايين، بيروت: 1975م.

(4) المرجع نفسه، ص251-256.

(5) شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص177.

والاستمتاع التي عاشها أهل الأندلس أبلغ الأثر في ظهور غرض الوصف وانتشاره[1]، فالإنسان ابن بيئته، ولا يمكن نزعه من الوسط الذي يعيش فيه، أو القول بسلبية البيئة والطبيعة تجاهـه، وفي ذلك يقول أبو إسحقّ إبراهيم بن خفاجة شاعر الطبيعة الأكبر في الأندلس:

يـا أهـل أندلـس درككـم مـاء وظـلّ وأنهـار وأشجـار

ما جنّـة الخلـد إلا في دياركـم ولو تخيـرت هذا كنـت أختـار

لا تختشَوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تُدخـَل بعد الجنّـة النـار[2]

"البسيط"

ونحن في دراستنا لأشعار القضاة في الأندلس نقسم الوصف إلى قسمين:

أولا: الطبيعة الصامتة:

1- الطبيعة المطبوعة: ونقصد بها المناظر والظواهر التي لم يشكلها الإنسان، ولم تكن له قدرة التأثير فيها والتحكم بها، كالصحاري والفيافي والبحار والأنهار والأمطار وغيرها، ، ونجد لهذه المظاهر أبلغ الأثر، وذلك بحكم التضاريس والمناخ الأندلسي، فالقاضي الشاعر عباس بن ناصح[3] يصف السراب وسط الصحراء فيقول:

قَطَعتُ بها خَرقا كأنّي وآلَه أمامي وخلفي راكب لُجةَ البحر[4]

"الطويل"

ويصف طول ليله، فيقول:

---

(1) عتيق، عبد العزيز. الأدب العربي في الأندلس، ط2، ص291-292. دار النهضة العربية،بيروت:1396هـ-1976م.

(2) ابن خفاجة. ديوان ابن خفاجة، تحقّيق: كرم البستاني، ص17. دار صادر، دار بيروت، بيروت:1381هـ-1961م.

(3) هو أبو العلاء عباس بن ناصح الجزيري الثقفي الأندلسي، من أهل العلم واللغة،ومن الشعراء المجودين، نشأ بمصر، وتردد على الحجاز طالبا العلم، ثم رحل إلى العراق، فلقي الأصمعي وغيره من علماء البصريين والكوفيين،، ثم رحل إلى الأندلس، وولي قضاء الجزيرة مع شذونة، وتوفي بعد الثلاثين والمائتين. ينظر ترجمته في: ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص239. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16، ص644-646.

(4) الطبيب، أبو عبد ا محمد بن الكتاني. كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص170. تحقّيق: د. إحسان عباس، دار الشروق، بيروت والقاهرة.

فبت أرقب صبحا سـد مطْلِعـه فلا أرى الليلَ عن مرقاتهِ انصدعـا

كأنّه ونجوم الليـل قـد جعِلَـتْ تهوي على السمتِ منها غُورا خُضعا

راعٍ تَلبثَ قد أوصـى بصرمتِـه ُأخرى الرعاءِ يزجـي سائقـا هبعا

يا ليلُ أصبِح ويا صبح استتر فلقد أبرحتماني فـإن لـم تفعلا فَدعـا[1]

"البسيط"

فقد عاش في القرن الثالث، حيث لم يكن الوصف بعد انفراديا مستقلا بذاته، فجاء وصفه عرضا تقليديا، وقد اعتمد على التشبيه، ففي البيت المستقل يصور نفسه وقد أحاط به السراب من كل جانب بأنه في وسط البحر تحيط به المياه من كل جانب، ويصف في المقطوعة طول ليلـه ويصور النجوم التي لا تغيب من السماء فتبقى حركتها وئيدة وبطيئة، يصور ذلك بقطيع الغـنم أول نتاجه وآخره، فيمشي أول النتاج (الأمهات) ببطء شديد متمهلة حتّى يعقبها ويلحقّ بها آخـر النتاج (صغار الغنم)، وهي صورة رائعة طريفة، ونجد ألفاظه جزلة، ومعانيه مستوحاة من البيئة الصحراوية الجاهلية، فلم توح بالحضارة والطرافة، فشاعرنا يشكو من طول ليله فهـو يقاسـي الأحزان والشدائد والسهر الناجم عنهما، فجاءت ألفاظه ومفرداته معبرة عن أحاسيسه وعواطفـه (أرقب، سد، انصدعا، تهوي، تلبث، يا ليل، أبرحتماني، فدعا)، ولعلّه متأثّر في ذلك بقول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علـي بأنـواع الهمـوم ليبتلي

فقلـت له لمـا تمطّى بصلبـه وأردف أعجـازا ونـاء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيا لك من ليـل كأن نجومـه بكلّ مغار الفتل شـدت بيذبل [2]

"الطويل"

---

(1) الطبيب. كتاب التشبيهات، ص138.

(2) الزوزني، أبو عبد ا الحسين بن أحمد. شرح المعلقات السبع، ط2، ص34-36. دار الجيل، بيروت، مكتبة المحتسب، عمان:1972م.

والقاضي أبو الوليد يونس بن الصفار[1] الذي عاش في أواخر القرن الرابع وبـدايات القرن الخامس يشخّص الديار - وقد سقتها السحب فنبتت الورود والأزهار- فيصورها بالأناس الذين يكسون البرود وحال الثياب:

ديار عليها مِـن بشاشـةِ أهلِهـا   بقايا تسر النفس أُنسا ومنظـرا

ربوع كساها المزن من خِلَع الحيا   برودا وحلّاها من النور جوهـرا

تسرك طَورا ثم تَشجوك تـارةً   فترتاح تأنيسا وتشجى تذكّـرا[2]

"الطويل"

وهكذا فإنّنا نجد الوصف على لسان ابن الصفّار في هذه الفترة قد أكتمل واسـتقلّ فـي مقطوعة معتمدا على التصوير والتشبيه، فالمعاني توحي بالحضارة والطرافة، وجاءت الألفـاظ والتراكيب سهلة وبسيطة تعكس إحساس الشاعر المرهف بجمال الطبيعة.

2- الطبيعة المصنوعة: لئن أكثر شعراء الأندلس من وصف جماداتهم الـصامتة مـن قـصور وبرك وتماثيل وآلات حرب وأساطيل بحرية وغيرها في ثنايا أغراضـهم الـشعرية، إلا أنّهـم استقّلوا من وصفها في قصائد أو مقطوعات شعرية مستقلة، وكل ما وجدناه في أشعار القـضاة هو وصف انفرادي للطبيعة المصنوعة، وهو قول القاضي أبي الوليد الباجي يصف قلما:

وأسمر ينطقُ في مشيـهِ   ويسكتُ مهما أمر القلم

على ساحةٍ ليلها مشرقٌ   منير وأبيضها مدلهـم

وشبهتها ببياض المشيب   يخالطُ نور سوادِ اللمم[3]

"المتقارب"

---

(1) هو أبو الوليد يونس بن عبد ا بن محمد بن مغيث المعروف بابن الصفّار، قلّده الأمير هشام بن محمد المرواني قضاء الجماعة بقرطبة عام 419هـ، كان زاهدا فاضلا يميل إلى التصوف، وله تصانيف عديدة، ينظر ترجمته في: الضبي، بغية الملتمس، ص447. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص360.

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص291.

(3) ابن بسام،الذخيرة، مج1قسم2ص98.

فالقاضي يشخّص القلم بالإنسان الذي ينطق، كما يستعير عن سـواد الـصحيفة بالليـل والإشراق، ويصور بياض الصحيفة الذي يخالط سواد المداد بالشيب الذي يخالط سواد الـشعر، وطبيعي أن يحتل القلم مكانة في أشعار القضاة، فقد كان يشترط فيهم أن يكونوا من أهل العلـم والاجتهاد، فالقلم ذو صلة وثيقة بالقاضي، والذي يمثل بدوره لسان العلـم والمعرفـة، وجـدير بالذكر أن مثل هذا الوصف لا ينبع من إحساس وشعور عاطفي، بل هو أقرب ما يكـون إلـى الفكر العقلي والمنطقي، فكانت الصورة جامدة غير نابضة.

ولعل سائلا يسأل عن سبب اقتصار أشعار القضاة في الطبيعة المصنوعة على مثل هذا الوصف، وأغفلوا ما كان سائدا من وصف للقصور والبرك والتماثيل وغيرها، ونقول: إن مثـل هذا الوصف لم يكن مقصودا لذاته، وإنّما كان يتخذ وسيلة إلى المدح والثنـاء علـى أصـحابها الخلفاء والأمراء، وهذا ما لم يكن يشتغل به القضاة فضلا عن زهدهم في الدنيا، بل على العكس من ذلك، كانوا يستقلّون بالقضاء بعيدين عن مظاهر الترف والنعيم، "فالعالم يوجه إلـى أخطـر ملوك الأندلس فضلا عن عامتهم من أسباب النصح وأساليب الزجر إذا اقتضى الأمر ما لم يسبق له مثيل في تاريخ الحياة الثقافية الإسلامية"[1]، وفي ذلك نرى القاضي منذر بن سعيد البلـوطي يعظ الأمير الناصر بسبب انشغاله ببناء مدينة الزهراء وزخرفتها وتزيينها، وزهوه وإعجابه بها:

يا باني الزهراءِ مستغرقا	أوقاتَه فيها أمـا تَمهـلْ
ما أحسنَهـا رونقـا	لو لم تكن زهرتُها تذبلْ[2]

"السريع"

فهو يناشده أن يتمهل، ويذكّره بأنّها على الرغم من حسنها وجمالها ستذبل وتنهار يومـا من الأيام، وهذا حال نعيم الدنيا، بينما نعيم الآخرة وعمارتها باقيان.

(1) الشكعة، الأدب الأندلسي، ص98.

(2) المقري، نفح الطيب، مج1، ص576.

ثانيا: الطبيعة المتحركة:

1- **النبات**: نظرا لما تمتاز به الطبيعة الأندلسية من خصوبة أراضيها وغناها، وتعـدد ألـوان نباتاتها، وظهور نباتات وحيوانات لم تكن معروفة في الجزيرة العربية، ومـع تمـدن الإنـسان وحضارته اهتم بوصف الرياض والأزهار والأشجار، وتميز في ذلك، واستقلّ بها في أشـعاره، ونحن في دراستنا هذه لم نجد للقضاة أشعارا في ذلك سوى للقاضي محمد بن إسماعيل بن عباد الذي يكثر من وصف زهرة الياسمين، وهي من بين الأزهار كلّها أعجب بها الملوك والخلفـاء والأمراء[1]، فيشبه شجرة الياسمين بمطرف أخضر:

وياسميـنٍ حسـنِ المنظرِ يفوقُ في المرأى وفي المخبرِ

كأنها[2] من فوقِ أغصانِهِ دراهم في مِطرفٍ أخضـرِ[3]

"السريع"

فقد أعجب القاضي ابن عباد بهذه الزهرة، فهو يتحدث عن جمـال الياسـمين منظـرا ومخبرا، ويصور أزهاره البيضاء -داخل أوراقه الخضراء- بالدراهم البيضاء فـي المطـرف الأخضر، ويؤكد هذه الصورة بأشكالها مجسدا الجمال على هامة الياسمين بقوله:

يا حبذا الياسمين إذ يزهـرِ فوقَ غصونٍ رطِيبـةٍ نُضـرِ

قدِ امتطى للجبال ذِروتَهـا فوقَ بساطٍ من سندسٍ اخضرِ

كأنّـه والعيـون ترمقُـه زمـرد في خلالـهِ جوهـرِ[4]

"المنسرح"

ويقول في زهرة الظيان، وهي الياسمين البري ذو الزهرة الصفراء:

---

(1) الشكعة. الأدب الأندلس موضوعاته وفنونه، ص283.

(2) وردت في المصدر (كأن) وبها لا يستقيم الوزن.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ج1، قسم2، ص23. ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص38.

(4) ابن بسام، الذخيرة، ج1، قسم2، ص23. ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص39. المقري، نفح الطيب، ج4، ص242.

كأن لون الظيان حين بدا نواره أصفـرا على ورقِـه

لون محب جفاه ذو ملالٍ فاصفر من سقْمِهِ ومن أرقِه[1]

"المنسرح"

فيصور اصفرار لون هذه الزهرة باصفرار لون وجه المحب، ويقول فيها أيـضا، وقـد سقيت بماء السحاب واصفا إياها بالذهب الأصفر:

ترى ناضر الظيان فـوقَ غصونِـهِ إذا هو مِن ماءِ السحائـبِ يغتـذي

وحفّـتْ بـهِ أوراقُـه في رياضِـهِ وقد قُد بعض مثلَ بعضٍ وقد حذي

كصفرٍ من الياقوتِ يلبس في الضحى منضدةً من فوق قُضبِ الزمـردِ[2]

"الطويل"

ويقول في زهرة النيلوفر، فيصورها بكأس من اللؤلؤ في وسطه خرزة سوداء:

يا ناظرين لذا النيلوفر البهـجِ وحسن مخْبره في الفَـوح والأرجِ

كأنّـه جـام در فـي تألقـهِ قد أحكموا وسطَه فصا من السبجِ[3]

"البسيط"

والقاضي ابن عباد يبدع في وصف هذه الورود، ويـستخدم التـصويرات والتـشبيهات الرائعة، فقد عاش في أوج إزدهار هذا الغرض، فضلا عن حياة النعيم والرخاء التي عاشها في ظلّ ثراء عائلته، فجاءت تراكيبه سهلة خالية من التعقيد ومفرداته طريفة موحية بالثراء والعـز والجاه والسلطان (دراهم، سندس، زمرد، جوهر، الياقوت، در، السبج "اللؤلؤ").

---

(1) ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص39.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ج1، قسم2، ص23. ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص39.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، ص134. الضبي، بغية الملتمس، ص101. ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص39. المقري، نفح الطيب، ج4، ص228.

وبهذا فإنّنا إذا ما استثنينا القاضي ابن عباد، فإن القضاة لم ينشغلوا في وصف جمال هذه الطبيعة، ولعل سبب ذلك يعود إلى طبيعة القضاة الذين لم يكونوا يحتفلون بمثل هذه المظاهر، بل انشغلوا عنها بأمور الدين والقضاء، أما ابن عباد فإن القضاء لديه لم يك مهنة بـل كـان فتـرة مؤقتة وعابرة انتهت به إلى الاستقلال بماك مدينة إشبيلية.

2- **الحيوان**: ولم يكثر القضاة أيضا من وصف الحيوان، وكلّ ما عثرنا عليه هو قول عباس بن ناصح يصف طيور الحدج وهو يرفع أجنحته وسط السراب، فيصورها بالـسفن التـي يقودهـا الملاحون عائمة في وسط البحر.

تعوم أحداجهم في الآل رافعةً   عوم السفائِن تُزجيها نَواتيها[1]

"البسيط"

وعلى الرغم من استخدامه المفردات المعجمية الموروثة إلا إنّنا نجد في الصورة نوعـا من الجدة والطرافة التي تنم عن الأثر الذي تتركه البيئة في شعرائها ومدى تعلّقهم بها.

ولم يغفل الأندلسيون وصف الحشرات كالبقّ والبرغوث والذباب والعقرب[2]، فمنذ القرن الرابع "تحدث الشعراء عن الحشرات من أجل إثبات القدرة الفنية وإضحاك الجمهور المـتعطش للضحك والاستمتاع، ولهذا جاء شعرهم في الحشرات التي ذكروها جديدا في أسلوبه ومنهجـه، ولم نشاهده بهذه الصورة الطريفة الضاحكة من قبل"[3]، وفي ذلك يقول القاضي أبو عمر يوسف بن عبد البر يصف ما لاقى من البعوض بإشبيلية في الـشرف، وفـي مدينـة قَبتـور ومدينـة قَبطيل[4]، وذلك أثناء مبيته بها، وما منه يلقى أهل المدينة أيضا:

---

(1) الطبيب، كتاب التشبيهات، ص170.

(2) الشكعة. الأدب الأندلسي، ص247.

(3) أبو حاتم، نبيل خليل. اتّجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، ص283. دار الثقافة، الدوحة: 1405هـ1985م.

(4) الشرف: جبل واسع عريض، غربي إشبيلية بالأندلس. قبتور: وتسمى كبتور أيضا قرية كبيرة من أعمال إشبيلية. القبطيل: وتعرف أيضا بالعسكر، وهي مدينة على شاطئ البحر بإشبيلية. ينظر صفحة جزيرة الأندلس من الروض المعطار للحميري، ص149، 101.

بعوض قبتور والقَبطيـل والشـرفِ قد آذنـتْ بذهـابِ النفـسِ والتلـفِ

فمن مثيـر دخـانٍ يستجيـر بـهِ وآخرٍ مختَـفٍ في الثـوبِ ملتَحِـفِ

قد غيّـب الرأس والرجلين مستترا بالبيتِ من طَرفٍ فيـهِ إلى طَـرفِ

ويلي من الجِرجسِ المثْني عقْربـه ينصب مثلَ عقـابٍ جاع مخْتَطِـفِ

خرطومه كسنـانٍ لا يقـوم لـه ثوب مثَنّى ولـو كان من الخَزفِ

يا ويله من عـدو لسـتَ تدفعـه إلا بلاطْمٍ على الأعضـاءِ منصـرفِ

نفى البعوض أناسا من مساكِنهـم على البحيرةِ في غَربٍ من الشَرفِ(1)

"البسيط"

فيذكر القاضي أن هذا البعوض حرم الناس طيب النوم والعيش، فهم يـستخدمون كـلّ الوسائل لدرئه، فلا يجدي معه شيء فهو صاحب الطبع العنيد، ويصفه وصفا دقيقا فـي منتهـى الإبداع والروعة، كما يظهر في البيتين الرابع والسادس، كذلك يختار المعاني الرقيقة واللطيفـة، وهو في كل ذلك يجمع بين البراعة والطرافة والفكاهة، وقضاة الأندلس كعامتهم كانـت لـديهم روح من الفكاهة والدعابة، ولكنّها لا تخدش الدين والأخلاق.

وبهذا فإنّنا نخرج بأهم سمات شعر الوصف لدى القضاة:

1. لم يحفل القضاة بالوصف، وكل ما جاء لا يعدو كونه محاولات ضيقة لا تتناسب وكمه لدى شعراء الأندلس، وعلى الرغم من ازدهاره وشيوعه لديهم إلا أن القـضاة انـشغلوا عنه بأمور القضاء، وكان زهدهم سببا في انصرافهم عنه.

2. نهج القضاة في الوصف نهج معاصريهم من شعراء الأندلس، وكانت أشـعارهم علـى شكل مقطوعات، فكان "شعر الطبيعة يخرج عن مألوف الشعر العربي من حيث الابتعاد

---

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم2، ص104_105.

عن القصيدة إلا في حالات قليلة، ويعمد الشاعر إلى قول المقطوعة التي تستوعب طاقة خياله، وتصور عطاء شاعريته، غير عابئ بعدد الأبيات، أو النظام التقليدي للقصيدة"[1].

3. احتفلت أشعارهم في الوصف بالصورة الفنية، شأنهم في ذلك شأن باقي الشعراء.

4. على الرغم من أن الوصف كان يقترن عند شعراء الأندلس بفن آخر من فنـون شـعر المتعة الحسية ونطاق الغزل أو الخمر أو الغلمان[2]، إلا أنّه عند القضاة كان بعيدا عـن الفسق والمجون، مستقلا بذاته.

---

(1) الشكعة، الأدب الأندلسي، ص255.

(2) الشكعة، الأدب الأندلسي، ص252.

الشوق والحنين

لم ينس عرب الأندلس في يوم من الأيام مواطنهم في المشرق، بل بقيت ذكراها عـامرة في قلوبهم، فتتقاذفهم الأشواق وتشجيهم الذكريات، ومن هنا نـرى الأندلـسيين يحتـذون حـذو المشارقة في شعر الحنين، فلحقّوا بهم وتفوقوا عليهم في هذا الفن كما وكيفا[1]، وكما مر بنا في الفصل الأول من هذا البحث حول علوم القضاة ورحلاتهم فإن الناظر في كتب تـاريخ القـضاة الأندلسيين يجدها مليئة بالرحلات العلمية والدينية إلى بلاد المشرق، حتّى إنّنـا مـن الـصعوبة بمكان أن نجد قاضيا أندلسيا خلت حياته من رحلة[2]، وبهذا كانت رحلات القضاة عاملا إضافيا لأشعار الحنين، الأمر الذي يجعلنا نجد في أشعارهم كما غير قليل يصفون فيه رحلاتهـم هـذه، وما يختلج في أنفسهم من شوق وحنين إلى الأهل والديار، مبينين في ذلك مدى الألم والعناء من مرارة الفراق التي لحقّت بهم، وبذلك كان شعر الحنين غرضا بارزا عند شعراء الأندلس، ولعلّ الأمير عبد الرحمن الداخل هو أول من وصف تجربته في ذلك فقال:

تبدت لنـا وسـط الرصافـة نخلـةٌ	تناءتْ بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت: شبيهي في التغـرب والنـوى	وطول التنائي عن بني وعـن أهلي
نشأت بأرض أنـت فيهـا غريبـة	فمثلك في الإقصـاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي	يسح ويستمري السماكيـن بالوبـل[3]

"الطويل"

ونجد القاضي أبا الوليد بن الفرضي[4] الذي عاش في نهايات القـرن الرابـع يـصور معاناته من فراق أهله، فهو لا يستلذّ الحياة بعيدا عنهم، وأن طول هذا الفراق لم ينسه الأحبـاب،

(1) عتيق. الأدب العربي في الأندلس، ص273.

(2) ينظر: المقري. نفح الطيب، ج2، الباب الخامس، ص5-704، ج3، الباب السادس.

(3) ابن الأبار. الحلّة السيراء، ج1، ص37.

(4) هو أبو الوليد عبد ا بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي المعروف بابن الفرضي، مؤرخ وحافظ وأديب، ولد بقرطبة عام 351هـ، وتولّى قضاء بلنسية في دولة محمد المهدي المرواني، وتوفي عام 403هـ، ينظر ترجمته في: ابن خلّكان. وفيات الأعيان، ج3، ص105-106. الضبي. بغية الملتمس، ص290-291.

بل كان يجدد له ذكراهم، فكان الأمل في اللقاء يخفف عنه هذه المعاناة فيستسهل البر والبحـر، فيقول:

مضتْ لي شهور منذ[1] غبتم ثلاثـةٌ ... وما خلتني أبقى إذا غبتم شهـرا

وما لي حياةٌ بعدكـم أستلـذهـا ... ولو كان هذا لـم أكن بعدهـا حرا

ولم يسلِني طول التنائي عليـكـم ... بلـى زادني وجدا وجدد لي ذكرى

أعلـلُ نفسـي بالمنى في لقائكـم ... واستسهلُ البر الذي جبتُ والبحـرا

وتا ـ ما فارقتكم عـن قلى لكـم ... ولكنها الأقدار تَجري كمـا تُجـرى

رعتكم من الرحمن عين بصيـرةٌ ... ولا كشفتْ أيدي الردى عنكم سترا[2]

"الطويل"

ويختتم قصيدته بإيمانه بالقضاء والقدر، وأن لا مناص منه، كما يسأل ا أن يحفظ أهله، فهو تركهم في رعاية الرحمن، وبذلك نلمح الأثر والوازع الديني الذي كان يسيطر عليه، كمـا نحس بصدق العاطفة وحرارتها فجاءت التراكيب سهلة وبسيطة، والمفردات واضحة بعيدة عـن الغرابة والوحشية، فكانت هذه المقطوعة الشعرية قريبة من لغة العوام، وتتناسب مع البعد الديني والعلمي له.

ونجد في أشعارهم ما يعكس نفسياتهم، فكلّ ما يرونه في بلاد الغربة يكون باعـث ألـم ومرارة، يذكرهم بأحبابهم وديارهم، يقول القاضي أبو عبد ا محمد بن أبي عيسى:

لا تلمنـي على البكـا والعويـل ... ذكّرتنـي نخيـلٌ فـاسٍ نخيلـي

وانسكاب الأمواهِ من حالق الضـ ... حى دموع الأحبابِ يوم الرحيـل

(1) وردت في التراجم (مذ)، والوزن لا يستقيم إلا ب(منذُ).

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام، الذخيرة، مج2، قسم1، ص615-616. المقري، نفح الطيب، ج2، ص131. الضبي، بغية الملتمس، ص291. الحميدي، جذوة المقتبس، ص398-399. ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص255. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص62.

قَعدَتْ زفرتي وطالَ انتحابي	وبدتْ لوعتي وهاج غليلي
ولِنعم البلاد للنازح الأو	طان دمع جرى برغمِ العذول
وقبيح صبر الخليل أخي الوجـ	ـدِ عن الدمع عند ذكر الخليل
وبنفسي نائي المحل قريب	من فؤادٍ صب وجسمٍ نحيل[1]

"الخفيف"

فعندما يرى القاضي نخيل فاس في المغرب يتذكر نخيل بلاده في الأندلس، كما تنعكس نفسيته الحزينة في شعره، فعندما يرى أمواه الغربة يتذكر دموع الأحباب يوم رحل عنهم، وبذلك يعلو نحيبه ويزداد هيجانا ومرارة، فلا يجد ما يسلّي عنه غير الدموع، فلا يجدر بالإنسان حسب زعمه حبس دموعه عند ذكر الخلان والأحباب، ولئن كانوا بعيدي المحلّ عنه إلا إنّهم قريبون من قلبه وروحه، ولا شك أن القاضي افتتح مقطوعته الرائعة هذه ببيت تتفجر منه عاطفة الشوق والحنين إلى موطنه في قرطبة، فقد بلغ أثر هذه العاطفة من نفسه حد البكاء، بل وصل إلى العويل وهو ارتفاع الصوت، فالنخيل كان باعث ذكرى لديه كما كان باعثا لدى عبد الرحمن الداخل صقر قريش، وبهذه المقطوعة يرتقي القاضي إلى مصافّ الشعراء، فهو يحس بالأشياء من حوله ويخلع عليها أحاسيسه وعواطفه، فكلّ ما تقع عليه عين القاضي يكون صورة شجية للمثال الأم الذي يحتفظ به في ذاكرته حيث موطنه وأهله وصباه، والمقطوعة مفعمة بالحزن والمرارة الصادقين فالألفاظ والتراكيب قريبة من الطبع.

ويبين لنا مدى مكابدته في سبيل العلم، وتجشمه مخاطر الأسفار، ولوعة البعد عن الأحبة والديار:

ماذا أكابد من ورق مغردةٍ	على قضيبٍ بذاتِ الجزع ميّاسِ
رددن شجوا شجا قلب الخلي فهلْ	في عبرةٍ ذُرِفتْ في الحب من باسِ
ذكّرنه الزمن الماضي بقرطبةٍ	بين الأحبةِ في أمنٍ وإيناسِ

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج2، ص72. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص-411.

هم الصبابةُ لولا همــة شَرفـتْ فصيـرتْ قلبـه كالجنْـدل القـاسـي
كـم بيـن آل عيسى[1] وراكِبِهم من صحن سهبٍ وطود شامخٍ راسـي
ومـن بحارٍ إذا هالـتْ بصاحبها أهدتْ له الخوفَ محمولا على الراسِ[2]

"البسيط"

فصورة الحمامة مغردة على غصن الشجرة هي باعث حزن في قلب القاضـي، حيـث يتذكر ماضيه بقرطبة بين الأحبة والديار، وبهذا تنعكس أحزانه على كل ما يحيط بـه، فـنحس بصدق العاطفة وحرارتها، ولكنهم بمجرد عودتهم إلى وطنهم ينسون عناء السفر ومشاقّه، وكأنهم لم يغتربوا قطّ، فيقول[3]:

كأن لم يكـن بين ولـم تـك فُرقةٌ إذا كان مـن بعـدِ الفِراق تلاق
كأن لـم تُأرقْ بالعراقيـن مقْلَتـي ولم تمر كف الشوق مـاء مآقي
ولم أَزرِ الأعراب في جنْبِ أرضهم بذاتِ اللوى مـن رامـةٍ وبِراق
ولم أصطبح بالبيدِ من قهوةِ الندى وكأسٍ سقاها في الأزاهر سـاق[4]

"الطويل"

ونرى في هذه المقطوعة صورة فنية جميلة، إذ يصور قطرات الندى التي بالخمر، وهم بذلك يمزجون بين الحنين والطبيعة في صورهم الشعرية.

---

(1) الشطر غير مستقيم الوزن.

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص261. المقري، نفح الطيب، ج2، ص13. الثعالبي، يتيمة الدهر، ج2، ص72. الحميدي، جذوة المقتبس، ص126.

(3) وبعضهم ينسبها لمحمد بن عبد السلام الخشني. ينظر: الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن. طبقات النحويين واللغويين، ص268. تحقّيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة: 1973. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص118.

(4) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص260-261. المقري، نفح الطيب، ج2، ص13.

ولم تك أشعار القضاة في الشوق والحنين مقصورة على الأسفار والرحلات الخارجيـة فقط، بل نجد أثر الرحلات الداخلية بين مدن الأندلس ظاهرا، فالقاضي أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي يشتاق وهو بقرطبة قاض للجماعة إلى إشبيلية موطن نشأته، فيستأذن الأمير الحكم فـي زيارة أهله، فيرفض الأمير، فيكتب القاضي إلى جاريته سلمى:

ويحكِ يا سلـم لا تراعي	لا بد للبيـن من زمـاعِ
لا تحسبيني صبـرتُ إلا	كصبر ميتٍ على النزاعِ
ما خلقَ ا مِن عـذابٍ	أشـد من وقفـةِ الوداعِ
فكل شملٍ إلى افتـراقٍ	وكل شعبٍ إلى انصداعِ
وكل قُـربٍ إلى بِعـادٍ	وكل وصلٍ إلى انقطاعِ(1)

"مخلّع البسيط"

يقول إن الفراق لا بد له أن يزول، وأن صبره كصبر ميت على النزاع، كما يـرى أن أشد عذاب هو موقف الوداع، بعد ذلك يخرج بأبيات من الحكمة تؤكد على ضـرورة الوصـل واللقاء وحتميتهما.

وقد تكون الهجرة قسرية نتيجة ظروف سياسية، أو اضطهاد فكري أو عرقي أو دينـي، وعثرنا في ذلك على قصيدة للقاضي أبي عبد ا محمد بن سليمان الأنصاري، وقد تغرب فـي الفتنة إلى جهة تُدمير، فيقول:

أعـاد ا أيـ ـام التلاقـ ـي	كما كنّا بها قبـلَ الفِـراقِ
وأكملَ بالسرور إيـاب نفسي	فقد آلَ السرور إلى محـاقِ
نأى صبري غداةَ نأيتُ عنكم	وهلْ تنأى همـوم واشتياقي

---

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص88. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص351. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص184. الضبي، بغية الملتمس، ص57. المراكشي، المعجب، ص65. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص278-279. المقري، نفح الطيب، ج4 ،ص7-8.

لئن ضن الأسى بالصبر عنّي	فما ضنّـتْ بأدمعِهـا مآقي
أحـن إلى الرفاق لأن ُأنسي	بأخبارِ الأحبةِ في الرفـاق
كأنّي مذْ نأيتُ وصرتُ رهنا	بتدميرٍ أسيـر في وثـاق
أرى ليلـي علي إذا تدجـى	سواء والنهار بمـا ألاقي[1]

"الوافر"

فهو يلتجئ إلى ا ، ويتمنى أن يعيد عليه أيام اللقاء، فلم يعد يقدر أن يصبر على الفراق، حتّى إنّه ليسارع بالبكاء، فيرى نفسه أسيرا في بلاد الغربة، وقد بلغ من ألم الفـراق أن أصـبح الليل والنهار عنده سواء.

وهكذا فقد شغلت أشعار الشوق والحنين لدى القضاة حيزا واضحا من أشعارهم نتيجـة لواقعهم الترحالي والتنقلي، وكثير من الباحثين يرى أن هذا اللون من الشعر ازداد شيوعا بعـد انتهاء عصر الخلافة الأموية[2]، وهذا صحيح فيما ينطبق على السفر والرحلات الناجمـة عـن الفتن والحروب التي انتشرت بعد انهيار الخلافة الأموية وقيام دول ملوك الطوائف الضعيفة، أما فيما يختص بالرحلات العلمية فقد كانت منتشرة وسائدة منذ الفتح، كما كثرت في هذا الغـرض القصائد، وقلّت المقطوعات، وذلك بفعل عاطفة الشوق والحنين التي طالت بهم في بلاد الغربة، فهم أحوج ما يكون إلى التذكر والتسلّي، ولهذا كانوا يطيلون أشعارهم، فطول المقطوعة تعكـس طول المعاناة وشدتها، وقد لمسنا فيها صدق العاطفة وحرارتها، فجاءت أشـعارهم خاليـة مـن الصور الفنية في معظمها، ولغتهم وتراكيبهم سهلة وواضحة، وقريبة من لغة العامة، وقد مزجوا بينها وبين مظاهرالطبيعة كالبر والبحر والنخيل والأمواه والورق والجندل والبحار والبيد والندى والأزاهر، ، كما نراهم قريبين من ا عز وجلّ، فهم يدعونه ويلتجئون إليه، فلا كاشف عـنهم الضر إلا هو، وهم يستسلمون لقضاء ا وقدره، ويسألونه اللطف فيه.

---

(1) ابن عسكر، أعلام مالقة، ص76.

(2) الشتّاوي، علي غريب محمد. القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة "دراسة فنية"، ط1، ص135. مكتبة الآداب، القاهرة:2003م.

المديح

كان غرض المديح في الأندلس امتدادا له في المشرق، وقد كان شكل المديح تقليديا، يتكسب به الشعراء، فيقصدون الحكام والولاة والقادة والأمراء، ويصفونهم بصفات الأخلاق والمعاني الموروثة من كرم وهيبة وشجاعة وعدل مبالغين في ذلك أيما مبالغة، وجانب آخر يتحدث عن معارك الممدوحين وانتصاراتهم ونصرة الإسلام والمسلمين، ولعلّ أبرز شعرائه ابن هانئ الأندلسي وابن الدراج القسطلي وابن حمديس الصقلي.

ويحدثنا الدكتور أشرف نجا عن قصيدة المديح في الأندلس، فقد كانت تدور حول عدة قيم، أولها قيم اجتماعية تُعنى بالأخلاق والصفات المعنوية والنفسية والعقلية الموروثة، والتي اهتدوا إليها من وحي المجتمع العربي كالشجاعة والفروسية والكرم والحلم والوفاء والعفاف والصدق والأمانة والصبر وغيرها، وثانيها قيم سياسية تحفل بالحياة السياسية في المجتمع الأندلسي على المستويين: الداخلي والخارجي، فقد شكّلت المعارك والفتوحات رافدا قويا لشعر المديح، كما كان للثورات الداخلية والخارجية والعداء بين الأندلسيين والبربر في عصر ملوك الطوائف الضعيفة بالغ الأثر، وثالثها قيم دينية، تمثّلت في الإشادة بأخلاق الممدوح الدينية وحمايته للإسلام وشرعه، ولكن هذه القيمة ضعفت في عصر ملوك الطوائف فقد كانوا ضعافا من الناحية الدينية كضعفهم من الناحية السياسية، فأفسدوا في الأرض، وانغمسوا في الملذّات والشهوات، ورابعها قيم ذاتية تعبر عن هموم الفرد الشخصية ومشكلاته الذاتية، وتصور آلامه وعواطفه ونفسيته[1].

وفي دراستنا أشعار القضاة نجد لهم مدائح في الولاة والأمراء، فالقاضي ابن عبد البر يمدح المعتضد بن عباد متوجها من دانية قاصدا إياه في إشبيلية:

قصدتُ إليك من شرق لغربٍ ... لتُبصِر مقلتي ما حل سمعي

وتَعطِفُك المكارم نحو أصلٍ ... دعاكم راغبا في خير فَرعِ

(1) نجا، أشرف. قصيدة المديح في الأندلس، قضاياها الموضوعية والفنية "عصر ملوك الطوائف"، ص27-105. ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية: 2003م.

فإن جدتُم بِهِ مـن بعـد عفـوٍ	فليس الفضـلُ عندكـم ببـدع
فوعدك كي يسكـن خفـقَ قلبي	ويرقأ من جفوني سكب دمعي(1)

"الوافر"

ونرى أن المقطوعة مجتزأة، ولا نعلم لها مناسبة، ومهما يكن الأمر فإنّنا نجدها ذات قيم ذاتية، تعبر عن مشكلات الفرد الخاصة وتعكس همومه وآلامه، كما تطـرح آمـال الشخـصية ومطامحها، ولا نجد فيها استجداء، غير أن القاضي قصد المعتضد ليراه، وقد سمع عن أصـله وفضله كثيرا، والمقطوعة تخلو من الصور الفنية والمحسنات اللفظية، فلم يتجشّم صاحبها الجهد والعناء، فهي أشبه بلغة النثر منها إلى لغة الشعر، وقد كانت الألفاظ سهلة، والتراكيب مقتـضبة موجزة. وللقاضي أبي الوليد الباجي قصيدة يمدح بها أمير حلب معز الدولة أبا علوان بن أسـد الدولة:

لرياهـم في عرفِ ربعـك عنـوان	ومِن حسنِهم في حسن مغناك تَبيان
وفيـك مـن الحي الذيـن تحملـوا	مخايلُ أغصانٍ تميـس وكثبـان
وكم ليلـةٍ فيهـا تعسفْـتُ حولَهـا	وكالِئُهـا مني مشيـح ويقظـان
سرينا كما يسري الخيالُ وغمضتْ	على ركبنا من ناظر الليل أجفان
لَبسنـا برود الليـل حتّى تشققَـتْ	جيوب تضيء بالصباح وأردان
حويتَ معز الدولةِ الملك فاعتـزى	بذكرك في الآفاقِ ملْك وسلْطان
فللمجدِ سـلك قد أجيـد نظامـه	وأنتَ لذاك السلكِ در ومرجان(2)

"الطويل"

فيبدأ القاضي قصيدته مخاطبا الممدوح بالإشادة بخيره، وحسن مغناه، وعظيم كرمه، كل ذلك بتشبيه جميل رائع، وصورة فنية ناطقة معبرة، فيصور عطايا الممدوح وقد ماست وترنحت

---

(1) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب، ج2، ص329.

(2) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص103.

فوق المراكب بالأوراق والأغصان التي تهتز وتميس على الأشجار، ثم يبين بعد ذلـك قـصده الممدوح سرا تحت وطأة الليل حتّى لا يشعر به الكاشحون والمبغضون، فيشيد بملكه وهيبته، ثم يختتم القصيدة بصورة فنية رائعة، حيث يشبه المجد بالسلك جيـد الـنظم، والممـدوح بالـدر والمرجان فيه، وجدير بالذكر إنّنا لم نجد في مثل هذا المديح مبالغة ولا استجداء، بل كان يعبـر عن رأي ذاتي صادق تجاه الممدوح، فنلمس صدق العاطفة وحرارتها، كمـا رأينـا أن شـعر الطبيعة "أصبح يحلّ محلّ أبيات النسيب في قصائد المديح"[1]. وله - أيضا- قصيدة في المعتضد بن عباد ملك إشبيلية:

عباد استعبد البرايـا	بأنعـمٍ تبلـغُ النعائـم
مديحه خيم كل نفسٍ	حتّى تَغَنتْ بِهِ الحمائم[2]

"مخلّع البسيط"

ولا نرى في هذه المقطوعة مديحا بالمعنى الدقيق سوى ذكر لفضائل الممدوح ونعمـه، ولهج النفوس بمديحه والثناء عليه، من غير أن يتكلم عن نفسه، حيث لم يرد فيها ضمير للمتكلم، ولا ننكر إعجاب القاضي بالممدوح، وإنّما ننكر أن يكون المديح بقصد الهبة والعطاء، فقد جاءت المقطوعة فاترة العاطفة ضعيفة من حيث الإبداع الفني.

وللدكتور وائل أبو صالح دراسة في أشعار أبي الوليد الباجي، فقسم مدائحه إلى قسمين: مدائحه التي قالها في مقتبل حياته في المشرق وتتمثّل في قصيدته التي قالها في أميـر حلـب، ومدائحه التي قالها بعد عودته إلى الأندلس، وتتمثل في مقطوعته في المعتضد، ويعقد الـدكتور مقارنة بين هاتين المدحتين، فالأولّى قصيدة تحوي سبعة أبيات، وتراكيبها اللغوية جزلة، وكذلك حفلت بصور جميلة ورائعة، بينما مدحته في المعتضد تتكون من بيتين فقـط، والألفـاظ سـهلة وبسيطة، فكانت أقلّ جودة من نظيرتها مع أن المعتضد شاعر مجيد ويعد مـن الأدبـاء، فكـان الأولّى به أن يجعل مدحته له أكثر جودة من سابقتها.

---

(1) الشكعة، الأدب الأندلسي، ص256.

(2) ابن بسام، االذخيرة، مج1، قسم2، ص100. المقري، نفح الطيب، مج2، ص76. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250.

ويرجع الدكتور ذلك إلى اقتناع الباجي بشخصية معز الدولة أكثر من اقتناعه بشخـصية المعتضد، فسيرة المعتضد سيئة ويبغضه الناس، بينما كان معز الدولة كريما حليما، عـدا عـن العلاقة المتميزة التي كانت تربطه به فبسببه تحول معز الدولة من الاتجاه الشيعي إلى الاتّجـاه السنّي، كما أن الباجي قال الأولى في مقتبل حياته وهو مقلا من الناحية المالية فأعـد قـصيدته إعدادا جيدا حتّى يحقّق من ورائها أكثر من هدف، مما جعل أمير حلب يعينه قاضيا، في حين لم يكن بحاجة إلى الشهرة والمال عند مدحه المعتضد، فكانت شهرته كفقيه مالكي مدافع عن هـذا المذهب في وجه ابن حزم[1]. وكتب القاضي محمد بن السليم إلى الحكم المستنصر با :

لو أن أعضاء جسمي ألسن نطقتْ	بشكر نعماك عندي قل شكري لك
أو كان ملّكني الرحمن مـن أجلِي	شيئا وصلتُ بهِ يا سيـدي أجلَـك
ومن تك في الورى آمالُه كثُـرتْ	فإنّما أملي في[2] أن ترى أملَـك[3]

"البسيط"

ونرى في هذه الأبيات الصنعة والتكلف جليين، ولئن كنا نرى نوعا من التملق والمبالغة، والذي يبرره هو أن مثل هذا المدح لم يكن في ضعاف الحكام وسيئهم أو حكام ملوك الطوائـف بل كان في حاكم دولة الخلافة الأندلسية المستنصر، ففي عهده بلغ مجد المسلمين ذروته ، إلا أن مثل هذا الشعر لا يخرج عن كونه نوعا من الدعابة والتسلية، فليس المدح هنا مقصودا لذاتـه، وكل ما نراه هو نوع من استعراض المهارات الكلامية والفلسفية، أليس شاعرنا قاضيا ذا خبـرة ومعرفة بمثل هذه المهارات، ، كما نجد أن كلّ بيت من هذه الأبيات يمثل أسلوبا شرطيا، وبهـذا نرى الشاعر أبعد ما يكون عن الطاعة والانقياد الأعميين للممدوح، وهذا يؤكد رأينا فـي عـدم ابتغاء المدح في ذلك ويعمقه، ومهما يكن الأمر والرأي فإن قاضينا لم يتكسب أو يستجد في مثل هذا القول، ولم يخلع على الممدوح صفات العظمة والتقديس.

---

(1) أبو صالح، وائل: شعر أبي الوليد الباجي جمع ودراسة. مجلة جامعة بيت لحم للأبحاث/ 15/1996، ص138-142.

(2) كلمة (في) غير موجودة في المرجع وقد وضعتها ليستقيم الوزن.

(3) المقري، نفح الطيب، مج3، ص466.

كما نجد لدى القضاة مديحا ذا قيم دينية في أهل العلم والفقه والصلاح، فالقاضـي أبـو الوليد الباجي يمدح قاضي بغداد السمناني ناصح الدين تاج الإسلام، وذلك قبل ولايته القـضاء، في أثناء إحدى رحلاته، فينهج نهج القدامى في بناء القصيدة التقليدية، حيث يبـدؤها بالمقدمـة الغزلية وذكر المحبوبة، ويقف على الديار كما فعل طرفة حين وقف على الأطلال، مازجا ذلـك بوصف الطبيعة ورياضها:

يا بعد صبرك أتهموا أم أنجـدوا	هيهـاتَ منـك تصبـر وتجلـد
يأبـى سلـوك بـارقٌ متألّـقٌ	وشميم عـرفِ عرارةٍ ومغـرد
في كـل أُفْـقٍ لي علاقةُ خولةٍ	تهدي الهوى وبكل أرضٍ ثهمـد
ما طالَ عهدي بالديـارِ وإنمـا	أنسى معاهدهـا أسـى وتلبـد
أيـام الشبـابِ وحسنُهـا	وغصونُهـن المائسـاتُ الميـد
أيـام أنفض للمـراحِ ذؤابتـي	بين اللداتِ ودرع بردي مجسـد
أتقنص الظبياتِ في سبل الصبا	فيصيدهـن لي العذار الأسـود
وسقتني الدنيا زعاقَ خُمارهـا	وسعى إلي من الخطوبِ معربد

وينتقل بعد ذلك إلى وصف الرحلة، فيصف مشاقّ سفره إلى الممدوح، وعزمه على الوصول إليه والحلول بدياره:

ما هالني صعب المرامِ ولا الذي	تستبعـد الأيام عندي يبعـد
أستقـرب الهـدفَ البعيـد بهمـةٍ	أدنى منازِلهـا السهـا والفرقـد
أسري إذا اعتكر الظـلام وقادني	أمـلٌ مطالبه العـلا والسـؤدد

وينتهي بغرضه الرئيس، وهو المدح ذو القيمة الاجتماعية، فيصف الممـدوح بـصفات خلقية ونفسية وعقلية موروثة كالسماحة والعزة والحزم والكرم، ويضيف إليها صفات مـستجدة كالعلم ونصرة الإسلام، وقمع أهل الكفر والضلال:

حيثُ التَقَتْ طُنُبةُ السماحةِ والعلا ورسـتْ قواعده وحلّ المِقـود
فجنابـه لا يستبـاح وجـاره لا يستضـام ونبعه لا يقصـد
حرم المكارمِ لا ينـالُ فِنـاءه ذام ولا للفضـل عنـه مبعـد
عالي محلّ النار في كَلِبِ الشتا إذْ بالحضيض لغيرهِ مستوقَـد
هذا الشهاب المستضاء بنـورهِ علَم الهدى هذا الشهاب الأوحد
هذا الذي قمع الضلالةَ بعدمـا كانتْ شياطين الضلال تمرد[1]

"الكامل"

وهكذا فقد نهج الباجي في هذه القصيدة نهج القصيدة التقليدية، فألفاظها معجمية جزلـة، وتراكيبها متينة وأنيقة ورصينة ومحكمة السبك، ومعانيهـا مطروقـة، وقـد حفلـت بالـصور والتشخيص، والكناية والاستعارة، فأولى قصيدته العناية والاهتمام وأطال بها مما يعكس أعجابه بالممدوح ومحبته له، فالممدوح قاض اشتهر بالفقه والعلم والصلاح، ولا ننسي أنّـه قالهـا فـي مقتبل حياته في المشرق. ونخرج من هذا الغرض موجزين أهم خصائصه فيما يأتي:

1. نجد أشعار المديح تتوزع ما بين المقطوعة والقصيدة، كما نجد شعر الطبيعة في أشـعار القضاة يحتلّ مكانة واضحة، ولربما حلّ محلّ أبيات النسيب في كثير من الأحيان.

2. أضاف القضاة في مدائحهم إلى صفات الممدوح التراثية من كـرم ومـروءة وشـجاعة صفات أخرى جديدة ذات صلة بواقعهم العلمي والسياسي، فوصـفوه بناصـر الإسـلام وهازم أهل الكفر والضلال، وشهاب العلوم.

3. لم ينح قضاتنا في مدائحهم منحى غيرهم من الشعراء في التوسل والاستجداء، فلم يكـن الدافع الباعث وراء مديحهم مكسبا ماديا أو تزلفا كاذبا فنجد لهم مدائح في غير الملـوك والقواد والأمراء كما كان الحال في مدح قاضي بغداد السمناني.

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص99-100. المقري، نفح الطيب، ج2، ص76. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص249.

الهجاء

الهجاء غرض شعري تقليدي، ظهر وازدهر في وقت مبكر في بلاد المشرق، ولا يغيب عن أذهاننا أبرز أعلامه، أمثال الحطيئة، والثلاثي الهجائيين: جرير والفرزدق والأخطل، وبشار بن برد، وابن الرومي وغيرهم، ولم يكن الحال في الأندلس مغايرا عنه في المشرق، فقد عرف هذا اللون وازدهر، لا سيما في عصر ملوك الطوائف، وعلى الرغم من إغفال صاحب الذخيرة -المرجع الأساسي لشعر هذا العصر- أشعار الهجاء ترفعا وأنفة، زد على ذلك أن كثيرا من الشعراء تخلصوا من أهاجيهم عند جمع أشعارهم وتدوينها، فقد كانت لهم مخلّفات هجائية كثيرة، أفحشوا القول فيها، فقد كان لديهم تطرف في كلّ غرض من أغراضهم[1]، فلابن سارة "أهاج سددها نبالا، وأورث بها خبالا، إلا أنّه قوض اليوم عن فنائها، ونفض يده من اقتنائها"[2].

وللهجاء عندهم أسباب عدة، فمنه فردي يكون ملاحاة بين اثنين استحكمت بينهما الأحقّاد والعداوات، ولم يسلم من هذا الهجاء أعظم الناس حتّى الملوك والحكام، والفقهاء المرائين والمتكسبين بالشعر، وهو أشبه ما يكون بالنقد الاجتماعي، كما كان للعصبية اليمنية أو المضرية دافع للهجاء في بداياته، بعد ذلك انتشر وشاع بين الطوائف في الحروب الدائرة بين العرب والمولدين، وعندما استقلّ بعض الثائرين ببعض الحواضر انتقل هذا الهجاء إلى هجاء المدن، وتحولت هذه الأهاجي فيما بعد إلى ما يشبه النقائض غير أنّها كانت ذات طابع شعبي عام، ولم تكن لأحقّاد شخصية، ولكن هذا اللون من الهجاء نكاد نراه يختفي في عصر ملوك الطوائف، وذلك لظهور العداوة بين العرب والبربر، ثم بين المسلمين من جهة واليهود والمسيحيين من جهة أخرى[3].

أما أهاجي القضاة فقد كانت نوعا من الهجاء الاجتماعي، إذ كانوا أبعد ما يكونون عن الفحش والبذاءة لما روعي فيهم واشترط من مكارم الاخلاق، وحسن السيرة، وسماحة النفس،

---

(1) الشكعة، الأدب الأندلسي، ص54.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ج2، قسم1، ص61.

(3)ينظر: عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص241-254. شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص469-47. شلبي، د. سعد إسماعيل. الأصول الفنية للشعر الأندلسي "عصر الإمارة"، ص164-172. دار النهضة، الفجالة-القاهرة:1983م.

ولتنزههم عن مجاراة العوام، ولبعدهم عن الانحطاط والسفاهات، فهذا الشاعر أحمد بـن عبـد ربه[1] يذكر في أرجوزته الخلفاء، ويجعل معاوية رابعهم، ولم يذكر عليا فيهم، ثم وصـل ذلـك بذكر الخلفاء من بني مروان إلى الناصر عبد الرحمن بن محمد، فلما رأى ذلك القاضي منذر بن سعيد البلوطي غضب وسب ابن عبد ربه، وكتب على حاشية الكتاب:

أوما علي -لا برحت ملعنا- | يا ابن الخبيثةِ عندكم بإمامِ
رب الكساءِ[2] وخير آل محمدٍ | داني الولاءِ مقدم الإسلامِ[3]

"الكامل"

فهو لا يطيق أن يطعن أحد في صحابة رسول ا ، فكيف الحال إن كان مـن الخلفـاء الراشدين، وابن عم الرسول، وزوج ابنته وأبا سبطيه، ومن هنا نرى أن غضب القاضي وثورته لم تكن لمصلحة ذاتية، بل كانت ذودا عن الإسلام ورجاله، دون أن يجامل في ذلـك أصـحاب السلطة من الأمويين. وله وقد آذاه شخص فخاطبه منذر بالكنية، فقيل له: أيؤذيك وأنت تخاطبـه بالكنية؟ فقال:

لا تعجبوا من أنّني كنيته | مِن بعدِ ما قد سبنا وآذانا
فا قد كنّى أبا لهبٍ وما | كنّاه إلا خزيةً وهوانا[4]

"الكامل"

---

(1) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي، مولّى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل، كان واسع الحفظ والاطّلاع على أخبار الناس، وله الكتاب الشهير بالعقد الفريد)، توفي عام 328هـ. ينظر ترجمته في: الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص164-167. الضبي، بغية الملتمس، ص127-130. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص41. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص270-275. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص110-112.

(2) ما روي عن أبي سلمة ربيب النبي صلّى ا عليه وسلّم قال: نزلت هذه الآية على النبي صلّى ا عليه وسلّم (إنما يريد ا ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) في بيت أم سلمة، فدعا النبي صلّى ا عليه وسلّم فاطمة وحسنا وحسينا، فجلّلهم بكساء وعلي خلف ظهره، فجلّله بكساء، ثم قال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي ا ؟ قال: أنت على مكانك، وأنت إلي خير. ينظر: الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، ج5، حديث رقم (3787)، ص663. تحقّيق: إبراهيم عطوه عوض، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر: 1395هـ-1975م.

(3) المقري، نفح الطيب، مج2، ص511-112.

(4) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص248-249. المقري، نفح الطيب، ج1، ص374.

وليس هذا من الهجاء بالمعنى الدقيق والمعروف، بل على العكس من ذلك يظهـر فيـه طيب الخلق وحسن الخطاب، فعلى الرغم من تعرضه للإيذاء والشتيمة، إلا أنّه لم يبادله أقوالـه وأفعاله، وإنّما حلم به وكنّا، وهو في كلّ ذلك يستشعر المعاني الإسلامية، ويستشهد بآيـات مـن القرآن الكريم. وللقاضي أبي بكر الزبيدي مقطوعة يذم ويهجو بها أناس زمانه:

أشْعِرن قلبـك ياسـا ... ليس هذا النـاس ناسا

ذهب الإبريز منهـم ... فبقُـوا بعـد نحاسـا

سامرييـن[1] يقولـو ... ن جميعا: "لا مِساسا!"[2]

"مجزوء الرمل"

فهو يرثي حال الناس، وييأس منهم لما رأى من غفلتهم عن الحقّ، وضياع قيم الإسلام لـديهم، فأصبحوا نحاسا بعدما ذهب الإبريز منهم، ويسخر منهم فيشبههم بالـسامريين (اليهـود) الـذين يدعون بأن لا تمسهم النار، وهي صورة مستوحاة من القرآن الكريم.

كما نجد لديهم اتّجاهات اجتماعية في أهاجيهم، شأنهم في ذلك شأن كثير مـن شـعراء الأندلس، فمنهم قاضي المرية أبو الحسن مختار الرعيني، يقول وقد دخل حماما فجلـس بإزائـه عامي أساء إليه الأدب:

ألا لُعِن الحمـام دارا فإنّـه ... سواء بِهِ ذو العلمِ والجهل في القَدر

تَضِيع بِهِ الآداب حتّى كأنّها ... مصابيح لم تنفقْ على طلعةِ الفجر[3]

"الطويل"

---

(1) راجع سورة طه20: 94-97. السامري رئيس قوم من اليهود، أمر قومه بعبادة العجل في غياب موسى عن الطور. لا مساس: لا تقربني.

(2) المقري، نفح الطيب، ج3، ص475-476. ابن عبد البر، يوسف بن عبد ا بن محمد. بهجة المجالس وأنس المجالس، وشحذ الذاهن والهاجس، قسم1، ص673. تحقّيق: محمد مرسي الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، الفجالة.

(3) المقري، نفح الطيب، ج3، ص405.

وبذلك يهجو ظاهرة اجتماعية، وهي الحمامات العامة التي يدخلها الشريف والوضيع، فتضيع فيه المنازل والرتب، وما في هذا تكبر ولا غرور من القضاة، سوى أن في ذلك فحشا وسوء أخلاق يتسامى عنه أهل التقوى والإيمان.

وإضافة إلى ما سبق فإنّنا نجد نوعا جديدا من الهجاء، يمكننا أن نطلق عليه الهجاء العلمي، فنرى بعضهم يذم أناسا حملوا علوما، ولم يتفكروا أو يتدبروا فيها ، فهم غير قادرين على تمييز الخطأ من الصواب، وفي ذلك يقول القاضي منذر:

انْعقْ بما شئتَ تَجِـد أنصارا		ورم أسفـارا تجـد حمـارا

يحملُ ما وضعتَ من أسفـار		فَمِثْلُـه[1] كمثـل الحمـار

يحمل أسفارا لـه ومـا درى		إن كان ما فيها صوابا أو خطا

إن سئِلوا قالوا كـذا روينـا		مـا إن كذبنـا ولا اعتدينـا

كبيرهم يصغر عنـد الحفـل		لأنّـه قلّـد أهـلَ الجهـل[2]

"الرجز"

فيشبه حامل العلم من غير معرفة بالحمار الذي يحمل الكتب، وهي صورة مستوحاة من القرآن الكريم، ويقول: إن مثل هؤلاء الجهال الذين يكبرون ويعظمون أمام جهال الناس ظاهريا يصغرون ويحقّرون أمام أهل العلم والمعرفة على مرأى من الجميع.

وله أيضا فيمن يروون للأئمة ، ولا يعرفون للقول وجها:

عذيري مـن قـومٍ يقولون كلّمـا		طلبـتُ دليلا هكـذا قال مالـك

فإن عدتُ قالوا هكذا قالَ أشهـب		وقـد كان لا تَخْفى عليهِ المسالك

فإن زدتُ قالوا قالَ سحنون مثلَهم		ومن لم يقُلْ مـا قاله فَهـو آفِك

---

(1) وردت في المصدر (مثله) دون فاء، ولا يستقيم الوزن إلا بها.

(2) ابن عبد البر. أبو عمر يوسف النمري القرطبي. جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وجمعه،، ص413. تحقّيق: عبد الكريم الخطيب، دار الكتب الحديثة، القاهرة: 1975م.

فإن قلتُ قالَ الله ضجوا وأكثروا وقالوا جميعا أنتَ قِرن مماحك

وإن قلتُ قَد قالَ الرسولُ فقولُهم أتتْ مالكا في تركِ ذاك المسالك[1]

"الطويل"

وفي هذه المقطوعة نجد قاضينا يتعرض في هجائه لما كان عليه أهل بلده من اتّباع للمذهب المالكي، وعلى الرغم من اشتراط العمل بمذهب مالك في القضاء، إلا أنّه كان يرفض التقليد الأعمى، ويدعو إلى العلم والاجتهاد، وينبذ تقديس الأشخاص، ولا سيما أن الاجتهاد كان مشترطا في القضاة.

وهكذا فإن أهاجي القضاة من حيث الشكل شابهت غيرها من أهاجي شعراء الأندلس، فكانت "تكثر فيه المقطوعات، وتكاد تنعدم الطوال"[2]، وذلك لعدم انشغالهم بها، كما أنها لم تنح منحى تقليديا، تنتهك فيه الأعراض، وتضيع فيه الآداب، وتتعرض للمحارم والأعراض، بل نحت منحى جديدا، فكانت أهاجيهم على نوعين: أهاج اجتماعية، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتذم سوء أحوال الناس ومعيشتهم بسبب انتشار الفحش والرذيلة بينهم، وأهاج علمية، تدعو إلى العلم والاجتهاد، وتذم الجهل والتقليد الأعمى، كما نلحظ في أهاجيهم التأثر الواضح بالقرآن الكريم، فقد جاءت معظم أشعارهم متضمنة آياته ومعانيه، وهذا يجعلنا نقف موقف شموخ وإعجاب أمام قضاتنا، وكيف انّهم ضربوا أروع الأمثلة والسير في التقوى وحسن الخلق والاستقامة.

(1) ابن عبد البر. أبو عمر يوسف النمري القرطبي. جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وجمعه،، ص496. تحقّيق: عبد الكريم الخطيب، دار الكتب الحديثة، القاهرة: 1975م.

(2)عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص245.

الفخر

كثيرا ما كان يعتد الشاعر بنفسه، ويفخر بأصله ونسبه وشجاعته، وهو أمر امتد على طول الحقّبة التاريخية للشعر العربي ابتداء من العصر الجاهلي، مرورا بالعصر العباسي وبلوغ ذروته عند المتنبي، فإذا ولّينا وجوهنا شطر الأندلس وجدنا الحال نفسه، فلا يفاخر الشاعر الأندلسي إلا بأبيات قليلة تأتي في ذيل قصائد المديح، حيث يباهي بشعره، على العكس منه عند ملوك الأندلس الذين لم يكونوا يباهون بشاعريتهم، بل كانوا يستعلون ويفخرون بشجاعتهم، وبلائهم في الحروب، وفتحهم المدن والحصون[1].

ونجد من هؤلاء الملوك القاضي أبا القاسم بن عباد، يفخر بشجاعته وكرمه، ويمني نفسه في اتساع ملكه فيقول:

ولا بد من يومٍ أسود على الورى ... ولو رد عمرو للزمان وعامر

فما المجد إلا في ضلوعي كامن ... ولا الجود إلا من يميني ثائر

فجيشُ العلا ما بين جنبي جائلٌ ... وبحر الندى ما بين كفي زاخر[2]

"الطويل"

وهي مقطوعة قصيرة تتكون من ثلاثة أبيات جاءت مفرداتها سهلة وتراكيبها بسيطة غير معقّدة، ونراه يكثر فيها من استخدام الكناية، فتارة ينسب المجد إلى ضلوعه، وأخري ينسب الجود إلى يمينه، والعلا إلى جنبيه، والندى إلى كفيه، وفي هذا إشارة واضحة إلى تضخم ضمير الأنا لدى الشاعر، فقد تجلّى ضمير المتكلم في جميع أبياتها، ومعروف أن القاضي ابن عباد كان قاضيا للمنصور بن أبي عامر في إشبيلية، ثم استقلّ بها، وأسس الدولة العبادية، فكانت ولايته للقضاء تمثل مرحلة قصيرة نسبيا، ولكنّنا في غير هذا الموضع لا نجد للفخر البطولي أثرا في أشعارهم، فلم يتفاخروا بالقوة والشجاعة والكرم والجود، بل نجد أنواعا أخرى من المباهاة، يتمثل بعضها في التفاخر بالعلوم والمعارف، يقول القاضي ابن عبد البر:

---

(1) شلبي، البيئة الأندلسية، ص407.

(2) ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص38.

إذا فاخـرتَ فافخـر بالعلـومِ ودع ما كان من عظْمٍ رميـمِ

فكم أمسيـتُ مطرحا بجهـلٍ وعلمي حلّ بي بيـن النجومِ

وكائن من وزيرٍ سـار نحوي فلازمني ملازمـةَ الغريـمِ

وكـم أقبلـتُ متئـدا مهابـا فقام إلي مـن ملِكٍ عظيـمِ

وركبٍ سار في شرقٍ وغربٍ بذكري مثلَ عرفٍ في نسيم[1]

"الوافر"

إن شاعرنا يستخدم أسلوب الخطاب، فلا يرى ما يستحقّ أن يفخر به غير العلم، فيبـدأ مقطوعته بنصيحة يجعلها حكمة لكلّ من أراد المفاخرة والمباهاة، فلا شيء أجلّ من العلم، فيرى أن العلم يجعله يحلق بين النجوم، فتسمو مكانته ومنزلته بين الناس، فيجلّه الملـوك والـوزراء، ويتسابقون إلى إكرامه، وفي ذلك خروج عن الصورة التقليدية للفخر، وهو في كلّ ذلك يبتعد عن المبالغة والغرور، كما نلحظ في هذا أثر القضاء جليا في أشعارهم، حيث كان القاضـي علـى درجة عالية من العلوم والمعارف، وقد طالت المقطوعة، وجاءت لغتها سهلة غير متكلّفة وقريبة من اللغة الدارجة، ويقول القاضي أبو بكر الزبيدي في طلب العلوم والمعارف:

ما طلبتُ العلوم إلا لأني لم أزلْ من فنونها في رياض

ما سواها له بقلبي حظ غير ما كان للعيون المراض[2]

"الخفيف"

فهو يشبه العلوم بالرياض التي يسرح طرفه فيها، وليس له حظّ واشـتغال بغيـر هـذه العلوم، كمثل عدم اشتغاله وتعلقه بالحسان.

ونجد توجها آخر للفخر، وهو الفخر بالفصاحة والبلاغة، وجرأة النفس، وثبـات القلـب أمام الجموع، وعدم الخوف والارتباك، وموقف القاضي منذر البلوطي في هذا عظيم ومشهور،

(1) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص329

(2) المقري، نفح الطيب، ج3، ص475.

وقد ألقى خطبته أمام ملك الروم صاحب القسطنطينية بجنان ثابت، وكلام بليغ مؤثّر، بعدما أخذ الخوف والهيبة من نفوس سابقيه، وليس غريبا مثل هذا عليه، فقد عرف بقوة الحجة، ومجادلـة أهل البدع والضلال من أصحاب الملل والأهواء، يقول:

مقالٌ كحـد السيفِ وسـطَ المحافل — فَرقْتُ بهِ ما بيـن حقّ وباطـل

بقلـبٍ ذكـي ترتمـي جنَباتُـه — كبارقِ رعدٍ عند رعشِ الأنامـل

فما دحضتْ رجلي وما زلّ مِقولي — ولا طاشَ عقلي يوم تلك الزلازل

بخير إمامٍ كـان أو هـو كائـن — لمقتبـلٍ أو في العصورِ الأوائـل

وقد حدقتْ نحوي عيون إخالُهـا — كمثل سهامٍ أثبتـتْ في المقاتـل (1)

"الطويل"

فهو يفخر بخطبته ذات الروح الإسلامية التي فرق فيها بين الحقّ والباطل، كلّ هذا بعقل واع وذكاء وقّاد، دون أن يهاب من الموقف فيرتبك ويعي، ومن غير أن يأخذه الزهو والغرور، وقد اتسمت هذه القصيدة برصانة أسلوبها وجزالة ألفاظها، فقد اعتنى بنظمها، وكانـت طويلـة وتحتوي على التشبيهات والصور الفنية.

وبهذا يكون الفخر لدى القضاة قد خرج عن صورته التقليدية، وكل مـا وجـدناه فـي أشعارهم هو الفخر بالعلوم والمعارف والفصاحة والبلاغة.

(1) المقري، نفح الطيب، ج1، ص373. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص184-185. المراكشي، المعجب، ص56. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص296. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص244.

الرثاء

الرثاء غرض شعري أصيل وجد منذ العصر الجاهلي، وتابع طريقه في الإسلام مكتسبا معاني جديدة، وناظرا إلى الموت والحياة من منظار الشريعة الإسلامية الجديدة، ولم يكن حاله في الأندلس مغايرا عنه في المشرق، فمنه ما كان ينبع من العقل أكثر مما ينبع من القلب والوجدان، فتساق القصيدة لتخفيف المصاب على قلوب المصابين بالعظة والعبرة، ومنه ما كان ترجمة وتأريخا لحياة المرثي، فيذكرون أعمالهم وعلومهم وحوادثهم، وآخر خاص برثاء الملوك والأمراء وأسرهم، وهناك اتّجاه يتمثل في رثاء الآباء والأمهات والأبناء والأصفياء، وآخر يتمثل في رثاء المدن والممالك الأندلسية[1].

ولئن عرف في الأندلس رثاء المدن والممالك، غير أنّنا لم نجده في مخلّفات قضاتنا الشعرية، ويعزو الطالب ذلك إلى المرحلة التي هي موضع دراستنا، وهي تنتهي بعصر ملوك الطوائف، وإنّما كان هذا النوع من الرثاء في عهود متأخرة، وهي العصور التي تلت ملوك الطوائف من المرابطين والموحدين وما بعدها.

ولم نعثر في دراستنا على غير شكلين من الرثاء، تمثل أحدهما برثاء العلماء، والآخر برثاء الأبناء، فللقاضي أبي بكر الزبيدي في رثاء شيخه علي بن إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي اللغوي قصيدة جزلة الألفاظ كثيرة الغريب، صاغها صوغ فحول العرب، وضمنها قطعة من غريب كلامهم، وهي قصيدة طويلة أولها:

تا لا يبقى لصرفِ النّوى ذو جيدٍ في رأسِ نيقٍ منيفْ[2]

"السريع"

ولم نستطع العثور على أبيات هذه القصيدة سوى ما ذكر، وبها دليل على تقدير القضاة لشيوخهم واحترامهم لهم، فقد كان لهم الأثر البالغ في صقل شخصياتهم، وبناء علومهم، فكان

---

(1) عتيق. الأدب العربي في الأندلس، ص195-202.

(2) الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج2، ص81.

رثاؤهم نابعا عن شعور عميق بالفقدان والخسارة، إضافة إلى كونه شكلا من أشكال حفظ الجميل والصنيع.

ولأبي الوليد الباجي قصيدتان يرثي بهما ابنيه، وقد ماتا مغتربين، فيقول في إحداهما:

رعـى ا قلبيـ ـن استكانـا ببلـ ـدةٍ　　همـا أسكناهـا فـي السوادِ مـن القلـ ـبِ
لئـن غُيبـا عـن ناظـري وتبـ ـوءا　　فؤادي لقـ ـد زاد التباعـ ـد في القُـ ـربِ
يقَـ ـر بعينِـي أن أزور ثراهمـ ـ ـا　　وأُلصـقُ مكنـون الترائـ ـبِ بالتـ ـربِ
وأبكـي وأبكـي ساكِنِيهـ ـا لعلنـ ـي　　سأُنجد من صحـبٍ وأُسعـد مـن سحـبِ
فما ساعدتْ ورقُ الحمـامِ أخـا أسـى　　ولا روحـتْ ريـح الصبا عن أخي كَـربِ
ولا استعذبتْ عينـاي بعدهمـا كـرى　　ولا ظَمِئَـتْ نفسـي إلى البـاردِ العـذْبِ
أحـن ويثني اليأس نفسي علـى الأسى　　كما اضطر محمولٌ على المركبِ الصعبِ(1)

"الطويل"

فالقاضي يبدأ قصيدته بالدعاء لابنيه، فيزور قبريهما، ويذرف الـدموع علـى ثراهمـا، ويحرم طيب المنام، ويزهد في طيبات الطعام، ونحن أمام هذه الأبيات نستشعر صدق العاطفـة وحرارتها، ومقدار الألم والحزن الذين يسيطران على القاضي، "فالأندلسيون أهل عاطفة رقيقـة ووجدان حي، يؤثر فيهم المصاب، وتحزنهم النازلة"(2)، ومعاني الباجي في رثائه مطروقـة إلا أنّها جاءت ملبية لنداء قلبه وشعوره ووجدانه، ولم يشغل نفسه بالمحسنات البديعية التـي كانـت سائدة في عصره، فالمصاب جلل، والموقف لا يحتمل التكلف والتصنع، ولا يسع القـارئ إلا أن يبدي الحزن والأسى على ما أصاب الباجي متأثرا بألفاظه ومعانيه التي تحمـل مـدلول الألـم

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص101. المقري، نفح الطيب، مج2، ص75. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250-251. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص807. ابن خاقان، الفتح. قلائد العقيان، ص189. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص327.

(2) عيسى، عبد العزيز محمد. الأدب العربي في الأندلس، ص133. مطبعة الاستقامة، مصر: 1355.

والحزن والمرارة (السواد، غيبا، التباعد، ثراهما، مكنون الترائب، الترب، أبكي، ورق الحمـام، أسى، كرب، اليأس، محمول، المركب الصعب).

ويرثى في قصيدته الأخرى ابنه محمدا فيقول:

أمحمد إن كنـتُ بعـدك صابـرا صبر السليمِ لمـا بهِ لا يسلـم
ورزئْـتُ قبلـك بالنبـي محمـدٍ ولَرزؤه أدهـى لدي وأعظَـم
فلقد علمـتُ بأنني بـك لاحـقٌ مـن بعـدِ ظني أنني متَقَـدم
وبكل أرضٍ لي من آجالْك روعةٌ وبكـل قبـرٍ عبـرةٌ وترنّـم
فإذا دعوتُ سواك حاد عن اسمِهِ ودعاه باسمِك مِقولٌ بك مغرم
حكْم الردى ومناهج قـد سنهـا لأولي النهى والحِذْقُ قبلُ متيم
فلئن جزعتُ فإن ربي عـاذر ولئن صبرتُ فإن صبري أكرم(1)

"الكامل"

ونرى في "رثائهم لأبنائهم بكاء مرا ينبعث من فؤاد جريح، وقلب منفطـر"(2)، وعلـى الرغم من فجيعة الأب بابنه، إلا أنّه يصبر نفسه بموت الرسول عليه الصلاة والـسلام، وبهـذا يظهر مدى عمق إيمان القاضي، وحرارته الدينية، ونحن أمام كلّ هذا نـرى صـدق العاطفـة، فاللغة سلسة وبسيطة، والمعاني مطروقة بعيدة عن الزخارف اللفظية التي تتنـافي مـع الطبـع وصدق العاطفة، فالخطب جسيم، والموقف جد مثير، وجدير بالذكر أنّنا لم نلحظ في رثاء القضاة أثرا لشعر الطبيعة، والذي كان كثير من الشعراء يطعمون به مراثيهم(3)، وفي هذا دليـل آخـر على صدق العاطفة وحرارتها، حيث لم يحتفلوا ولم يلتفتوا أوينشغلوا بمظاهر الطبيعة.

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص101-102. المقري، نفح الطيب، ج2، ص75. ابن خاقان، قلائد العقيان، ص189.
(2) عيسى، الأدب العربي في الأندلس، ص 134.
(3) الشكعة، الأدب الأندلسي، ص256.

وبهذا فقد جاء شعر الرثاء عند القضاة على شكل قصائد طويلة، لأن الرثاء لديهم كـان نابعا من عاطفة حزينة قد برح بها الحزن أعظم تبريح، فكان الموقف يستدعي الإطالـة عـلّ الرثاء والبوح عن الآلام يخفّفان منها، كما تميز رثاؤهم بصدق العاطفة وحرارتها، واستحـضار المعاني الإسلامية، وعدم الاحتفال بمظاهر الطبيعة أو المحسنات البديعية.

الشكوى

تمر على الإنسان أوقات وليال عصيبة، ينهم بها المرء، ويتكدر صفو حياتـه، نتيجـة عوامل مختلفة تُخلّف وراءها هموما ومصائب، فيأخذ في الشكوى والتضجر من آلام هذه الحياة وشقائها وضنك عيشها، وكثيرا ما عبر الشعراء عن هذه المعاني، فيذمون الحيـاة، ويقـصدون أولي الجاه والنفوذ، فيبثونهم أحزانهم مادحين لهم، ومتوسلين إليهم، سائلين العون والخلاص.

وقد تنوعت أسباب الشكوى في العصر الأندلسي، فقد مثّل أبو المخشي عاصم بن زيـد في شعره بدايات شعر الشكوى التي قالها بعد أن وشى به الحاسدون عند الأمير هـشام فقطـع لسانه وفقأ عينيه[1]، وهناك أيضا شكاوى السجناءالسياسيين من الثوار والقواد.

لئن كان هذا هو حال معظم الشعراء، فإنّنا لم نجده في أشعار القـضاة، وإنّمـا كانـت الشكوى لديهم من نوع آخر، فرضتها عليهم حالة المسلمين من الغفلة والـصد عـن ذكـر ا ، واختفاء مكارم الأخلاق، يقول القاضي أبو الوليد الباجي:

مضى زمن المكارمِ والكرامِ — سقاه ا من صوبِ الغمامِ

وكان البِر فعـلا دون قـولِ — فصار البر نطقا في الكلامِ

وزالَ النطقُ حتّى لستَ تلقى — فتًى يسخو بـرد للسـلامِ

وزاد الأمـر حتّى ليـس إلا — سخي بالأذى أو بالملامِ[2]

"الوافر"

فالقاضي يشكو من فساد الأخلاق، وينعى المكارم، فقد حلّت الأقوال محلّ الأفعال، ولـم يعد يسخو أحدهم برد السلام، بل على العكس من ذلك يسخون بالسوء والأذى، والباجي عـاني سوء الظن والمعاملة، فقد اتّهم بالزندقة والإلحاد، لأنّه أفتى في أمر مثير للجدل على الرغم مـن

(1) المراكشي، أبو عبد ا محمد بن محمد بن عبد الملك . الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، ص103. تحقّيق: الدكتور محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت.

(2) المقري، نفح الطيب، مج2، ص85.

أن عددا من علماء الأندلس وصقلية أيدوا رأيه في هذه المسألة[1]، إضافة إلى أنّـه عـاش فـي عصر ضاعت فيه الأخلاق وتفشّت المعاصي والمنكرات عند الحكام والعامة، وتنبع مـن هـذه المقطوعة عاطفة صادقة ملؤها الحزن والأسى على ما آل إليه حال المسلمين، فكانت المفردات قريبة من لغة العوام، والتراكيب سهلة سلسة تخلو من الصور والمحسنات البديعية، وجاء كلامه هذا أقرب إلى لغة النثر، فهو في حال لا يسمح له بإطالة القول وزخرفته، وهو لا يحفل بجـودة العمل الأدبي بمقدار ما يهتم بعمق المعاني وإيصال رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر إلى مختلف الناس حكّامهم وعوامهم، عالمهم وجاهلهم.

ويكرر القاضي أبو عبد ا محمد بن سليمان الأنصاري المعنى نفسه، فيذم أهل زمانـه شاكيا سوءهم فيقول:

كان الزمان وكان الناس أشبهه	فاليوم فوضى فلا دهر ولا ناس
أسافلٌ قد علتْ لم تعلُ مِن كَرمٍ	ومشرفاتُ الأعالي منه أنكاس[2]

"البسيط"

وقد عاش هذا القاضي في أواخر عصر ملوك الطوائف المليء بالانقسامات والـضعف والفتن وتخاذل الحكام عن نصرة ديار الإسلام، الأمر الذي أدى إلى سـقوط المـدن والممالـك الأندلسية تباعا، فزمان القاضي غير زمان سابقيه، فهو يعيش في عصر يسوده الفوضى، ونقرأ في البيت الثاني تعريضا مبطّنا بحكّام ملوك الطوائف، فهم لا يتّصفون بالكرم وفضائل الأخلاق بل هم جبناء وضعفاء، فسيوفهم أنكاس لا تستطيع الذود عن حياض الإسلام ومحارمه، وللقاضي أبي عمر بن عبد البر في الشكوى من الناس:

وقائلـةٍ مـا لي أراك مرحـلا	فقلتُ لها: صه واسمعي القولَ مجملا
تَنَكـر مـن كُنّـا نُسـر بقُربـهِ	وصار زعافـا بعدمـا كان سلْسـلا

(1) النباهي. تاريخ قضاة الأندلس، ص202.

(2) ابن عسكر، أعلام مالقة، ص75. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص100.

وحقّ لجـارٍ لم يوافِقْـهُ جـاره	ولا لاءمتْـهُ الـدار أن يتَحـولا
بِليـتُ بحمـصٍ والمقـام ببلـدةٍ	طويلا لَعمري مخْلقٌ يـورثُ البِـلا
إذا هان حر عنـد قـومٍ أتاهـم	ولم ين عنهم كان أعمـى وأجهـلا
ولم تُضـربِ الأمثالُ إلا بعالـمٍ	وما عوتِـب الإنسـان إلا ليعقِـلا[1]

"الطويل"

فهو يسوق الأبيات بأسلوب حوار بينه وبين زوجته أو ابنته، ويشير إلـى عنَـت نالـه بإشبيلية، فحمله على الرحيل، فهو يشكو من الناس، فقد تنكّر له الأصحاب بعدما كانوا قـريبين منه، فيرى السفر خير علاج، وهو في ذلك يضمن مقطوعته أبياتا من الحكم والأمثال، وطبيعي من إنسان كان يحتلّ أشرف الرتب أن يكون موضع حسد من معاصريه، كمـا أن كثيـرا مـن أصحاب الهوى والنفوس المريضة يضيقون ذرعا بأحكام القضاة إن كانت في غيـر صـالحهم، ونراه كذلك يؤكد هذا المعنى بقوله:

ولسـْتُ بناجٍ مِـن مقالـةِ طاعـنٍ	ولو كنتُ في غارٍ على جبلٍ وعرِ
ومن ذا الذي ينجو مِن الناسِ سالما	ولو غاب عنهم بين خافِيتَي نسرِ[2]

"الطويل"

فيرى أنّه مهما كان القاضي عادلا في أحكامه لا يخلو من أن يطعن به أحـدهم نتيجـة مآرب ذاتية، ومواقف شخصية، ويصيغ قاضينا ذلك بنوع من الحكمة، وهـذا الموقـف لـيس مقصورا على قاض دون آخر، فالقاضي منذر البلوطي أحس بما أحس به ابن عبد البـر، فهـو يشكو من تنكّر أبناء بلده له، ولكنّه يسلّي نفسه ويعزيها بوجود الخلافة التي لا يستبدِل بها شيئا، فيقول:

---

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص243. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص295_296. المقري، نفح الطيب، ج4 ، ص29.

(2) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص471.

هذا المقالُ الذي ما عابَـه فَنَـد لكن صاحبه أزرى بِـهِ البلـد

لو كنتُ فيهم غريبا كنتُ مطرفا لكنّنـي منهـم فاغتالني النكـد

لولا الخلافةُ- أبقى ا بهجتَها- ما كنتُ أبقى بأرضٍ ما بها أحد(1)

"البسيط"

وفي هذه الأبيات إشارة واضحة إلى إعجاب الأندلسيين بالمشارقة، وعدم تقديرهم إلى علماء بلادهم، وقد عبر عن هذا أيضا ابن حزم الأندلسي، حين قال:

أنا الشمس في جو العلـوم منيـرةً ولكـن عيبـي أن مطلعي الغـرب

ولو أنّني من جانب الشرق طالـع لجد على ما ضاع من ذكري النهب(2)

ومن هنا فإن الشكوى عند القضاة لم تكن نتيجة مشاكل ذاتية أو هموم فردية مـن أثـر المصائب أو الضيق المادي كما كان عليه الحال عند باقي الشعراء، بل كانت بدافع الغيرة علـى الدين ومحارمه، ومن أجل بثّ روح الإسلام عميقا في النفوس، كما رأينا دخول أسلوب المثـل والحكمة في شكوى القضاة، وذلك أعمق في النفوس، وأكثر تأثيرا، بالإضافة إلى ذلك فإن جميع هؤلاء القضاة باستثناء منذر البلوطي كان ينتمي إلى عصر ملوك الطوائف، فكانـت شـكواهم نتيجة لما ساد تلك الحقّبة من ضعف وقلاقل وهزائم متتالية.

---

(1) الضبي، بغية الملتمس، ص406. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم2، ص556. المقري، نفح الطيب، ج1، ص374. المراكشي، المعجب، ص55. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص296.

(2) المقري. نفح الطيب، ج2، ص81.

الغزل

كان لطبيعة الأندلس الفاتنة أثر واضح في استثارة المشاعر، وانقياد العواطف، وطـرب النفوس، فكلّ ما في هذه البيئة الجديدة يفتن ويوحي بالسحر والجمال، مما عزز من ظهور فـن الغزل وانتشاره بكثرة، وقد اتّسم برقته الناشئة من التفنّن البياني فـي وصـف محاسـن نـساء الأندلس الجميلات، وتصوير مشاعرهم المتضاربة تجاههن، ولكنّهم لم يبدلوا من نظـرتهم إلـى المرأة، ومن مفهومهم لقيم الجمال فيها، وظلّ الغزل الأندلسي كأخيه المشرقي حسيا يهتم بظاهر الجسد، ولا يحفل بالنفس الإنسانية وما يختلجها من مشاعر وأحاسيس[1].

وكان للغزل عند الأندلسيين عدة اتّجاهات: الغزل الحسي الصريح، والغـزل العـذري العفيف، والغزل بالنصرانيات، والغزل بالمذكّر وأبرز أعلامه ابن سهل الإسرائيلي، فقد سار في ذلك على خطى شعراء المشرق أمثال حماد عجرد وحسين الضحاك وأبي نواس.

"وما افتن الشعراء في شيء كالغزل، ولا تباروا في غيره مثلما تباروا فيـه"[2]، فعلـى حين نجد شيوع الغزل الحسي الصريح والغزل بالمذكر في الأندلس، بفعل انتشار مجالس اللهـو والغناء والجواري والقيان، يمكننا القول: إنّنا لم نجد في أشعار القضاة من الغزل إلا أبيات قليلة لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وهو يمثل اتّجاه العفاف، يقول القاضي أبو الوليد الفرضي:

إن الذي أصبحتُ طوع يمينهِ — إن لم يكن قمرا فليـس بدونهِ

ذلّي له في الحب من سلْطانهِ — وسِقام جسمي من سِقامِ جفونهِ[3]

"الكامل"

وهو –وكما نراه- عفيف في غزله، لا يصرح ولا يذكر مفاتن المحبوبة، وليست نتفتـه هذه إلا محاولة تقليدية تخلو من العاطفة، ويقول القاضي محمد بن سليمان الأنصاري:

---

(1) عتيق. الأدب العربي في الأندلس، ص169.

(2) عيسى، الأدب العربي في الأندلس، ص128.

(3) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص286. المقري، نفح الطيب، ج2، ص130. الضبي، بغية الملتمس، ص291. الحميدي، جذوة المقتبس، ص399. ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص255. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص106. ابن بسام، الذخيرة،مج2، قسم1، ص616.

ومن عجبٍ أنّي أهيـم بحبِّـهِ وأوليه إعراضا وفي القلـبِ يرتـع

كذي رمـَدٍ في مقلتيهِ يزيـده سنا الشمسِ ضرا وهو بالشمسِ مولع[1]

"الطويل"

فالقاضي يهيم بالمحبوب، ولكنّه يعرض عنه، فيصور نفسه بمن كـان بعينيـه رمـد، فيعرض عن الشمس وهو مولع بها، وهي صورة جميلة رائعة.

وبهذا فإنّنا نجد أشعار القضاة في الغزل قليلة جدا لا تتعدى بضعة الأبيات، وهـي مـع قلتها تتجه اتجاها عفيفا شريفا بعيدا عما كان سائدا عند شعراء عصرهم مـن الغـزل الحـسي الصريح، كما أنّها تخلو من العاطفة، فاقتصرت على شكل نتف صغيرة، حتّى إنهـم اسـتبدلوا أشعار الطبيعة بالمقدمة الغزلية في كثير من أغراضهم الشعرية الأخرى.

---

[1] ابن عسكر، أعلام مالقة، ص76.

الاستصراخ

تأتي على الإنسان كوارث وأزمات يعاني منها الجزع والويلات، فيستنـصر الـضعيف بالقوي ويستصرخه، فيهب للدفاع عنه ورد حقّوقه له، وهذا هو حال البشرية منذ بدء الخليقـة، وكانت النجدة والنصرة في الجاهلية مبنية على العصبية القبلية، وشيم الأخلاق العربية، فلما جاء الإسلام أصبح الدافع دينيا هدفه الذود عن حياض الإسلام والمسلمين، ونحن نستذكر تلك المـرأة المسلمة التي اعتدى عليها الروم، فاستغاثت بالمعتصم قائلة: "وامعتصماه"، فهب لنجدتها بجـيش جرار فتح به عمورية.

وقد دهى الأندلس بعد انتهاء حكم الأمويين بها وابتداء عصر أمراء الطوائـف أزمـات سياسية، وأحداث مزلزلة، فأخذ الأمراء يعيشون للهو والمتعة، ولم يفكّروا في مصير الأنـدلس، واشتد نزاع أهل الأندلس، وسددوا أسلحتهم إلى صدور بعضهم بعضا، بدلا من أن يسددوها إلى صدور أعدائهم، فاستغلّ الإسبانيون ضعف المسلمين وانصداع شـملهم، وأخـذوا يـستجمعون قواهم، ويزحفون باتّجاه المدن والمعاقل الأندلسية لاسترجاع بلادهم، فتساقطت تباعا، كلّ هذا أثّر في نفوس الشعراء، وجعلهم يرسلون النداءات إلى القواد والحكّام، ويستغيثون بهـم، عـسى أن يكون بهم بقية باقية من نخوة أو إيمان، فيستثيرون بهم معاني الجهاد، ونصرة أهل الإسلام بعدما لحقّهم الدمار والذل والهوان(1).

ولا نجد في دراستنا هذه أشعارا للقضاة في غرض الاسـتنفار والاستـصراخ، سوى مقطوعة واحدة تعود لعصر الإمارة في استنصار الحكم بن هـشام، فيـسمع القاضـي عباس بن ناصح في الثغر بوادي الحجارة امرأة تقول: واغوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتّـى كلب العدو علينا، فأيمنا وأيتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت كنت مقبلة من البادية فـي رفقـة، فخرجت علينا خيل العدو، فقتلت وأسرت، فصنع قصيدته التي أولها:

تململت في وادي الحجارة مسهرا   أراعي نجوما ما يردن تغورا

---

(1) ضيف، شوقي: عصر الدول والإمارات الأندلس، ص378. ط3، دار المعارف، القاهرة:1989م. عيسى: الأدب العربي في الأندلس، ص150-151.

إليك أبا العاصي نَضيـتُ مطيتي تسير بهـم سريا[1] مهجـرا

تدارك نساء العالميـن بنصـرةٍ فإنّك أحرى أن تغيثَ وتَنصرا[2]

"الطويل"

فلما دخل على الحكم أنشده القصيدة، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، فغـزا ناحيتهم، وأثخن فيها، وفتح الحصون، وخرب الديار، وقتل عددا كبيرا، فأحضر المرأة وجميـع من أسر له أحد في تلك البلاد، فأُحضر، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها.

ولعلّ سبب ندرة غرض الاستصراخ في أشعار القضاة يعود إلى عدة أسباب:

أولا: كان غرض الاستصراخ بمفهومه العام نتيجة لسقوط المدن والقلاع الأندلـسية، واعتـداء الإسبان على الإسلام وأهله، وهذا كان في أواخر عصر ملوك الطوائف، وأشعار القضاة التـي تمثّل تلك الحقّبة قليلة.

ثانيا: لا نفترض أن جميع أشعار القضاة قد وصلتنا، فطبيعة النقل والرواية تفقد جزءا من هـذه الأشعار، فربما كان في الجزء المفقود شيء من هذا الغرض.

ثالثا: لم يعول القضاة على ملوك الطوائف، وذلك لما عرف عنهم من فساد الـدين والأخـلاق، والانهماك في الرذائل والشهوات، والتغافل عن مصير الأندلس، فكان لسان حال القضاة يقول:

لقد أسمعتَ لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي[3]

"الوافر"

---

(1) ورد في المصدر (ساريا)، وبها لا يستقيم الوزن.

(2) لمقري: نفح الطيب، ج1، ص343.

(3) البيت لعبد الرحمن بن الحكم الثقفي، ينظر : ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، مج4، ج7، ص208. دار سحنون للنشر والتوزيع: تونس 1997م.

العلم

كان القضاة على درجة كبيرة من العلم والمعرفة، فقد "كان شعب الأندلس شعبا يقبل على العلم للعلم ذاته...وكان الرجل ينفق كل ما عنده من مال حتّى يتعلم، ومتى عرف بالعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال"(1)، وقد كانت للقضاة -كما مر بنا في الفصل السابق- رحلات علمية ومؤلّفات جمة، حيث كانوا يمثلون طبقة العلماء في المجتمع الأندلسي، فكان من الطبيعي أن يظهر أثر ذلك جليا في أشعارهم، فنراهم يدعون للعلم ويحثون على اكتسابه، ولكن كيف ينال هذا العلم الذي يدعون إليه؟، إنّه لا ينال بالجمع والحفظ، بل يجب أن يقترن هذا بالفهم والوعي، فيقول في ذلك القاضي محمد بن بشير:

أما لو أعي كل ما أسمع	وأحفظُ مِن ذاك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد جمعتُ	لقيلَ هو العالم المقنع
ولكن نفسي إلى كل فن	مِن العلْمِ تسمعه تنزع
فلا أناْ أحفظُ ما قد جمعتُ	ولا أناْ من جمعِهِ أشبع
ومن يك في علمِهِ هكذا	يكن دهره القهقرى يرجع
إذا لم تكن حافظا واعيا	فجمعك للكُتْبِ لا ينفع
أأحضر بالجهل في مجلسٍ	وعلمي في الكُتْبِ مستودع؟(2)

"المتقارب"

وقد امتاز أسلوبه في هذه القصيدة بالسهولة والوضوح، واقتربت لغته من لغة العوام، كما خلت من الصور الفنية والتشبيهات والمحسنات اللفظية فكان شعره قريبا من لغة النثر، ونلحظ كذلك الإسهاب وعدم الإيجاز الذي يدور حول نفس الفكرة من أجل توكيدها وتعليقها في ذهن القارئ، فهو يصيغ المعاني بجمل وتراكيب مختلفة، وهو في ذلك كلّه يركز على معاني

(1) الشكعة، الأدب الأندلسي، ص71.

(2) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص86.

العلم والمعرفة (أعي، أحفظ، أستفد، العالم، المقنع، فن، جمعت، علمه، حافظا، واعيا، الكتـب)، وله في فضل الكتب وحمد العناية بالدفاتر قصيدة من أجمل ما قيل في الكتاب، فيذكر لنا احتجابه عن الناس، ومصاحبته الكتب متّخذا إياها خير جليس، فهي التي تحدثه، وتوفيه بالأخبار:

أقبلـتُ أهـرب لا آلـو مباعـدةً	في الأرض منهم فلَم يحصِنِي الهـرب
لما رأيـتُ بأني لسـتُ معجِزهـم	فَوتـا ولا هـربا قـد يـت احتجـب
فَصِرتُ في البيتِ مسرورا تُحدثني	عن عِلْمِ ما غاب عني في الورى الكتُب
فردا تُخبرني الموتى وتَنْطِقُ لـي	فَليـس لي مِـن أنـاسٍ غيرهـم إرب

ثم يأخذ بعد ذلك في تعداد مناقبها وفوائدها، فهي التي لا يخشى منها السوء والأذى، كما تمد الإنسان بالحكم والعبر والآداب من سيرة الرسول، وأيام العرب، وسير الملوك، فكأنّه عايشَ تلك العصور وشاهدها على الرغم من بعد المكان والزمان:

مـِن جلسـاء لا جليسهـــم	ولا خليطُهـم للسـوءِ مرتَقِـب
لا بادراتِ الأذى يخشـى رفيقُهـم	ولا يلاقيـهِ منهـم منْطِـقٌ ذَرِب
أبقوا لنـا حِكَمـا تَبقـى منافعـها	أخرى الليالي على الأيامِ وانشعبوا
إن شِئْتَ مِن محكمِ الآثار يرفعهـا	إلى النبي ثِقَـاةٌ خِيَـرةٌ نُجـب
أو شِئْتَ مِن عربٍ عِلْمـا بأولهـم	في الجاهليةِ تُنْبيني بهـا العـرب
أو شِئْتَ مِن سِيرِ الأملاكِ مِن عجمٍ	تُنْبي وتُخْبِر كيـفَ الرأي والأدب
حتّى كأنّي قد شاهـدتُ عصرهـم	وقد مضتْ دونَهم مِن دهرنا حقّب

وينهي قصيدته بحكمة تتمثل في عدم موت من ترك أثرا علميـا، فالحـضارات خالـدة بخلود علومها ومعارفها، وهو بذلك يربط هذه العلوم بالدين، فليس لها قيمة ونفع في معزل عنه:

ما ماتَ قوم إذا أبقوا لنا أدبـا   وعلْم دينٍ ولا بانوا ولا ذهبـوا [1]

"البسيط"

وقد امتازت هذه القصيدة بالطول، وجاءت ألفاظها سلسة بعيدة عن الغرابـة والجزالـة، وتراكيبها بسيطة خالية من التعقيد، ونحن في ذلك لا نلحظ التكلّف والتصنّع بل جاءت مطبوعـة مع السليقة، فلم يهتم القاضي بالصور والمحسنات البديعية، فهو ليس بصدد عمل أدبي يحاول من خلاله أن يستحوذ على إعجاب الشعراء والنقّاد، وإنّما هو قاض ينقل تجربته للآخـرين، ويقـدم النصيحة والمشورة لطالبيها ومحبيها، ولا يخفى علينا أن قاضينا في قصيدته هذه يتـأثر بعجـز بيت شعر المتنبي ويدير معناها حوله:

أعز مكان في الدنى سرج سابح   وخير جليس في الزمان كتاب[2]

"الطويل"

وللقاضي ابن عبد البر قصيدة يذم فيها المقلّدين الذين لا يدركون علل العلوم ووجوهها، ولا يرون بالاجتهاد، وفي هذا تأكيد آخر على الدعوة للاجتهاد، فما صورة المقلّد الأعمى إلا كالحيوان الذي لا يعقل، ونحن بهذه المعاني نجد أثرا واضحا للقضاء الذي كان الاجتهاد شرطا لتوليه:

يا سائلي عن موضع التقليدِ خُـذْ   عنّي الجواب بفهمِ لب حاضـر

وأصِخْ إلى قولي ودن بنصيحتي   واحفظْ علي بوادري ونوادري

لا فـَرقَ بيـن مقلّـدٍ وبهيمـةٍ   تنقـاد بيـن جنادلٍ ودعاثـر

تبـا لقاضٍ أو لمفـتٍ لا يـرى   عللا ومعنى للمقـال السائـر

ونلاحظ اقتراب هذا الأسلوب من معنى الهجاء، كما نجد التمثيـل الـصادق للمـذهب المالكي الذي كانت تدور عليه الفتيا والقضاء في الأندلس، والذي يرتكز على القـرآن والـسنّة

(1) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص511-512.

(2) المتنبي. الديوان، ص479. دار بيروت ودار صادر، بيروت: 1377هـ-1958م.

أولا، والإجماع ثانيا، والاجتهاد ثالثا، والقاضي في ذلك يرتب مصادر التشريع: القرآن، والسنّة، وأقوال الصحابة، وإجماع التابعين، وقول أهل المدينة، وبعد ذلك يكون الاجتهاد الذي يعتمد على الدليل الشرعي، وقياس الفروع على الأصول :

فإذا اقتديـتَ فبالكتـابِ وسنّـةِ الـ	مبعوثِ بالدين الحنيـفِ الطاهـر
ثـم الصحابـةِ عنـد عدمِـك سنّـةٍ	فأولاك أهلُ نهى وأهـلُ بصائـر
وكـذاك إجمـاع الذيـن يلونَهـ ـم	مِـن تابعيهم كابـرا عـن كابـر
إجمـاع أمتنـ ـا وقـ ـولُ نبينـ ـا	مثلُ النصوص لدى الكتابِ الزاهر
وكـذا المدينـةُ حجـةٌ إن أجمعـوا	متتابعيـن أوائـ ـلا بأواخـ ـر
وإذا الخـلافُ أتى فدونَـك فاجتَهـد	ومع الدليـل فَمِـلْ بفَهـمٍ وافـر
وعلى الأصول فقِس فُروعك لا تَقِس	فرعـا بفرعٍ كالجهول الحائـ ـر
والشر مـا فيـهِ- فديتُـك- أسـوة	فانْظُر ولا تحفَلْ بزلـةِ ماهـر[1]

"الكامل"

وينظم القاضي قصيدته، فيبدأ بالغرض مباشرة دون مقدمة، ويجعل من نفسه مجيبا عن أسـئلة الآخرين، كلّ ذلك بصياغة فنية رائعة سهلة الألفاظ سلسة التراكيب، فيخاطب بها جميـع فئـات الشعب فيفهمها العالم والجاهل، وهو لا يعبأ بالأسلوب الفني للقصيدة، وصب جلّ اهتمامه علـى الفكرة والمعنى من أجل الوصول إلى الغرض المنشود.

ويؤكد في قصيدة أخرى على ضرورة وعي العلوم وفهمها، وعدم الاكتفاء باقتناء الكتب والمباهاة بها، فقد أولع أهل الأندلس باقتنائها، فأنشأوا المكتبات الخاصة والعامة[2]، فكانت قرطبة

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص291-292.

(2) ينظر: دياب، حامد الشافعي. الكتب والمكتبات في الأندلس، ط1. دار قباء، القاهرة:1998م.

"أكثر بلاد الأندلس كتبا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتّى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخطّ فلان قد حصله وظفر به"[1]، فيقول:

يا من يرى فضل[2] جمع المال والكتبِ ... خُدعتَ وا ليس الجـد كاللعـبِ

العلم ويحك ما في الصـدر تجمعـُه ... حفظا وفهمـا وإتقانا فداك أبـي

لا مـا توهمه العنْـدِي[3] من سفـهٍ ... إذْ قالَ ما تبتغي عندي وفي كتبي

ويبين أن العلم لا ينال براحة الجسم، أو جمع الأموال، فمن طلب العلا سهر الليالي:

قـالَ الحكيـم مقالا ليـس يدفعـه ... ذو العقل من كان من عجمٍ ومن عرب

ما إن ينالُ الفتى علْمـا ولا أدبـا ... براحـةِ النفـسِ واللّـذاتِ والطَـربِ

نَعم ولا باكتسابِ المـال تجمعـه ... شتان بين اكتسـابِ العلـمِ والذَهـبِ

ثم يقول إن طلب العلم كان سبيل الرسل والأنبياء، ومن تبعهم من الصحابة والصديقين، فتكون بهم قدوتنا:

أليس في الأنبياءِ الرسلُ أُسـوتنا[4] ... عليهم صلواتُ الرب ذي الحجبِ

حازوا العلوم وعنهم جملةٌ وَرِثَتْ ... وعاشَ أكثرهم جهدا بلا نَشَـب

ويختتم القصيدة بمزيد من الحثّ على العلم، فلا حياء في طلب العلوم، وليس به خير إن حال دون تعلّم المرء:

إن الحيـاء لخيـر كلـه أبـدا ... ما لم يحلْ بين نفسِ المرءِ والطَلَبِ

(1) المقري، نفح الطيب، ج1، ص462-463.

(2) لم ترد هذه الكلمة في المصدر، وإنّما أضفناها حتّى يستقيم الوزن.

(3) العندي: المعاند.

(4) لقد وردت في المصدر بلفظ (أرسل)، ولا يستقيم الوزن والمعنى إلا بـ (الرسل).

وكل ما حالَ دون الخير لم يكُ في ما بين ذاك وبين الخير مِن نَسبٍ[1]

"البسيط"

وقد ابتدأ قصيدته هذه بالتصريع، ولا نخفي اعتناء القاضي بهذه القصيدة فقـد جـاءت تراكيبها متينة حسنة السبك، وقد أكثر من استخدام الطباق (الجد-اللعب، عجم-عـرب، جهـد-نشب).وله يصف كتابه (التمهيد لما في الموطّا من المعاني والمسانيد) :

سمير فؤادي مذُ ثلاثين حجةً وصيقلُ ذهني والمفرج عن همـي

بسطتُ لكم فيهِ كلام نبيكـم بما في معانيهِ من الفقـهِ والعلـمِ

وفيهِ من الآدابِ ما يهتدى بهِ إلى البر والتقوى وينهى عن الظلمِ[2]

"الطويل"

وهكذا فإنّنا نرى القضاة أولعوا بالعلم والمعرفة، فما في الثياب والرياش يكون قدر المرء ومنزلته، حيث نجد القاضي أبا بكر الزبيدي يوضح هذه المعاني لأبي مسلم بن فهد الهـذلي[3]، فالعلم شرف عظيم لا يدانيه شرف، ولا يتأتّى بالقعود واللهو والخمر والقيان، فالقاضي لا يقـيم وزنا للمظاهر من جاه وثياب، فيشبه تنوعها وتلونها ببغال اليهود والقسيسين، وهو بهذا يعكـس صورة من صور تعدد الأجناس والأديان في الأندلس فيقول:

أبـا مسلـمٍ إن الفتـى بجنانِـهِ ومِقْولِـهِ لا بالمراكـبِ واللبـسِ

وليس ثياب المـرءِ تُغنـي قُلامـةً إذا كان مقصورا على قِصـرِ النفسِ

وليس يفيد العلـم والحِلـم والحِجـا أبا مسلمٍ طولُ القعـودِ على الكرسي

ولا تُبتنـى العليـا بكـأسٍ وقينـةٍ وصهباء لم تنْغَر بهـا القِدر كالورسِ

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص120.

(2) ابن عبد البر، يوسف بن عبد ا بن محمد. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، مج10، ص611. تحقّيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت: 1419هـ-1999م.

(3) لم أعثر له على ترجمة.

أعيرتنـي أن لـم أوَـره مطيتـي وأن ثيابي غيـر بيـضٍ ولا ملْـسِ

فرب ثيـابٍ رثّـةٍ حشْـوها فتًـى أجد ممِر غيـر قَسـ ـلِ ولا نِكْـسِ

وآخَـر براقُ الثيـابِ وعِرضـه من العار والتدنيس رجس على رجسِ

فإمـا تهولنْـك البغـالُ فإنّهـ ـا منوعـةٌ عنـد اليهودي والقِـ ـس[1]

"الطويل"

ونلاحظ في هذه القصيدة اختلافا عن نظيراتها، فقد أولاها القاضي العنايـة والاهتمـام، فجاءت تراكيبها جيدة السبك والصياغة، وقد اهتم بالصورة الفنية فنجدها موغلة فـي القـصيدة بأكملها.

وبهذا نجد أشعار العلم لدى القضاة كثيرة، وتعبر عن عمق صلة القضاة بالعلوم وخاصة الشرعية منها، كما نرى حثّ القضاة في أشعارهم على نيل العلـوم، والـدعوة إلـى التبـصر والاجتهاد فيها، كما غلب عليها طابع القصيدة، مما يدل على مـدى اهتمـامهم بهـذا الغـرض وتعلّقهم به، وما ذلك إلا لأن العلم احتلّ مكانة كبيرة في صـدورهم، ونـشير كـذلك إلـى أن قصائدهم هذه خلت من المقدمات بمختلف أشكالها، فدخلوا في الغرض مباشرة، فالموقف عندهم جد مثير لا يحتاج إلى البدايات والمقدمات التي تستنزف جهد الشاعر وتأخذ حيزا من القـصيدة على حساب الغرض الرئيس، كذلك فإنّهم لم يهتموا بالصور الفنية والمحسنات البديعية.

[1] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص120. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص86. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص181. الضبي، بغية الملتمس، ص57. ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم2، ص66. المراكشي، المعجب، ص63. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص278. المقري، نفح الطيب، ج4 ،ص7.

الزهد

لما بددت شمس الإسلام ظلام الجاهلية انصرف الصحابة عن متاع الحياة وزهدوا فيـه، وعاشوا للنسك والذكر والابتهال، كما وجدت نزعة الزهد سبيلها في العصر الأموي في مختلف الأقطار الإسلامية لا سيما العراق وزاهدها الحسن البصري، ولعلّ السبب يرجع إلى ما مني به العراق من فتن وحروب داخلية، وفي العصر العباسي كان أبو العتاهية أول مـن سـن وفـتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد في الدنيا، وذلك كردة فعل على ما شاع في عصره عند الـشعراء من التهتّك والمجون والزندقة أمثال أبي نواس[1].

وعلى الرغم من كثرة وسائل المتعة في الأندلس، وتطرف أهلها في الانغـراق بـالمتع والملذّات، فإنّنا نرى تطرفهم في الزهد كذلك[2]، ونتيجة عوامل مختلفة كثر شـعر الزهـد فـي الأندلس، ويعود بعضها لعوامل الشيخوخة والخوف من الموت، وللتكفير عـن الـذنوب التـي اقترفتها النفس إبان شبابها، ونتيجة تعقد الحياة واضطراب المجتمع الأندلسي في عصر ملـوك الطوائف، الأمر الذي جعل كثيرا من الشعراء ينحون منحى زهديا في أشعارهم[3]، كمـا كـان نتيجة "ردة فعل شديدة ضد عدد وفير من أبنائها، ذوي أصوات عالية مسموعة في الانغراق في المادية والابتعاد عن الروحية"[4]، ولقد احتلّ الزهد مكانة كبيرة في أشعار القضاة تتمثـت فـي عدة مواضيع:

أولا: تحقّير الدنيا:

يدرك من كانت صلته با قوية أن الحياة ليست مادية، وأن المصير نحو حياة أُخرويـة دائمة وباقية، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، ومن هنا نرى القضاة يزهدون في هـذه الـدنيا ونعيمها محقّرين متاعها، يقول القاضي أبو الوليد الباجي:

---

(1) الشكعة، الدكتور مصطفى. الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص210-224. ط2. دار العلم للملايين، بيروت: 1975م. عتيق. الأدب العربي في الأندلس، ص216-219.

(2) الشكعة، الأدب الأندلسي، ص56.

(3) شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر. ص501-502.

(4) الشكعة، الأدب الأندلسي، ص57.

تبلّـغْ إلـى الدنيـا بأيسـر زادٍ فإنك عنهـا راحـلٌ لمعـ ـادِ
وغُض عن الدنيا وزخرفِ أهلِها جفونَك واكحلْها بطول سهـادِ
وجاهد عن اللذاتِ نفسك جاهـدا فإن جهاد النفسِ خيـر جهـادِ
فمـا هـذهِ الدنيـا بدار إقامـةٍ فيعتد مـن أغراضِها بعتـادِ
ومـا هي إلا دار لهـوٍ وفتنـةٍ وإن قصارى أهلِهـا لنفـادِ(1)

"الطويل"

فيبدأ مقطوعته بضمير المخاطب، وكأنّه يريد زجر قارئها وسامعها، فالحياة قصيرة جدا، فلا يجب علينا أن نشغلها بالمعاصي والملذات، بل نشغلها بالعبادة والطاعات، وقد جاءت الألفاظ سهلة والمعاني مستوحاة من تعاليم الإسلام، وفي مقطوعة أخرى له يؤكد المعنى نفسه فيقول:

إذا كنتُ أعلم علما يقينا بأن جميع حياتي كساعـةْ
فلم لا أكون ضنينا بها وأجعلها في صلاحٍ وطاعةْ(2)

"المتقارب"

وقد اقتربت لغة هذين البيتين من لغة النثر فهي توحي بصدق الإحساس لبعدها عن الصنعة والتكلّف، فألفاظها سهلة وتراكيبها بسيطة.

ويجمل القاضي ابن عبد البر القول في ذلك، فيهون من قدر الدنيا، ويدعو إلى التمـسك بحبل ا المتين متأثرا بالقرآن الكريم، فيقول في قصيدة له:

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص103.

(2) الأصفهاني، العماد.خريدة القصر وجريدة العصر، ص505. تحقّيق: عمر الدسوقي وعلي عبد ا العظيم، دار نهضة مصر، الفجالة: 1964م. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص95. الضبي، بغية الملتمس، ص262. المقري، نفح الطيب، مج2، ص74. ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص98. ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص201-202. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص120. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص408-409. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج1، ص327. الكتبي، فوات الوفيات، مج3، ص65. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص374. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص807. الحميري، الروض المعطار، ص75. ابن خاقان، قلائد العقيان، ص189.

تجافَ عن الدنيا وهون لقدرها وخذْ في سبيل الدين بالعروةِ الوثقى[1][2]

"الطويل"

ثانيا: التذكير بالموت:

فالموت خير واعظ للإنسان، وقد أكثر الزهاد من تداول معاني الموت، ونرى القاضـي ابن أبي عيسى يأمر أن يكتب على سريره:

لا يغُرنّك يـا محمـد ليـلٌ بـِت فيـهِ على فراشٍ وثيـر

منْعم البال مطمئنا فـلا بـد د من النعش بعد هذا السريـر

وتذكّر بني أبيك أبـي عيـ سى ذوي الجاهِ والعددِ ألكثيـر

قدمِ الزاد للمعـ ـادِ ولا تنـ س إذا ما بطشتَ بطشَ القديـر

واتّق ا واعلمن[3] هذه الأيـ يام واعملْ فيها[4] ليومِ النشـور

قرب الموتَ منك مر الليالي وأرى النقص[5] واضح التعبير[6]

"الخفيف"

ونجد تراكيب هذه القصيدة محكمة السبك، وألفاظها سهلة تحفل بمعاني الموت والفنـاء (النعش، المعاد، بطش، النشور، الموت، النقص)، فهو دائما يجعل الموت نصب عينيه، فلا يريد أن يغيب عنه حتّى في منامه، كي يكون ذاك وعظا وتذكيرا له، فليس معنى راحته ونعمته اليوم أنه سيكون في منأى عن يد المنون، فلا أحد مخلّد في هذه الدنيا، وهو يتذكر آباءه وأجداده مـن بني عيسى، فهم سابقون وهو لاحقٌ بهم، فلا بد له إذن من أن يعمل لآخرته، ويزيد من ميـزان حسناته.

---

(1) وهي مأخوذة من قوله تعالى: (فقد استمسك بالعروة الوثقى)، البقرة، آية256.

(2) ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم،ص265. المقري، نفح الطيب، ج4 ،ص28.

(3) أدخلنا نون التوكيد الخفيفة على الفعل ليستقيم الوزن.

(4) أضيفت كلمة (فيها) ليستقيم الوزن.

(5) جاءت في المصدر بإضافة كلمة (منك) ولا يستقيم الوزن إلا بحذفها.

(6) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص409.

ويؤكد القاضي منذر البلوطي على حقّيقة الموت، ويشبهه بالحوض الذي يرد عليه جميع الناس، فلا داعي للخوف واللهث وراء الأموال والأرزاق وهي مكتوبة ومقدرة من ا تعـالى، فيكفي الإنسان من هذه الدنيا حياة الكفاف، ولينشغل بفعل الخيرات والطاعات:

الموتُ حوض وكلنا يرد   لم ينج ممـا نخافُه أحـد

فلا تكن مغرما برزق غَدٍ   فلستَ تدري بما يجيء غد(1)

"المنسرح"

وها هو الشيب ينذر صاحبه بقدوم الموت، ولكن الإنسان يتعامى ويتغافل عنه، فيقول:

كم تصابى وقد علاك المشيب   وتعامى عمدا وأنتَ اللبيب

كيفَ تلهو وقد أتاك نذير   أن سيأتي الحمام منك قريب

والموت ليس بداية المطاف، بل تكون قبلها سكرة الموت وعذابها، فلا ينفع معها طب ولا دواء، ثم يكون بعده النشور والحساب، فالمنايا ترتقب ولا تخطئ:

يا سفيها قد حان منك رحيلٌ   بعد ذاك الرحيل يوم عصيب

إن للموتِ سكرةً فارتقبهـا   لا يداويـك إن أتتك طبيـب

بأمور المعادِ أنـتَ عليـم   فاعملن جاهدا لها يا أريـب

وتذكّر يومـا تُحاسب فيـهِ   إن من يذكر فسوفَ ينيـب

ليس من ساعةٍ من الدهر إلا   للمنايا بها عليك رقيب(2)

"الخفيف"

ونحن نجد تأثّره في القرآن واضحا، فقد استمد معانيه من آياته، وقد حفلت بالترديد، الأمر الذي يستحوذ على اهتمام السامع، ويجلب انتباهه، والألفاظ رقيقة سهلة تتناسب مع الموقف.

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج1، ص374.

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص239. المقري، نفح الطيب، ج1، ص376.

ويقول القاضي أبو بكر الزبيدي في عظة الموت والقبر:

لو لم تكن نار ولا جنّةٌ للمـرءِ إلا أنّـه يقْبـر

لكان فيهِ واعظٌ زاجر ناهٍ لمن يسمع أو يبصر[1]

"السريع"

ثالثا: العبادة والموعظة:

قال تعالى: "وما خَلَقْتُ الجِن والأنْس إلا ليعبدون"[2]، ومن هنا فإن صلة الإنسان بربـه تتمثل في العبادات، فالقاضي أبو الوليد الباجي يصور القانت الذي يصلي عز وجـلّ، ويتلـو القرآن آناء الليل وأطراف النهار باكيا من خشية ا ، فيقول:

قد أفلح القانتُ في جنْحِ الدجى يتلو الكتاب العربي النيـرا

فقائما وراكعـا وساجـدا مبتهلا مستعبرا مستغفـرا

له حنين وشهيـقٌ وبكـا يبلّ من أدمعِهِ ترب الثرى

إنّا لّسفر نبتغي نيـلَ المدى ففي السرى بغيتُنا لا في الكرى

من ينصبِ الليلَ ينلْ راحتَه عند الصباحِ يحمد القوم السرى[3]

"الرجز"

والباجي في هذه الأبيات يضعنا أمام صورة فنية تخلو من التشبيهات، كلّ ذلك بأسـلوب فني بديع وألفاظ رقيقة ناعمة وتراكيب سلسة نلتمس بها رقة الإحساس، وفيض الشعور، وصدق العاطفة، وكذلك فإنّه يوظف المثل (يحمد القوم السرى).

وللقاضي ابن عبد البر في ضرورة التمسك بالحديث، واتّباع الاثر:

---

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج2، ص81.

(2) سورة الذاريات، آية56.

(3) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104_105.

مقالةُ ذي نُصحٍ وذاتُ فوائدٍ إذا مِن ذوي الألبابِ كان استماعها

عليكم بآثـارِ النبي فإنّهـا مِن أفضل أعمال الرشاد اتّباعهـا[1]

"الطويل"

ونجد في هذين البيتين الموعظة والنصيحة، وليس فيهما من الشعر غير الوزن والقافية، فقد كانا مرتجلين، ولم يعبأ فيهما بالصنعة الأدبية، فكانا قريبين من لغة النثر.

رابعا: الانقطاع إلى ا تعالى:

يفر القاضي يونس بن الصفار إلى ا من ظلمه لنفسه ومعصيته، "وكـان يميـل إلـى التصوف في العبادة"[2]، فهو يتوب إليه، فرضاء ا تعالى غايته، فهو يلهج دائما بذكره، ويتذكر يوما يوضع في ظلمات القبر، فيقول:

فررتُ إليك مـن ظلمي لنفسـي وأوحشني العبـاد وأنـتَ أنسـي

رضاك هـو المنى وبك افتخاري وذكرك في الدجى قمري وشمسي

قصدتُ إليـك منقطعـا غريبـا لتؤنس وحدتي في قعـر رمسـي[3]

"الوافر"

فهو يفر من العباد إلى ا عز وجلّ، فهو مؤنسه في وحشته هذه، ومناه أن ينال رضـا ا فهو دائم الذكر والتسبيح حتّى أصبح هذا الذكر بمثابة القمر أو الشمس الذين ينيران دربه.

ويقول القاضي أبو بكر الزبيدي في الخضوع والانقياد إليه:

اتركِ الهم إذا ما طرقَك وكل الأمر إلى من خلقَك

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص284.

(2) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص360.

(3) الضبي، بغية الملتمس، ص447. الحميدي، جذوة المقتبس، ص613. المطمح، ص289. المقري، نفح الطيب، ج4 ، ص26.

وإذا أمل قـوم أحـدا فإلى ربك فامدد عنُقَـك[1]

"الرمل"

خامسا: التوبة:

يظهر القاضي أبو الوليد الباجي نادما على رجاء غير ا ، فهو تائب مقلع عن معصيته، ويريد أن يكفر عن ذنوبه فيقول:

تداركتُ مـن خطـئٍ نادمـا أن آرجو سوى خالقي راحمـا
فلا رفِعتْ صرعتي إن رفَعتُ يـدي إلى غيـر مولاهمـ ـا
أموت وأدعو إلى من يموت[2] بمـاذا أكفّـر هـذا بمـا!؟[3]

"المتقارب"

سادسا: الحمد والشكر:

وفي ذلك يقول القاضي أبو الوليد الباجي في حمد ا على نعمه التي لا تعد ولا تحصى:

الحمد حمد معتـرفٍ بأن نُعماه ليس نحصيهـا
وأن ما بالعبادِ من نِعـمٍ فان مولّى الأنامِ موليهـا
وأن شكري لبعضِ أنعمِهِ من خير ما نعمةٍ يواليها[4]

"المنسرح"

ويخص بالذكر من هذه النعم السمع والبصر والكلام، فبالحمد يكون نماؤها، وبالكفر يكون زوالها:

---

[1] المقري، نفح الطيب، ج4، ص333.

[2] وردت في المصدر(أموت ولا أدعو إلى من يموت)، وهذا خلل في الوزن والمعنى.

[3] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص374.

[4] ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104.

الحمـد ذي الآلاءِ والنعـمِ	ومبدع السمع والأبصار والكَلِمِ
من يحمدِ ا يأتيه المزيد ومن	يكفر فكم نِعمٍ آلـتْ إلى نِقَـمِ[1]

"البسيط"

سابعا: التضرع والدعاء:

ويترك لنا القاضي أبو الوليد الفرضي مقطوعة في التضرع والتذلل إلى ا عز وجـلّ، فهو يخاف من ذنوبه التي تحصى له يوم القيامة في صحيفته، كما توحشه ظلمة القبـر بعـد أن يتركه الأقارب والأصحاب، فيرجو ا الرحمة والمغفرة، فيقول:

أسير الخَطايا عند بابك واقفٌ	على وجل مما به أنتَ عارفُ
يخافُ ذنوبا لم يغب عنك غيبهـا	ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائـفُ
ومن ذا الذي يرجو سواك ويتقي	وما لك في فصل القضاءِ مخالفُ
فيا سيدي لا تُخْزني في صحيفتي	إذا نُشرتْ يوم الحساب الصحائفُ
وكن مؤنسي في ظلمةِ القبر عندما	يصد ذوو القربى ويجفو المؤالفُ
لئن ضاقَ عني عفوك الواسع الذي	أُرجي لإسرافي فإنّـي لتالـفُ[2]

"الطويل"

ولم يكن هؤلاء القضاة هم أول من طرق تلك المعاني، بل سبقهم إليها المشارقة، حيـث اتّخذوا من الموت قارعا ومنبها، وركّزوا على الاعتراف بالذنب وطلب التوبة والغفران من ا عز وجلّ، وهونوا من قدر الدنيا، ودعوا إلى مخاصمتها وتجاهلها، وأكثروا من قـول الحكمـة، وضمنوا أشعارهم آيات من القرآن الكريم[3].

---

(1) المصدر نفسه، مج1، قسم2، ص104.

(2) المقري، نفح الطيب، ج2، ص129. ابن بشكوال، الصلة، قسم2، ص253. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص105.

(3) الشكعة. الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص223-224.

وهكذا فإنّنا نجد في أشعار القضاة كما كبيرا من شعر الزهد، وتمثل نموذجا حيـا لهـذا الغرض الذي تعددت أشكاله وصوره، وجاء كثير من معانيه متأثرة بالقرآن الكريم وتعاليم الدين الحنيف، فلمسنا في جميعها صدق الشعور، وحرارة الإيمان، وكانت الألفاظ بسيطة سهلة تقترب من لغة الحياة، والتراكيب سلسة خالية في معظمها من الصور والتشبيهات والمحسنات اللفظيـة، كما جاء معظمها على شكل مقطوعات قصيرة، وبهذا يتبين لنا أنهم كانوا غير متكلفين لها، بـل كانت تقال في الحياة اليومية، مستشعرين أهميتها في معاملاتهم وقضائهم، كمـا يـنعكس أثـر القضاء جليا في شعر الزهد، فلقد كان يشترط في القضاة أن يكونوا من أهل الزهـد والتقـوى والصلاح.

الإخوانيات والمراسلات

وهي ظاهرة انتشرت في عصر ملوك الطوائف، ويمتاز أسلوبها بالسهولة، والبعد عـن التكلف العاطفي، وسهولة عباراتها، وبعدها عن المبالغة والتزلّف، وقد اشتركت جميع الطبقـات داخل المجتمع الأندلسي في نظم هذا الغرض، فدارت حول علاقات الأصدقاء بعضهم ببعض في مختلف شؤون الحياة من عيادة وتهنئة وشوق وعتاب وهجاء، وقد دخلت في مجـالس الأنـس والطرب ومجالس الأدب وندوات الشراب[1].

وكان للقضاة مشاركة واضحة في هذا المجال، وعلى الرغم من أن أكثر ما حررت فيه الرسائل الشعرية هي الدعوة لمجالس الأنس، وعقد مجالس اللهو والشراب، إلا إنّنا لا نجد شـيئا من ذلك في مراسلات القضاة، بل كانت تتمثل في العلم والصداقة والقـضاء والفكاهـة، فكتـب القاضي منذر بن سعيد البلوطي إلى أبي علي البغدادي يستعير منه كتابا في الغريب:

بحقّ ريمٍ مهفهفْ　　　وصدغِهِ المتعطفْ

ابعثْ إلي بجـزءٍ　　　من الغريبِ المصنّفْ[2]

"مجزوء المجتث"

ونلاحظ في هذه المقطوعة سهولة الألفاظ والعبارات، وبعدها عن التنمق والتزلّف، فقد خلت من عبارات التكلّف والمجاملة. وكان للقضاة حظّ في مجال النقد الفني، كقول القاضي ابن عباد يعارض أبا الأصبع بن عبد العزيز[3]، وينقد عليه شيئا من التشبيه:

أبلـغْ شقيقـي عنّـي　　　مقالـــةً لتمضـــه

بأن وصـفَ الأقاحي　　　آلذي وصفتَ لم أرضه

(1) ينظر: شلبي. البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص476-477. الشنّاوي، علي الغريب محمد. القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة "دراسة فنية"، ط1، ص57. مكتبة الآداب، القاهرة:2003م.

(2) المقري، نفح الطيب، مج2، ص20. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص184.

(3) هو الوزير أبو الغصبع بن عبد العزيز، أديب وشاعر، ينظر ترجمته في:

الضبي، بغية الملتمس، ص451. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم2، ص620.

هلا وصفـتَ الأقاحي	بأكـؤسٍ مـن فضـه
أو النجـومِ تساقـطْ	ن في المها المبيضه[1]

"مجزوء المجتث"

وعلى الرغم من اتّجاه هذه المقطوعة النقدي إلا أنّها تحمل نوعا من الدعابة، وتخلو من السخط والهجاء سوى ما كان في كلمة (تمضه) التي نلمس فيها نوعا من التودد واللين فقد دعـا أبا الإصبع بالشقيق، وجاءت الألفاظ سهلة قريبة من لغة العامة.

وهناك فرع من المراسلات يسمى المطارحات، "ولا تسمى مطارحة إلا عندما يرد على شعره بشعر مثله يتّفق معه وزنا وقافية، وقد عرف المشارقة هذا اللون من المراسلات، ولكـن الأندلسيين توسعوا فيه"[2]، وفي ذلك كتب الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان المـصحفي إلـى القاضي الزبيدي كتابا فيه "فاضت نفسه" بالضاد، فجاوبه الزبيدي بمنظوم بين له فيه الخطأ دون تصريح، فقال:

قـلْ للوزيـر السنِـي محتِـده	لي ذمةٌ منك أنـتَ حافظُهـا
عنايـةٌ بالعلـومِ مفْخـرةٌ	قد بهـظَ الأوليـن باهظُهـا
يقِر لي عمرهـا ومعمرهـا	فيهـا ونظامهـا وجاحظُهـا
قد كان حقًّا قبـولُ حرمتِهـا	لكن صرفَ الزمان لافظُهـا
وفي خُطوبِ الزمان لي عِظَةٌ	لو كان يثني النفوس واعظُها
إن لم تُحافظْ عصابةٌ نُسِبـتْ	إليك قِدما فمـن يحافظُهـا
لا تَدعـَن حاجتي بمطْرحـةٍ	فإن نفسي قد فاظَ فائظُهـا[3]

"المنسرح"

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ج1، قسم2، ص205.

(2) شلبي. البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص486.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص86-87. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص182. المراكشي، المعجب، ص63. المقري، نفح الطيب، ج4، ص6.

فأجابه المصحفي طالبا منه أن يبين الشاهد على ذلك:

خفض فِواقا فأنـت أوحدهـا	علمـا ونقّابهـا وحافظُهـ ـا
كيفَ تَضِيع العلـوم في بلـدٍ	أبنـاؤه كلهـم يحافظُهـ ـ ـا
ألفاظُهـم كلهـ ـا معطّلـ ـةٌ	ما لم يعـولْ عليـك لافظُهـا
من ذا يساويك إن نطقتَ وقد	أقر بالعجز عنـك جاحظُهـا
علْم ثنى العالمين عنك كمـا	ثَنى عن الشمس من يلاحظُها
وقـد أتتني وُدِيـتَ شاغلـةٌ	للنفس أن قلـتُ فاظَ فائظُهـا
فأوضِحنْهـا تَفُـز بنـادرةٍ	قد بهـظَ الأوليـن باهظُهـا[1]

"المنسرح"

فأجابه الزبيدي، وضمن شعره الشاهد على ذلك:

أتانـي كتـاب مـ ـن كريـمٍ مكّـ ـرمٍ	فَنَفـس عـن نَفْـس تكـاد تَفيـ ـظُ
فسـ ـر جميـ ـع الأوليـ ـاء وروده	وسيء رجـالٌ آخـرون وغِيظـوا
لقد حفِـظَ العهـد الذي قـد أضاعـه	لَـدي سـواه والكريـ ـم حفيـ ـظُ
وباحثتَ عـن "فاظَـتْ" وقبلـي قالهـا	رجالٌ لديهـم في العلـومِ حظـوظُ
روى ذاك عن "كيسان" "سهلٌ" وأنشدوا[2]	مقـالَ أبي الغَيـاظِ وهـو مغِيـظُ
"وسميـتُ غَياظـا ولسـتُ بغائـ ـظٍ	عـدوا ولكـن للصديـ ـق تَغِيـظُ"
"فلا حفِـظَ الرحمـن روحـك حيـةً	ولا هي في الأرواحِ حيـن تَفِيـظُ"[3]

"الطويل"

---

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص87. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص182. المراكشي، عبد الواحد. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص6. المقري، نفح الطيب، ج4، ص6.

(2) كيسان: هو أبن المعرف أبو سليمان الهجيمي النحوي. سهل: هو أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد، العالم اللغوي الشاعر، توفي عام248هـ، ينظر: السيوطي. بغية الوعاة، ص265-267.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص87-88. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص183. المراكشي، المعجب، ص64. المقري، نفح الطيب، ج4، ص6.

والصحيح أن كلتا اللفظتين واردة، فرويت "فاظت نفـسه" بالظـاء، و"فاضـت نفـسه" بالضاد[1]، ونحن في هذه المطارحة نجد الألفاظ والتراكيب غير ما كانت عليه في المراسـلات السابقة، فقد جاءت صعبة، وذلك لطبيعة الغرض الذي نظمت من أجله، فقد كان الخلاف لغويـا دلاليا انعكس على ألفاظ هذه المطارحة وتراكيبها، ولا نجد فيها خروجـا عـن الأدب وحـسن الخطاب، فيحفظ عليه لقبه ومنزلته ويدعوه بالوزير والكريم المكرم من غير تكلّف أو مجاملـة، وإذا قارنا بين المنظومتين الأولّى والثانية فإنّنا نرى التزاما بسمات المطارحـة فيحـافظ علـى الوزن، فقد بنى القاضي الزبيدي منظومته على البحر المنسرح، وكذلك التزم الـوزير بـالبحر نفسه، كما حافظ على القافية ممثّلة بحرف الروي وهو الظاء، إضافة إلى ذلك فإنّنا نجد القاضي والوزير يحافظان علىعدد الأبيات نفسه وهو سبعة، كما نجد توافقا في المنظومات الثلاثة مـن حيث عدد الأبيات وحرف الروي.

ومن مراسلاتهم في أمور القضاء وتوابعه، أن استبطأ الوزير أبو زيد بن خدير القاضي محمد بن السليم بإنفاذ تسجيل له، فكتب إليه بشعر يستعتبه فيه، فقال:

إذا لم يكن منـك الجميـلُ فإنني ... رضيتُ بإن أعتاض حسن التنصل

لأجعلَ دون الصبر للوصل عقلّه ... عسى وطنـا يبقى لنـا بالتجمـل[2]

"الطويل"

فأجابه القاضي بقوله: (الطويل)

أتاني قريض كالجمـان المفصـل ... بديـع معانيـه لطيـفُ التوصل

حباني بـهِ نـدب كريـم معظـم ... بأسلابـهِ مـن ماجـ ـدٍ متفضل

خلا أن فيهِ بعض عتْبٍ لشخصه ... بـلام لتقصيـرٍ وليس بمؤتَـل

وما عاقَ عن إنفاذ ما قد رغبتـه ... سوى خطأ في العقل غير محصل

---

(1) يراجع لسان العرب، مادة (فيض).

(2) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص544.

وغاب الا ـ ذان أخطآ في نظام ـ ـهِ فلم يكتم ـ ـلْ منـ ـه مـ ـراد مؤم ـ ل

وإنّي وقد طالَ انتظاري علاج ـ ـه فأكملتُ ما قد كان غيـ ـر مكم ـ ل[1]

"الطويل"

ونجد التراكيب محكمة السبك والألفاظ جزلة متينة تخلو من الغرابة والتعقيد، وقد التـ ـزم القاضي بالبحر العروضي وهو الطويل، وحرف الروي وهو اللام، ولم يلتزم بعدد الأبيات.

وكتب بعض الأدباء متفكها إلى القاضي منذر بن سعيد بقوله:

مسألةٌ جئتـ ـك مستفتيـ ـا عنها وأنتَ العالم المستشار

علام تحمر وجوه الظبا وأوجه العشاق فيها اصفرار[2]

"السريع"

فأجابه:

احمر وجه الظبي[3] إذْ لحظُه سيفٌ على العشاق فيهِ احورار

واصفر وجه الصب لما نأى والشمس تبقى للمغيبِ اصفرار[4]

"السريع"

ويدخل هذا في باب الشعر التعليمي، كما أنّه قريب من الألغاز والأحاجي، فهو ضـ ـرب من الرياضة العقلية، والترف الثقافي، فيخلو من العاطفة، فقد كان يهدف إلى قتل الفراغ وإظهار البراعة واختبار الذكاء[5]، ونرى فيها الألفاظ السهلة الخفيفة الرشيقة، والتراكيب البسيطة البعيدة عن التعقيد، ويلتزم الشاعر بالبحر السريع، وحرف الروي الراء، وعدد الأبيات وهو اثنان.

---

(1) المصدر نفسه، ج3-4، ص545.

(2) المقري، نفح الطيب، مج2، ص20.

(3) وردت في المصدر بلفظ (الظبا)، وبها لا يستقيم الوزن.

(4) المقري، نفح الطيب، مج2ص20.

(5) شلبي. البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص487.

ومما جاء لهم في الهدية والتودد أن أهدى القاضي أبو بكر يحيى بن عبد الـ رحمن بـ ن وافد اليحصبي إلى القاضي الزبيدي طبق ورد، وكتب معه:

أهديتُ شَبهك منظرا	في العالميـ ن ومخبـ را
فتَقَبلْـ ن بـ در الذي	يرجو رضاك وذا حرا[1]

"مجزوء الكامل"

فأجابه الزبيدي:

قد أتانـ ا منـ ك ما جـ ا	نَس أخلاقـ ك فوحـ ا
طبق الورد الذي أهدى	إلى الأرواح روحـ ا
فأنـ ا دهـ ري عليـ ه	أعتني بالشكر مدحـ ا
لم تزل في العلم يا يحـ	يى على الأدواح دوحا[2]

"مجزوء الرمل"

ونحس في هذه الأبيات بصدق العاطفة، فقد جاءت الألفاظ سهلة والتراكيب بسيطة، ولئن جامل القاضي الزبيدي القاضي يحيى إلا إنّنا لا نجد في ذلك التكلّف والتصنّع، فكان بعيدا عـ ن الغلو والتزلّف، ويجدر بالذكر أن الزبيدي لم يلتزم بشيء مما اشترط في المطارحات من حيـ ث الوزن والقافية والعدد.

ومن هنا فإنّنا نجد تنوعا في مراسلات القضاة الشعرية فكانت في الإعارة والنقد والعتاب والألغاز والقضاء، وامتازت بسهولة الألفاظ وسلاسة الجمل والتراكيب فأوحت بالصدق والعفوية والطبع، وابتعدت عن التكلّف والتصنّع والغلو في المجاملات، كما حافظت المطارحـ ات علـ ى خصائصها الفنية فالتزمت بالبحر والقافية وعدد الأبيات.

(1) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص668.

(2) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص668.

وقد تذاكر القاضي أبو عمر أحمد بن يحيى بن سحيق مع آخر آداب عيادة المرضـى، وتناشدا قول الناظم[(1)] في ذلك:

حكْم العيادةِ يوم بين يومين | واقعد قليلا كمثل اللحظِ في العين
لا تَبرمن عليلا في مسائِلِهِ | يكفيك من ذاك: تسأله بحرفين[(2)]

"البسيط"

وأنشد القاضي معارضا لهذا الشعر:

إذا لَقيتَ عليـلا | فاقعد لديهِ قليـلا
ولا تُطولْ عليهِ | وقلْ مقالا جميلا
وقم بفضلِك عنه | تكن حكيما نبيلا[(3)]

"مجزوء المجتث"

ولا نجد المعارضة هنا بمعناها المعروف الذي تلتزم بحر القصيدة المعارضة وقافيتها، بل هو نوع من الإجازات دون التزام أي شيء غير الموضوع نفسه، وقد جاءت الألفاظ والتراكيب سهلة بسيطة تقترب من اللغة المحكية ولغة العوام. وقال أحدهم في فضل الكتاب:

وألذ[4] ما طلب الفتى بعد التقى | علْـم هنـاك يزينُـه طَلَبـه
ولكل طالـبِ لـذةٍ متنَـزه | وألـذ نُزهـةِ عالـمٍ كُتُبـه[(5)]

"الكامل"

وزاد القاضي فيها بحضرته فقال:

---

(1) البيتان لجعفر بن حذار الكاتب، فقد وردا في: ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص243.

(2) ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص58.

(3) المصدر نفسه، قسم1، ص58.

(4) وردت في المصدر دون واو، والوزن لا يستقيم إلا بها.

(5) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص512.

يسلي الكتاب هموم قارئهِ ويبين عنه إن قرا نَصبـه

نِعم الجليس إذا خَلوتَ بِهِ لا مكره يخشى ولا شَغَبه[1]

"الكامل"

ونرى هنا التزامه بالبحر والقافية والموضوع، وبهذا فإنّنا نجد معارضات القضاة على شكل مقطوعات، تلتزم حينا بخصائصها التقليدية، وتخرج حينا آخر عنها، ولم تكن موضوعاتها بعيدة عما عرف عن القضاة من العلم وحسن السيرة والأخلاق.

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله ، ص512.

الأخلاق

لعلّ شعر الآداب والأخلاق الإسلامية من أبرز ما تميزت به أشعار القضاة، وعلى حين نجد هذا الموضوع ضمنا في الأغراض الأخرى، ولا سيما غرض الزهد الذي يرفع لواء الدعوة إلى مكارم الأخلاق، إلا إنّنا نجد القضاة يستقلّون به، فلقد كان لهم دور بارز في هذه الدعوة، يظهر هذا في مؤلفاتهم ككتابي القاضي ابن عبد البر: (جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله) و(بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذاهن والهاجس).

وقد وقف ابن زرب القاضي يوما بالقاضي أبي بكر الزبيدي، فلما علم به خرج إليه مكشوف الرأس، وبيده مدية، فلما كان في بيته سارع لقضاء حقّه، فوقف قائما وقضى حقّه، فأنكر ابن زرب خروجه على تلك الهيئة، وسأله الجلوس، فأبى وأنشد:

أقوم ومـا بي أن أقوم مذلّـةً   علي وإنّي للكـرامِ مبجـلُ

على أن لي منها لغيري مجنّةً   ولكنّها بيني وبينـك تجمـلُ(1)

"الطويل"

وهذا يدلّ على مدى تواضع القضاة، وإكرامهم للضيف، وللقاضي الزبيدي أيضا في البر والتسامح قوله:

أقابلُ بالرفْقِ عنْفَ العنيفِ   وأقنع من صاحبي بالطفيفِ

ويكرمني بر غير الشريفِ   فأنسخُ ذاكِ ببر الشريفِ(2)

"المتقارب"

فهو يقابل الإساءة بالرفق، ولا يعامل بالمثل، كما أنه يبر الشريف فيكرم به. وللقاضي أبي الوليد يونس بن الصفّار في معنى الصبر:

---

(1) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص583.

(2) المصدر نفسه، ج3-4، ص583.

أدافع أيامي بقصدٍ وبلْغَـةٍ وألزم نفسي الصبر عند الشدائِدِ

وأعلم أنّي في مكابدةِ البلا بعين الذي يرجوه كل مكابـدِ[1]

" الطويل"

ويقول في المسارعة إلى فعل الخيرات:

سارع إلى الخير وبادر بهِ فإن من خلفك ما تعلـم

لا تسأمِ الكد وطولَ السرى فطالب الفردوس لا يسلم[2]

"السريع"

وبهذا فإن القضاة لم يكتفوا بإصلاح أنفسهم، بل أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ودعوا إلى محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال، وقد امتازت أشعارهم بسهولة الألفاظ ويسر الجمل والتراكيب، ولئن كنا نلحظ فيها بعض التفنن والتنميق إلا أنّه كان من غير غلو أو إسراف.

(1) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص740.

(2) المصدر نفسه، ج3-4، ص740.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر قضاة الأندلس

- البناء اللغوي
- بناء الصورة الفنية
- البناء الموسيقي

البناء اللغوي

- تأثير الحضارة.
- السهولة والبعد عن التكلّف.
- البساطة والشعبية والاقتراب من لغة العامة.
- اقتراب أسلوب الشعر من النثر.
- الطباق.
- الترادف.
- الجمل الخبرية والإنشائية.
- التأثر بالتراث الإسلامي.

مقدمه:

تطور أسلوب حياة الأندلسيين، وتطورت حياتهم الاجتماعية، وعاشوا في بيئة حضارية تعددت بها الأديان والجنسيات واللغات، فكان طبيعيا أن تتأثر لغتهم بهذه البيئة الجديدة، فتخلصت من الغموض والتعقيد، وتغير إحساس الشعراء بالألفاظ بتطور ذوق العصر، فتخلصوا ما أمكـن من الوقوع تحت تأثير المعجم اللغوي القديم، وأخذوا يعبرون عما في نفوسهم بلغة بسيطة سهلة لا توعر فيها ولا إغراب، وما كان قضاة الأندلس بخارجين عن سمت شعراء الأندلس وأساليبهم سوى ما كان لهم من معجم لغوي خاص ظهر فيه أثر مهنة القضاء جليا واضحا، وسنتناول في هذا المبحث دراسة اللغة والأسلوب من عدة جوانب، أهمها:

تأثير الحضارة

شاعت في الأندلس بعض المفردات والتراكيب التي كانت وليدة الحضارة الأندلسية، مثل (سيدي)، فيقول القاضي أبو الوليد عبد ا بن الفرضي مخاطبا بها ا عز وجلّ، فيتضرع إليه ويرجوه :

فيا سيدي لا تُخْزني في صحيفتي إذا نُشرتْ يوم الحسابِ الصحائف[1]

"الطويل"

ويقول القاضي محمد بن السليم مخاطبا الحكم المستنصر:

أو كان ملّكني الرحمن من أَجلِي شيئا وصلتُ بِهِ يا سيدي أجلَك[2]

"البسيط"

كما نجد شيوع بعض الصفات والألقاب العلمية مثل (الشهاب، وعلم الهدى، والأوحـد)، وفي ذلك يقول أبو الوليد الباجي:

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج2، ص129. ابن بشكوال، الصلة، قسم2، ص253. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص105.

(2) المقري، نفح الطيب، مج3، ص466.

هذا الشهاب المستضاء بنورِهِ   علَمُ الهدى هذا الشهاب الأوحد[1]

"الكامل"

وظهرت أيضا كلمات جديدة نتيجة تنظيم الجيوش وتحديثها، مثل (عسكر، ومـستوطن)، فالقاضي أبو عبد ا بن أبي عيسى يقول في رفيقين له من البرابرة يسميان عجنوس ويعقـوب، أرسلهما معه بعض أمراء العلويين بالعدوة:

تضمـن عسكرنـا إبــرةً   نقيضيـن في قبـةٍ واحـدهْ

فقد بر يعقوب بـه بحـرةً   إذا شـط قسورةٌ لابِـدهْ

وعنجوس مستوطن لا يريم   كما أرستِ الجعصة الخالدهْ[2]

"المتقارب"

ومن مظاهر الحضارة الأندلسية الحمامات العامة، يقول القاضي أبو الحسن الرعيني:

ألا لُعِن الحمام دارا فإنّه   سواء بهِ ذو العلمِ والجهل في القَدر[3]

"الطويل"

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص100.

(2) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص410.

(3) المقري، نفح الطيب، ج3، ص405.

السهولة والبعد عن التكلف

ولعلّ هاتين السمتين من أبرز خصائص الشعر الأندلسي، ونحن أمام أشعار القضاة نكاد لا نجد قصيدة تخلو منهما، فالقاضي أبو الوليد الباجي يعبر عن قصر الحياة، ويدعو إلى الصلاح والطاعة بأسلوب سهل بعيد عن الصنعة والتكلف، فيقول:

إذا كنتُ أعلم علما يقينا　　　بأن جميع حياتي كساعـةْ

فلم لا أكون ضنينا بها　　　وأجعلها في صلاحٍ وطاعةْ(1)

"المتقارب"

فجاءت الألفاظ سهلة، والتراكيب سلسة بسيطة، كما أن استخدامه للقافية الموصولة بالهاء الساكنة عكس سهولة أخرى، فهي تسمى عند النحاة بهاء السكت. ويقول القاضي ابن عبد البـر في الكتاب:

يسلي الكتاب هموم قارئهِ　　　ويبين عنه إن قَرا نَصبه

نِعم الجليس إذا خَلَوتَ بِهِ　　　لا مكره يخشى ولا شَغَبه(2)

"الكامل"

ولا يخفى على الدارس ما فيها من يسر وسهولة، فقد تحرر من الهمز كما كانت تفعـل قريش ميلا إلى السهولة، واستجابة لعوامل التمدن والحضارة. كما تظهر الـسهولة فـي قـول القاضي منذر بن سعيد البلوطي:

يا باني الزهراءِ مستغرقا　　　أوقاتَه فيهـا أما تَمهـلْ

---

(1) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص95. الضبي، بغية الملتمس، ص262. المقري، النفح، مج2، ص74. ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص98. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص120. الكتبي، فوات الوفيات، مج3ص65. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص374. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص807. الحميري، الروض المعطار، ص75. ابن خاقان، الفتح. قلائد العقيان، ص189.

(2) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص512.

ما أحسنَهـا رونقـا لو لم تكن زهرتُها تذبلُ[1]

"السريع"

فالألفاظ سهلة والمعاني واضحة وبسيطة بعيدة عن التكلّف والتعقيد، ونلاحظ كذلك حذفه إحدى التائين في كلمة (تتمهل) تجنّبا للصعوبة وإنشادا لليسر والراحة.

(1) المقري، نفح الطيب، مج1، ص576.

البساطة والشعبية والاقتراب من لغة العامة

لقد اتسم الشعر الأندلسي منذ عصر الإمارة بسهولة ألفاظه ووضوحها، ورشاقة أسلوبها بعدما تأقلموا في البيئة الجديدة وتفاعلوا معها[1]، ولعلّ تعدد اللغات والجنـسيات والأديـان فـي المجتمع الأندلسي ساعد على بروز مثل هذه السمة، فهناك منافسة بين هذه الجنسيات والأديـان، وكلّ فئة تحاول أن تنشر لغتها، فهناك العربية والبربرية واللاطينية، إضافة إلى طبيعـة مجلـس القضاء الذي يحضره العربي والأعجمي، والعالم والأمي، وطبقات الشعب المختلفة، كـلّ هـذا جعل لغة بعض القضاة تتسم بالبساطة والشعبية، لتصل إلى الجميع وتؤثر في مختلف الجنسيات والأديان، ومن هذا قول القاضي ابن أبي عيسى يصف غربته وأشواقه:

ذكّرنه الزمـن الماضي بقرطبـةٍ ... بيـن الأحبـةِ في أمـنٍ وإينـاسِ

ومن بحارٍ إذا هالـتْ بصاحبهـا ... أهدتْ له الخوفَ محمولا على الراس[2]

"البسيط"

فنلمس في عبارة (أهدتْ له الخوفَ محمولا على الراس) الطابع الـشعبي، فقـد جـاء القاضي بتراكيب مستوحاة من الحياة الشعبية، وحافظ على الألفاظ وأصوات حروفها، فجـاءت كلمة (الراس) غير مهموزة، فالحضارة تنفر من الهمز، لأنّه من أصعب الأصوات نطقا، فهـي صوت حنجري من أقصى الحلق يمتاز بالانفجار ولا يوصف بالجهر أو الهمس.

وقول القاضي منذر بن سعيد فيمن يحمل الكتب ولا يتدبرها:

انْعقْ بما شئتَ تَجِد أنصـارا ... ورم أسفـارا تجـد حمـارا

يحملُ ما وضعتَ من أسفـار ... فَمِثْلُـه[3] كمثـل الحِمـار

يحمل أسفارا له ومـا درى ... إن كان ما فيها صوابا أو خطا

---

(1) شلبي. الأصول الفنية للشعر الأندلسي "عصر الإمارة"، ص298.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، ص126.

(3) وردت في المصدر دون فاء، وبدونها لا يستقيم الوزن.

إن سئِلوا قالوا كـذا روينـا   مـا إن كذبنـا ولا اعتدينـا

كبيرهم يصغر عند الحفل   لأنّـه قلّـد أهـلَ الجهـل[1]

"الرجز"

فالرجز بحر شعبي يتلاعب ناظمه بصياغة التراكيب وتشكيل الألفاظ بما يخدم الـوزن، (حمارا، كمثل الحِمار، درى، خطا، روينا، اعتدينا).

ويقول القاضي الزبيدي في ذم أهل زمانه:

أشْعِرن قلبك ياسا   ليس هذا الناس ناسا

ذهب الإبريز منهم   فبقُوا بعد نحاسـا[2]

"مجزرء الرمل"

ويقول القاضي أبو عمر أحمد بن يحيى في عيادة المريض:

إذا لَقيتَ عليلا   فاقعد لديهِ قليـلا

ولا تُطولْ عليهِ   وقلْ مقالا جميلا[3]

"مجزوء المجتث"

فنلاحظ التراكيب الشعبية (ياسا، ليس هذا الناس ناسا، فبقُوا بعد نحاسا، لا تُطولْ عليهِ)، مما يدل على انخراط القضاة في الحياة الشعبية، كما أن بعدهم عن أرض العروبـة ومـصادر اللغة أدى إلى استخدام هذه التراكيب، إضافة إلى الحضارة.

---

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص413.

(2) المقري، نفح الطيب، ج3، ص475. ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص673.

(3) ابن بشكوال،الصلة، قسم1، ص58.

اقتراب أسلوب الشعر من النثر

هناك مجموعة من الأشعار التي وقفنا عليها، لا يميز بينها وبين الشعر إلا الوزن والقافية، ولهذا كانت قريبة من لغة النثر، ولدينا عدة شواهد تؤكد على هذه الظاهرة، فيقول القاضي منذر بن سعيد في الاستعداد للآخرة والحثّ على عمل الخيرات:

فلو كنتَ تعقلُ ما ينقضي ... من العمر لاعتَضتَ خيرا بِشَر

فما لك لا تستعد إذاً ... لدار المقَامِ ودار المقر

أترغب عن فجأةِ للمنون ... وتعلم أن ليس منها مفرْ[1]

"المتقارب"

فالأبيات تخلو من الصورة الفنية والمحسنات البديعية، غير أنها تظهر فيها الصنعة والتكلّف، كما جاءت أبياتها مسندة إلى بعضها بعضا.

ويقول القاضي محمد بن بشير في الحث على وعي العلوم:

أما لو أعي كل ما أسمع ... وأحفظُ مِن ذاك ما أجمع

ولم أستفد غير ما قد جمعتُ ... لقيلَ هو العالم المقنع

ولكن نفسي إلى كل فن ... مِن العلْمِ تسمعه تنزع

فلا أناْ أحفظُ ما قد جمعتُ ... ولا أناْ من جمعِهِ أشبع[2]

"المتقارب"

فالأبيات قريبة من أسلوب النثر، فعباراتها طويلة أشبه ما تكون بعبارات النثر لا بعبارات الشعر القصيرة، كما أن عطف الأبيات على بعضها البعض أضعف من شاعريتها، إضافة إلى خلوها من الصورة الفنية، والإحساس بالعاطفة والخيال.

---

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص249.

(2) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص86.

وقول أبي الوليد يونس بن الصفّار في النوم:

النوم من مرسلِهِ رحمةُ — وراحـةٌ للبـدن المتعـبِ

فخُذْ من النومِ بحظ فإن — قضيتَ منه وطَرا فانْصبِ [1]

"السريع"

فالأسلوب تلقيني لا ينسجم مع الحس الشعري، كما لا نجد فيها الصورة الفنية والعاطفـة الشعرية.

وتعود أسباب هذه الظاهرة إلى أن أكثر هؤلاء القضاة كانوا علماء لهم مصنّفات نثريـة ضخمة، فكانوا أكثر اعتيادا على أسلوب النثر، فالقاضي منذر البلوطي عرف بالخطابة النثريـة أكثر مما عرف بالشعر، وللقاضي ابن عبد البر والزبيدي مؤلّفات نثرية كثيرة ، كما أن طبيعـة القضاء تقوم على العقل والفكر والمنطق، وهذا ما يتناقض مع الشعر الذي يعتمد على العاطفـة والانفعال والخيال، ولربما كان للوازع الديني عندهم عامل مهم من عوامل عدم الاهتمام بـالفن الشعري والانشغال عنه بأمور الدين والقضاء.

(1) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص741.

الطباق[1]

يعرف الطباق على أنّه الجمع بين الضدين، أو المعنيين المتقابلين في الجملة، وهما إمـا اسمان، أو فعلان، أو حرفان، وإما نوعان مختلفان، فإن اختلف الضدان إيجابا وسلبا كان طبـاق سلب، وإن لم يختلفا إيجابا وسلبا كان طباق إيجاب[2]، ولا نستطيع أن نميز الـشيء بالـصورة اللائقة إلا إذا جئنا بضده، فبضدها تتمايز الأشياء، فنجد الطباق مستخدما بكثـرة فـي أشـعار القضاة، فلا تكاد قصيدة أو مقطوعة تخلو منه، فالطباق يعد من الوسائل الفنية الخصبة التي تقيم علاقات جديدة بين مفردات اللغة، وتولد عنها نوع من المباغتة للمتلقي، فيحقّق بذلك نوعا مـن التوازن الضروري للبقاء[3]، وكثيرا ما يلجأ الشاعر إلى التّضاد بوصفه نشاطا لا شعوريا يعكس به واقعه ونفسيته المضطربة القلقة، فيعبر عن عالم الثنائيات والمتناقضات الذي يعيشه الشاعر، ومن الأمثلة على ذلك قول القاضي منذر بن سعيد مخاطبا الناصر:

فعشْ سالمـا أقصى حيـاةِ معمرٍ ... فأنتَ غِياثُ كـل حـافٍ وناعِـل

ستملكُها ما بين شـرقٍ ومغـربٍ ... إلى دربِ قُسطَنْطين أو أرضِ بابل[4]

"الطويل"

فهو يستخدم طباق الإيجاب في (حاف، ناعل)، و(شرق،مغرب)، وبـذلك يـزاوج بـين المعاني المتنافرة ويوحد واقع شقي الطباق: حقّيره وشريفه، وبدايته ونهايته، وهو بذلك يـستخدم فن الطباق للدلالة على الشمولية، فيتحرك في المعاني من أدناها إلى أقصاها، وهذا يتناسب مـع

---

(1) : "هو الجمع بين الشيء ومقابله، أو الشيء وضده، وقد يكون الشيئان المجموع بينهما اسمين أو فعلين أو حرفين" عباس، فضل حسن. البلاغة فنونها وأفنانها "علم البيان والبديع"، ط3، ص275. دار الفرقان:1419هـ- 1998م. ينظر: الطيب، عبد ا . المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج2، ص664-677. ط2، الدار السودانية، الخرطوم: 1970م.

(2) وهبة، مجدي، وكامل المهندس. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، باب الطاء، ص232. ط2، مكتبة لبنان، بيروت: 1984م.

(3) مصطفى، محمود راشد يوسف: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث، ص91. (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة النجاح الوطنية. نابلس. فلسطين 1425هـ_2004م.

(4) المقري، نفح الطيب، ج1، ص373. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص185. المراكشي، المعجب، ص56. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص296.

الجو العام لهذه الأشعار، فالقاضي يخاطب الأمير الناصر، فهو يغيث جميع الناس، كما أن ملكه سيبلغ كلّ الأرض. ويقول القاضي ابن عبد البر في طلب العلم:

يا من يرى فضل[1] جمعِ المال والكتبِ   خُدعتَ وا   ليس الجـد كاللعـبِ [2]

"البسيط"

وكما قيل: بضدها تتمايز الأشياء، لقد وظّف القاضي الطباق توظيفا آخر، فجاء به مـن أجل تقوية الفكرة والمعنى، وجعلها أكثر توكيدا ووضوحا ودلالة، فقد زاوج بين الجد واللعـب، فليس جمع المال والكتب إلا وسيلة من وسائل اللهو والمتعة، فأراد أن يجعل القـارئ يستـشعر مقدار هذا المعنى ، فجاء بنقيضه (الجد) من أجل إظهاره أكثر ضعفا وسوءا. ويقول ابـن أبـي عيسى عندما آب من غربته:

كأن لم يكن بين ولم تك فُرقـةٌ   إذا كان من بعدِ الفِـراق تلاقِ[3]

"الطويل"

فالفراق الذي هو وليد الغربة والرحلات ضد التلاقي الذي يكون بعودة القاضي إلى أهله ووطنه، هذه الحالة تضع قاضينا أمام مفصل معيشي، يتمثّل شقّه الأول في فراقه عن أهله، وشقّه الثـاني في لقائه بهم، فقد عاش النقيضين، وأراد أن يعبر عن هذا الاضطراب، فجاء بالتضاد التجاوري الالتصاقي، وهو تتابع لفظتي الطباق دون فاصل بينهما[4]، وهذا الالتصاق بين لفظتـي الطبـاق يعكس حداثة تلاقي القاضي بأهله ورجوعه إلى وطنه، وقرب عهده من فراقه لهم، فأعطى صفة الآنية للحدث، كما أعطى دلالة معنوية تشير إلى سرعة انقضاء عهد الفراق وانتهائه، فقد مرت أيامه بسرعة، فهو لا يشعر به بعد أن عاد إلى وطنه، وفي موقف الشوق والحنين نـراه علـى العكس من ذلك، فهو يستخدم الطباق التباعدي، فيقول:

---

(1) لم ترد هذه الكلمة في المصدر، وإنّما أضفناها حتّى يستقيم الوزن.

(2) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص120.

(3) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص260. المقري. نفح الطيب، ج2، ص13.

(4) عتيق، عمر عبد الهادي قاسم إبراهيم: دراسة الأسلوبية في شعر الأخطل، 135. (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة النجاح الوطنية. نابلس. فلسطين 2000م-2001م.

وبنفسي نائي المحـل قريـ ـب من فؤادٍ صب وجسـمٍ نحيـل

يا قليلَ الإنصافِ في الهجر مهلا إن وجدي عليك غيـر قليـل[1]

"الخفيف"

فالقاضي ما زال بعيدا عن أحبائه، ولئن كانت ذكراهم عامرة في قلبه وعقلـه إلا أنّـه يستشعر فاصل المكان الذي بينه وبينهم في كلّ لحظة، فتأتي لفظتا الطباق متباعدتين عاكسة في ذلك تباعد المكان، فالمحلّ هو الذي فصل بينهما في عالم الواقع، كما فصل بينهما في المـستوى اللفظي، كما يستخدم في البيت الثاني طباق السلب (قليل، غير قليل)، فيأتي باللفظتين في أقصى حالات التباعد، وفي صورة من صور الترديد، وهذا الفاصل اللفظي الكبير يقابله فارق دلالـي ومعنوي كبير بين قلّة إنصاف المحبيب للقاضي، وفي المقابل كثرة وجد القاضـي وحبـه لـه، ويقول ابن الفرضي وقد اشتاق لأهله حيث توجه للحج:

أعللُ نفسي بالمنى في لقائكم وأستسهلُ البر الذي جبـتُ والبحـرا

ويؤنسني طي المراحل دونكم أروح على أرضٍ وأغدو على أخرى[2]

"الطويل"

فالقاضي قال هذه الأبيات وهو في غربته، فقد كان يعاني مـن طـول الفـراق وبعـد المسافات، فجاء بالطباق التباعدي، فزاوج بين البر والبحر، ووصـل بينهمـا باسـم موصـول (الذي)، وجملة (جبتُ)، فعكس بذلك طول المسافة التي جابها وقطعها، كما يأتي الطبـاق بـين فعلين (أروح، أغدو) لبيان حالة التشتت والضياع من جراء هذه الغربة والمعانـاة، فمـسيرته لا تتوقف، فهو دائم السير والحركة، ويصل ليله بنهاره.

ويقول ابن الباجي في رثاء ابنيه:

---

[1] الثعالبي. يتيمة الدهر، ج2، ص72. عياض، ترتيب المدارك، ج3_4، ص411.

[2] ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص62. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام، الذخيرة، مج2، قسم1، ص615. المقري، نفح الطيب، ج2، ص131. الضبي، بغية الملتمس، ص291. الحميدي، جذوة المقتبس، ص398. ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص255.

لئن غُيبا عن ناظري تبوءا فؤادي لقد زاد التباعد في القُربِ[1]

"الطويل"

لقد كان واقع القاضي مليئا بالتناقضات، فالموت جعل والديه يبعدان عن عالم الحياة الذي هو فيه، وتغيب بذلك صورتهما عن ناظريه، غير أن ذكراهما لم تغب عن ذاكرته، ومحبته لهما ومكانتهما ما زالت عامرة في قلبه، لا تزول ولا تغيب، وهذا جعل القاضي مضطربا، فعبر عن حركته النفسية بالطباق المتراخي، ففي نشاطه اللاشعوري جاء بالحرف (في) ليفصل بين لفظتي الطباق، وهذا الفاصل لم يكن كبيرا فتمثّل في حرف يصل الأول في الثاني، ولم يستطع التخلّص منه، لأن المصيبة كانت جليلة، والنازلة كبيرة.

(1) الأصفهاني. الخريدة، ص500. ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص101. المقري. نفح الطيب، مج2، ص75. ابن خلّكان. وفيات الأعيان، ج2، ص408. الحموي. معجم الأدباء، مج6، ج11، ص251. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص807. ابن خاقان، الفتح. قلائد العقيان، ص189.

الترادف

يرى الدارسون أن الترادف "هو أن يكون للمعنى الواحد أكثر من لفظ يعبر بـه عنـه، كالسيف والحسام والصيقل، ويرى بعض العلماء أن لا ترادف في العربية، بل للمعنى لفظ واحد، والباقي صفات له جرت مجراه لكثرة الاستعمال، غير أن الترادف موجود فعلا يفسره في أغلب الظن تداخل اللهجات العربية، فبعض القبائل تسمي بأسماء معينة، وبعضها تسمى الأشياء نفسها بأسماء أخرى، وتداخلت اللهجات، وكثرت مرادفات المعنى الواحد، ويحصل عكس هذا في اللغة العربية عندما يكون للفظة الواحدة معنيان كالعين: التي هي نبع الماء، وهي عين الإنسان يـرى بها"[1].

وكان للترادف نصيب كبير في أشعار القضاة، يقول أبو الوليد بن الفرضي في الزهد:

وكن مؤنسي في ظلمةِ القبر عندما   يصد ذوو القربى ويجفو المؤالفُ[2]

"الطويل"

فالكلمتان (يصد، ويجفو) تحملان المعنى نفسه، وهـو بـذلك أراد أن يؤكّـد المعنـى، فالإنسان لا ينفعه غير حسن عمله، فلن يكون هناك في القبر من يؤنس وحشته، فسيتركه أقرباؤه ومحبوه مع مصيره، ويقول القاضي ابن أبي عيسى في الشوق والحنين:

لا تلمني على البكا والعويل   ذكّرتني نخيلٌ فاسٍ نخيلي

فَعلَتْ زفرتي وطالَ انتحابي   وبدتْ لوعتي وهاج غليلي[3]

"الخفيف"

---

(1) إسبر، محمد سعيد، وبلال جنيدي. معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، باب التاء، ص279. ط1، دار العودة، بيروت: 1981م. ينظر: وافي، د. علي عبد الواحد. فقه اللغة، 172-175. ط7، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة-القاهرة: 1393هـ_1973م.

(2) المقري، نفح الطيب، ج2، ص129. ابن بشكوال، الصلة، قسم2، ص253. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص105.

(3) الثعالبي. يتيمة الدهر، ج2، ص72. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص410-411.

فنلاحظ الترادف جليا في هذين البيتين (البكا، العويل - علات، طال)، فكان واقع الحزن والألم لديه باعثا على إلباس المعاني أثوابا لفظية مختلفة لا تغير من حقّيقة جوهرهـا الكثيـر، ولكنّها تجذّر المعاناة في نفس القاضي وتؤكّدها.

ويقول القاضي أبو الوليد الباجي يمدح قاضي بغداد السمناني:

أسري إذا اعتكر الظلام وقادني   أملٌ مطالبه العلا والسؤدد(1)

"الكامل"

فالعلا والسؤدد معنيان مترادفان يشيران إلى الرفعة والسمو، فهو يخاطب قاضي بغـداد صاحب الهيبة والمكانة، وكأنّه أراد أن يعكس بالترادف وكثرة الألفاظ عظيم الأخلاق والصفات. ويقول القاضي محمد بن بشير في فضل الكتاب:

أو شِئْتَ مِن سِيرِ الأملاكِ مِن عجمٍ   تُنْبي وتُخْبِر كيفَ الرأي والأدب(2)

"البسيط"

والترادف بين الفعلين (تنبي، تخبر). يقول ابن أبي عيسى:

ذكّرنه الزمن الماضي بقرطبةٍ   بين الأحبةِ في أمنٍ وإيناسِ(3)

"البسيط"

فالترادف بين كلمتي (أمن، وإيناس). يقول ابن الباجي:

يا بعد صبرك أتهموا أم أنجـدوا   هيهـاتَ منـك تصبـر وتجلّـُد4

أسري إذا اعتكر الظلام وقادني   أمـلٌ مطالبـُه العـلا والسـؤدد(5)

"الكامل"

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص100.

(2) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص512.

(3) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص261. المقري. نفح الطيب، ج2، ص13. الحميدي. جذوة المقتبس، ص126.

(4) ابن بسام.الذخيرة، مج1، قسم2، ص99.

(5) المصدر نفسه. مج1، قسم2، ص100.

فجاء الترادف في (تصبر، تجلّد)، و(العلا، السؤدد).

وهكذا نلاحظ كثرة الترادف لدى القضاة، فقد استخدموا هذا الأسلوب لتأكيد المعاني، فقد كان رجال الدين على مر التاريخ يمتازون بطول العبارة، وتكرارها، وكثرة مترادفاتها، فكـان مظهرا من مظاهر إعطاء الحجة والدليل.

الجمل الخبرية والإنشائية

أولا: الجمل الخبرية:

ليس غريبا أن نجد في أشعار القضاة نموذجا صارخا لما اصطلح البلاغيون على تسميته بالجمل الخبرية، وهو "ما يصح أن يقال لقائله إنّه صادق فيه أو كاذب، فإن كان الكلام مطابقا للواقع كان قائله صادقا، وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذبا"[1]، وقد قسم البلاغيون الخبر بالنظر إلى صاحبه إلى ثلاثة أضرب: ابتدائي، ويلقى الخبر خاليا من أدوات التوكيد لأن المخاطَب خالي الذهن من الحكم، وطلبي، ويلقى الخبر مؤكّدا بمؤكّد واحد لأن المخاطب متردد في الحكم شاك فيه، وإنكاري، ويلقى الخبر مؤكّدا بأكثر من مؤكّد لأن المخاطَب منكر لحكم الخبر[2].

وطبيعة مهمة القضاء تقتضي التقصي والبحث، ولا يسلّم القضاة بمجرد الأقوال والأخبار فلا بد من الدليل والبرهان، وذلك لأن في القضاء تمييز الصادق من الكاذب وفصل الخصومات، لهذا يجلس الخصوم أمام القضاة مؤكدين أقوالهم وأخبارهم، وكل يريد أن يثبت صدق دعواه، وقد تأثّروا بواقع هذه الحال أعظم الأثر، حيث نجد كما كبيرا في أخبارهم مؤكدا بمختلف أدوات التوكيد، فيقول أبو الوليد الباجي في رثاء ابنيه مؤكدا حزنه ولوعته عليهما:

لئن غُيبا عن ناظري وتبوءا فؤادي لقد زاد التباعد في القُرب[3]

"الطويل"

فقد أكّد المعني باللام الموطئة للقسم في (لئن) وكذلك استخدم كلمة (لقد).

ويقول في العبادة مؤكدا على ضرورة قيام الليل مستخدما (إن) واللام المزحلقة:

---

(1) عتيق، عبد العزيز. علم المعاني، ص46. دار النهضة العربية، بيروت:1405هـ- 1985م.

(2) المرجع نفسه. ص52-53.

(3) الأصفهاني. الخريدة، ص500. ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص101. المقري. نفح الطيب، مج2، ص75. ابن خلكان. وفيات الأعيان، ج2، ص408. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص251. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص807. ابن خاقان، الفتح. قلائد العقيان، ص189.

إنّا لَسفْر نبتغي نيلَ المدى ففي السرى بغيتُنا لا في الكرى(1)

"الرجز"

ويقول القاضي منذر بن سعيد في الحثّ على العمل من أجل الآخرة مؤكدا فعل الأمـر بنون التوكيد الخفيفة:

بأمور المعادِ أنتَ عليم فاعملَن جاهدا لها يا أريب(2)

"الخفيف"

ويستخدم السين، فيدخلها على الفعل، ليؤكّد بها قوّة الناصر، وعظم سلطته في الأرض.

ستملكُها ما بين شرقٍ ومغربٍ إلى دربِ قُسطَنْطين أو أرضِ بابل(3)

"الطويل"

ويؤكّد ابن الفرضي بالسين كذلك على استعتابه للدهر:

سأستعتب الدهر المفرقَ بيننا وهل نافعي أن صرتُ أستعتب الدهرا(4)

"الطويل"

وكذلك فإن القاضي الزبيدي يستخدم نون التوكيد الخفيفة، ويؤكّد على سوء أهل زمانه:

أشْعِـرن قلبـك ياسـا ليـس هـذا الناس ناسـا(5)

"مجزوء الرمل"

---

(1) ابن بسام. الذخيرة، مج1قسم2ص105.

(2) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص239. المقري. النفح، ج1، ص376.

(3) المقري، نفح الطيب، ج1، ص373. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص184-185. المراكشي، المعجب، ص56. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص296. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص244.

(4) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام. الذخيرة، مج2، قسم1، ص615. المقري. نفح الطيب، ج2، ص131. الضبي. بغية الملتمس، ص291. الحميدي. جذوة المقتبس، ص398. ابن باشكوال. الصلة، قسم1، ص255.

(5) المقري. نفح الطيب، ج3، ص475. ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص673.

ثانيا: الجمل الإنشائية:

وقد كثر استخدام الجمل الإنشائية في أشعار القضاة، ولا سيما الطلبية، وهي مـا تـستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، وأهم أنواعه خمسة: الأمر، والنهي، والاسـتفهام، والتمنّـي، والنداء[(1)]:

1. الأمر:

وكثيرا ما كان يخرج إلى معنى النصح والإرشاد، يقول القاضي أبو الوليد يـونس بـن الصفار:

سارع إلى الخيـر وبادر بـهِ   فإن مـن خلفـك ما تعلـم [(2)]

"السريع"

ويقول أبو الوليد الباجي:

تبلّـغْ إلى الدنيـا بأيســر زادٍ   فإنك عنهـا راحـلٌ لمعـادِ

وغُض عن الدنيا وزخرفِ أهلِها   جفونَك واكحلْها بطول سهـادِ

وجاهد عن اللذاتِ نفسك جاهـدا   فإن جهاد النفسِ خيـر جهـادِ[(3)]

"الطويل"

ويقول القاضي ابن عبد البر:

تجافَ عن الدنيا وهون لقدرها   ووف سبيل الدين بالعروةِ الوثقى

وسارع بتقوى ا   سرا وجهرةً   فلا ذمةٌ أقوى هديتَ من التقوي

ودع عنك ما لا حظ فيهِ لعاقِلٍ   فإن طريقَ الحقّ أبلج لا يخفـى

(1) عبد الجليل، محمد بدري. تصوير المقام في البلاغة العربية، ص66. دار المعرفة الجامعية، مصر: 2003م.
(2) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص740.
(3) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص103.

وشُـح بأيـامٍ يقيـن قلائـلٍ وعمرٍ قصيرٍ لا يدوم ولا يبقى [1]

"الطويل"

ونرى هنا أن الأمر كان يخرج إلى معنى النصح والإرشاد، خاصة في أشعار الزهـد، حيث لم يكن القضاة ينعزلون وينقطعون عن الناس، بل كـانوا دائمـا يقـدمون لهـم النـصح والمشورة، فيأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر. كما نراه يخرج إلى معنـى الـدعاء، فيقول أبو الوليد الباجي داعيا ا عز وجلّ أن ييسر له سفره ويحفظ أهله:

فسهلْ سبيلي وازوِ عني شرها وشر الذي ألقاه في الأهل آبيا[2]

"الطويل"

ويقول القاضي ابن الفرضي متذللا إلى ا ، وداعيا أن يؤنسه في ظلمة القبر:

وكن مؤنسي في ظلمةِ القبر عندما يصد ذوو القربى ويجفو المؤالفُ[3]

"الطويل"

وقول عباس بن ناصح مستصرخا وداعيا الأمير أبا العاصي الحكم لنصرة أهل الثغـر الذين اعتدى عليهم العدو:

تدارك نساء العالمين بنصرةٍ فإنّك أحرى أن تغيثَ وتَنصرا[4]

"الطويل"

وبذلك فإن الدعاء ارتبط با عز وجلّ في مجالات السفر والزهد، فالمسافر أحوج مـا يكون إلى رعاية ا وحمايته، فتظهر صلته با جلية، كما أن الزاهد يتذلل إلى ا ، ويدعوه أن

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص296. المقري، نفح الطيب، ج4، ص28-29.

(2) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104.

(3) المقري، نفح الطيب، ج2ص129. الصلة، قسم2ص253. وفيات الأعيان، مج3ص105.

(4) المقري، نفح الطيب، ج1، ص343.

يغفر له ويرحمه ويقيه من عذاب النار، كما ارتبط بالحاكم من أجل استـصراخه وحثـه علـى نصرة المسلمين، والذود عن حياض الإسلام.ويخرج أيضا بكثرة إلى معنى الالتمـاس، فيقـول القاضي ابن عبد البر في الحديث واتّباع الأثر:

عليكم بآثار النبي فإنّها مِن أفضل أعمال الرشاد اتّباعها[1]

"الطويل"

ويقول القاضي منذر البلوطي، وقد راسل أبا علي البغدادي يستعير منه كتابا من الغريب:

ابعثْ إلي بجزءٍ من الغريبِ المصنّفْ[2]

"مجزوء المجتث"

ويقول القاضي ابن عباد معارضا أبا الأصبع بن عبد العزيز، فنقد عليه شيئا من التشبيه:

أبلغْ شقيقي عنّي مقالـةً لتمضـَه[3]

"مجزوء المجتث"

وبهذا فإن الأمر يخرج إلى معنى الالتماس في معظم أغراض أشعار القضاة، فلم يكـن القضاة في معزل عن المجتمع، بل كانوا يخالطون الناس ويعاملونهم في تواضع. ولا نكاد نعدم خروج الأمر إلى بعض المعاني الأخرى، يقول القاضي منذر بن سعيد متمنيا للأميـر الناصـر العمر المديد في صحة وسلامة:

فعشْ سالما أقصى حياةِ معمرٍ فأنتَ غِياثُ كل حافٍ وناعِل[4]

"الطويل"

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص284. امقري، نفح الطيب، ج6، ص327.
(2) المقري، نفح الطيب، مج2، ص20. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص184.
(3) ابن بسام، الذخيرة، ج1، قسم2، ص205.
(4) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص244. المقري، نفح الطيب، ج1، ص373. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص185. المراكشي، المعجب، ص56. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص296.

ويقول القاضي الباجي في معنى التهديد من معصية ا :

فأعصِ الإله بمقدار ما   تحب لنفْسِكِ سوء العذابِ [1]

"المتقارب"

ويقول القاضي منذر بن سعيد في معنى الإهانة والتحقّير لمن يكتب الحديث ولا يتفهمه:

انْعقْ بما شئتَ تَجِد أنصارا   ورم أسفارا تجد حمارا[2]

"الرجز"

2. النهي:

وقد خرج النهي في أشعار القضاة إلى معنيين هما: الالتماس، والنصح والإرشاد، فيقول القاضي منذر بن سعيد ملتمسا عدم التعجب من مخاطبته لشخص آذاه بالكنية:

لا تعجبوا مـن أنّني كنيتـه   ـهِ ـن بعدِ ما قد سبنا وآذانـا[3]

"الكامل"

ويقول القاضي الزبيدي مخاطبا جاريته، وقد اشتاق وهو بقرطبة إلى إشبيلية:

لا تحسبيني صبـرتُ إلا   كصبر ميتٍ على النـزاع[4]

"مخلع البسيط"

ويقول القاضي أبو عمر أحمد بن يحيى في العيادة:

إذا لَقيـتَ عليـلا   فاقعـد لديـهِ قليـلا

---

(1) الكتبي، فوات الوفيات، مج3، ص65. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص374.

(2) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص413.

(3) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص248. المقري، نفح الطيب، ج1، ص374.

(4) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج1، ص184. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص88. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص351. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص183. الضبي، بغية الملتمس، ص57. المراكشي، المعجب، ص65. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص278. المقري، نفح الطيب، ج4، ص7.

ولا تُطولْ عليـهِ وقـلْ مقالا جميـلا[1]

"مجزوء المجتث"

وفي معنى النصح والإرشاد يقول القاضي منذر:

فلا تكن مغرما برزق غَدٍ فلستَ تدري بما يجيء غد[2]

"المنسرح"

ويقول القاضي ابن عبد البر:

ولا تنس شكر الله في كلّ نعمةٍ يمن بها فالشكر مستجلب النعمى [3]

"الطويل"

ويقول القاضي أبو الوليد يونس بن الصفار:

لا تسأمِ الكد وطولَ السرى فطالب الفردوسِ لا يسلم [4]

"السريع"

3. النداء:

وقد أكثر القضاة من استخدام أسلوب النداء، وذلك لما له من دور في تعميق الصلة بين المتكلم والمستمع، فيجعله دائم الانتباه واليقظة، فيقول القاضي ابن عبد البر:

يا سائلي عن موضع التقليدِ خُذْ عنّي الجواب بفهمِ لب حاضرِ[5]

"الكامل"

ويقول القاضي الباجي في رثاء ابنه:

---

(1) ابن بشكوال، الصلة، قسم1، ص58.

(2) المقري، نفح الطيب، ج1، ص374.

(3) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص296. المقري، نفح الطيب، ج4، ص29.

(4) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص740.

(5) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص291.

أمحمد إن كنتُ بعدك صابرا   صبر السليمِ لما بهِ لا يسلَم[1]

"الكامل"

وقول القاضي الزبيدي مخاطبا أبا مسلم بن فهد الهذلي:

أبا مسلـمٍ إن الفتـى بجنانِـهِ   ومِقْولـهِ لا بالمراكـبِ واللبـس

وليس يفيد العلم والحِلم والحِجا   أبا مسلمٍ طولُ القعودِ على الكرسي[2]

"الطويل"

كما نرى النداء كثيرا ما يخرج إلى معنى الزجر، فيقول القاضي منذر زاجرا الأمير الناصر بسبب انشغاله ببناء مدينة الزهراء:

يا باني الزهراءِ مستغرقا   أوقاتَـه فيهـا أما تَمهلْ[3]

"السريع"

ويقول -أيضا- داعيا إلى الزهد، وزاجرا أهل السفه والضلال عن المعاصي:

يا سفيها قد حان منك رحيلٌ   بعد ذاك الرحيل يوم عصيب[4]

الخفيف"

وللقاضي ابن عبد البر قوله فيمن يجمع الكتب ولا يتدبرها:

يا من يرى[5] جمع المال والكتبِ   خُدعتَ وا   ليس الجد كاللعبِ[6]

"البسيط"

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص101. المقري، نفح الطيب، مج2، ص75. ابن خاقان، قلائد العقيان، ص189.

(2) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص120. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص86. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص181. الضبي، بغية الملتمس، ص57. السيوطي، بغية الوعاة، ص34. ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم2، ص66. المراكشي، المعجب، ص63. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص278. المقري، نفح الطيب، ج4، ص7.

(3) المقري، نفح الطيب، مج1، ص576.

(4) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص239. المقري، نفح الطيب، ج1، ص375.

(5) الشطر غير مستقيم الوزن.

(6) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص120.

4. الاستفهام:

وأدوات الاستفهام اثنتا عشرة، وهي: "الهمزة، وأم، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيان"[(1)]، ويخرج الاستفهام عند القضاة إلى جملة من المعاني، فيخرج إلى معنى الإنكار كقول القاضي منذر بن سعيد منكرا على الشاعر أحمد بن عبد ربه ألا يعد سيدنا على من الخلفاء:

أوما علي -لا برحت ملعنا- يا ابن الخبيثةِ عندكم بإمامِ [(2)]

"الكامل"

ويقول أيضا منكرا على الناس انشغالهم بالدنيا ونسيانهم الموت:

أترغب عن فجأةٍ للمنون وتعلم أن ليس منها مفرْ [(3)]

"المتقارب"

وفي معنى التعجب يقول القاضي منذر زاهدا في الدنيا:

كم تصابى وقد علاك المشيب وتعامى عمدا وأنتَ اللبيـب

كيفَ تلهو وقد أتـاك نذيـر أن سيأتي الحمام منك قريب

كم توانى حتّى تصير رهينا ثم تأتيـك دعـوةٌ فتجيـب [(4)]

"الخفيف"

وفي معنى التقرير، يقول القاضي ابن عبد البر:

---

(1) السكّاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي. مفتاح العلوم، ج2، ص308. تحقّيق: الأستاذ نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت: 1403هـ- 1983م.

(2) المقري، نفح الطيب، ج2، ص512.

(3) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص249.

(4) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص239. المقري، نفح الطيب، ج1، ص375.

أَلَمْ تَرَ أن العمر يمضي موليا فَجِدتُه تَبلى ومدتُه تَفْنى [1]

"الطويل"

ويقول أيضا:

أليس في الأنبياءِ الرسل أُسْـوتنا[2] عليهم صلواتُ الرب ذي الحجبِ [3]

"البسيط"

وقول القاضي ابن الفرضي في معنى النفي:

سأستعتب الدهر المفرقَ بيننا وهل نافعي أن صرتُ أستعتب الدهرا [4]

"الطويل"

وفي معنى التعظيم، يقول القاضي ابن عبد البر مفتخرا بعلمه:

وكم أقبلتُ متئدا مهابا فقام إلي من ملِكٍ عظيمِ [5]

"الوافر"

وبهذا نجد القضاة قد نوعوا في أساليبهم بين الخبر والإنشاء، وقد حفلت جملهم الخبرية بمؤكّدات تتناسب مع الجو العام والموقف النفسي لهم، فأثرت بذلك في دلالاتها، وجعلتها أكثر تأثيرا ونفاذا في نفوس المستمعين وعقولهم، كما اهتم القضاة في جملهم الإنشائية بالقسم الطلبي منها،فخرجت من معناها الحقّيقي إلى معان مختلفة، وهذا أعطى تنوعا في الخطاب الشعري وأسلوبه، فكان لكل مقام مقال، وقد وفّقوا بذلك في مخاطبة الخاصة والعامة على اختلاف ثقافاتهم وجنسياتهم ومستوياتهم.

---

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص296. مقري، نفح الطيب، ج4، ص29.

(2) لقد وردت في المصدر بلفظ (أرسل)، ولا يستقيم الوزن والمعنى إلا بـ (الرسل).

(3) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص120.

(4) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام، الذخيرة، قسم1، ص615. المقري، نفح الطيب، ج2، ص131. الضبي، بغية الملتمس، ص291. ابن بشكوال، الصلة، قسم 1، ص255.

(5) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص329.

التأثر بالمعاني الإسلامية

كانت للأندلسيين عناية بالغة في القرآن الكريم وعلومه، فقد جاء في مقدمة ابن خلدون: "وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الـذي يراعونـه فـي التعليم، إلا أنّه لما كان القرآن أصل ذلك ورأسه، ومنبع الـدين والعلـوم جعلـوه أصـلا فـي التعليم..."[1]، إضافة إلى توجه عامة أهل الأندلس وعنايتهم بدراسة القرآن الكريم وعلومه، فإن القضاء كان عاملا إضافيا في زيادة صلة القضاة بالقرآن الكريم لما روعي واشترط بهـم مـن العلم بمصادر التشريع، وسعة المعرفة. ومن خلال دراستنا لأشعارهم نجدها تغـص بالجوانـب الإسلامية المستوحاة والمتأثرة بالتراث الإسلامي ولا سيما القرآن الكريم، فنجدها متأثرة بأفكاره ومعانيه السامية، وهذا ما يعرف بمفهوم الاقتباس، وهو "أن يضمن الكلام نثرا أو شعرا شيئا من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، لا على أن المقتبس جزء منهما، ويجوز أن يغير المقتَـبِس في الآية أو الحديث قليلا"[2]، أو هو "أن يأخذ كلمة من آية توشيحا لكلامه، وتزيينا لنظامه، وهو أحسن الوجوه في هذه الصنعة"[3]، وأبرز مواضع هذا التأثر هي:

أولا: التأثر بالمعاني القرآنية:

لا نكاد نقرأ بيتا أو مقطوعة أو قصيدة إلا ونجدها حافلة بالمعاني القرآنية، فقد كان للقضاة حـظ كبير من الدين والزهد والاستقامة، فكان حريا بهم أن تظهر معانيهم الدينية في أفعالهم وأقوالهم، ونستطيع من خلال دراستنا أشعارهم أن نتبين مواضع هذا التأثر، يقول القاضي ابن الفرضي:

فيا سيدي لا تُخْزِني في صحيفتي   إذا نُشرتْ يوم الحسابِ الصحائفُ[4]

"الطويل"

---

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن محمد. مقدمة ابن خلدون، ج3، فصل40، ص1249. ط3. تحقيق: الدكتور علي عبد الواحد وافي. دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة-القاهرة: 1979م.

(2) وهبة. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، باب الهمزة، ص56.

(3) الزنجاني، عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب الخزرجي. كتاب معيار النظار في علوم الأشعار، ج2، ص109. تحقّيق: الدكتور محمد علي رزق الخفاجي. دار المعارف: 1991م.

(4) المقري، نفح الطيب، ج2، ص129. ابن بشكوال، الصلة، قسم2، ص253. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص105.

وهو متأثر بقوله تعالى: "وَإِذَا الصحفُ نُشِرتْ"[1]، أي وإذا صحف الأعمال نشرت وبسطت عند الحساب، ويقول القاضي محمد بن أبي عيسى:

قدمِ الزاد للمعادِ ولا تنـ   س إذا ما بطشتَ بطشَ القدير [2]

"الخفيف"

وهذا في معنى قوله تعالى: " إِن بطْشَ ربك لَشَدِيد"[3]، فهو يتحدث عن قدرة ا على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأولياءه، ويقول في كشف الضر:

حسبي ا ُ خالقُ الخَلْقِ فاللّـ   ـه على كشْفِ ما عراني قدير [4]

"الخفيف"

فيتأثر بقوله تعالى: " فَإِن تَولوا فَقُلْ حسبِي الله لا إِلَه إِلا هو علَيـهِ تَوكلْـتُ وهـو رب الْعرشِ الْعظِيم"[5]، أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد فقل يكفيني ربي أي لا معبود سواه فعليه اعتمدت فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره، وهو سبحانه رب العرش المحيط، ويقول القاضي الباجي:

الحمـد ذي الآلاءِ والنعـمِ   ومبدعِ السمعِ والأبصارِ والكَلِمِ

من يحمدِ ا يأتيه المزيد ومن   يكفر فكم نِعمٍ آلـتْ إلى نِقَـمِ [6]

"البسيط"

(1) سورة التكوير، آية10.
(2) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص409.
(3) سورة البروج، آية12.
(4) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص410.
(5) سورة التوبة، آية129.
(6) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104.

وهذا من معنى قوله تعالى: "وجعلَ لكُم السمع والأبصار والأفْئِدةَ قِليلا ما تَـشْكُرون"[1]، فا خلق لكم هذه الحواس: السمع لتسمعوا به الأصوات، والبصر لتبـصروا بـه الأشـخاص، والعقل لتدركوا به الحقّ والهدى أي إن شكركم لنعم ربكم لقليل، ويقول أيضا:

الحمد حمد معترفٍ بأن نُعماه ليس نحصيها [2]

"المنسرح"

فهو متأثر بقوله تعالى: " وإن تَعدوا نِعمةَ اللهِ لا تُحصوها"[3]، أي وإن تعـدوا نِعـم ا عليكم لا تطيقوا حصرها وعدها، فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها محصٍ، ويقول القاضي ابـن عبد البر:

أليس في الأنبياءِ الرسل أُسـوتنا[4] عليهم صلواتُ الرب ذي الحجبِ [5]

"البسيط"

وهو من معنى قوله عز وجلّ: "لَقد كان لَكُم فِي رسول اللهِ أُسوةٌ حسنَةٌ"[6]، بمعنى: لقـد كان لكم أيها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوةٌ حسنة، تقتدون به صلّى ا عليه وسلّم فـي إخلاصه، وجهاده، وصبره، وقوله: " قد كانت لكم أُسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه"[7]، ويقول هذا القاضي أيضا:

وتسعى لما فيهِ عليها مضرةٌ وقد علمتْ أن سوفَ تُجزى بما تَسعى[8]

"الطويل"

(1) سورة السجدة، آية9.

(2) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104.

(3) سورة إبراهيم، آية34.

(4) لقد وردت في المصدر بلفظ (أرسل)، ولا يستقيم الوزن والمعنى إلا بـ (الرسل).

(5) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص120.

(6) سورة الأحزاب، آية21.

(7) سورة الممتحنة، آية4.

(8) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص296، المقري، نفح الطيب، ج4، ص29.

فهو متأثر بقوله تعالى: "لِتُجزى كُل نَفْسٍ بِما تَسعى"[1]، أي لتنال كل نفـس جـزاء مـا عملت من خير أو شر، ويقول أيضا:

ولا تنس شكر ا ـ في كلّ نعمةٍ   يمن بها فالشكر مستجاب النعمى[2]

"الطويل"

ويقول تعالى: "وإِذْ تَأَذن ربكُم لَئِن شَكَرتُم لأَزيدنكُم ولَئِن كَفَرتُم إِن عذَابِي لَـشَدِيد"[3]، أي اذكروا أيضاً حين أعلم ربكم لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي، ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي شديد، وعد بالعذاب على الكفر، كما وعد بالزيادة على الـشكر، ويقـول القاضي البلوطي:

والخير والشر لا تدعه فما   في الناس إلا التشنيع[4]والحسد [5]

"المنسرح"

وهذا المعنى من قوله عز وجلّ: "ومِن شَر حاسِدٍ إِذَا حسد"[6]، وهو شر الحاسد الـذي يتمنـى زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه ا تعالى له.

ومما يلاحظ في هذه الأشعار المتأثرة بمعاني القرآن الكريم أن معظمهـا يـدور حـول معاني الزهد والعبادة والدعاء.

ثانيا: التأثر بألفاظ القرآن الكريم:

والتأثر بألفاظ القرآن كثير جدا، ولكننا سنحاول التمثيل على بعـض المواضـع، يقـول القاضي منذر بن سعيد:

---

(1) سورة طه، آية15.

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص296، المقري، نفح الطيب، ج4، ص29.

(3) سورة إبراهيم، آية7.

(4) الشطر غير مستقيم الوزن.

(5) المقري، نفح الطيب، ج1، ص374.

(6) سورة الفلق، آية5.

فإما إلى جنةٍ أزلفتْ وإما إلى سقَرٍ تستعِر [1]

"المتقارب"

فألفاظ هذا البيت مستمدة من قوله تعالى: "وإِذَا الجنّة أُزلِفَتْ"[2]، أي وإذا الجنّة أدنيت وقربت من المتقين، وقوله: "ما سلكَكُم في سقَر"[3]، أي، ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيرها؟، ويقول القاضي الزبيدي:

وآخَر براقُ الثيابِ وعِرضه من العار والتدنيسِ رجس على رجسِ[4]

"الطويل"

وهو متأثر بألفاظ القرآن في قوله عز وجلّ: " وأَما الَذِين فِي قُلُوبِهِم مرض فَزادتْهم رجسا إِلَى رجسِهِم وماتُوا وهم كافِرون"[5]، أي وأما المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين ا فقد زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم، فازدادوا رجساً وضلالاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال، وماتوا على الكفر، ويقول أيضا:

كلفْتَني غامضا عويصا أرجم فيهِ الظنون رجما[6]

"مخلع البسيط"

فتأثّر بقوله تعالى: "ويقُولون خَمسةٌ سادسهم كلْبهم رجما بالغَيبِ"[7]، ويقول كذلك:

كيفَ بالدين القويمِ لك من أم تميمِ[8]

"مجزوء الرمل"

---

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، 249.
(2) سورة التكوير، لآية13.
(3) سورة المدثر، آية42.
(4) ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم2، ص66.
(5) سورة التوبة، آية125.
(6) المقري. نفح الطيب، ج7، ص39.
(7) سورة الكهف، آية22.
(8) المقري. نفح الطيب، ج7، ص39.

ويقول عز وجلّ: " ذَلِكَ الدين الْقَيم ولَكِن َأكْثَر الناسِ لا يعلَمون"[1]، فذلك الذي أدعوكم إليه مـن إخلاص العبادة هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، ويقول القاضي أبو الوليد ابن الصفار:

لا تسأمِ الكد وطولَ السرى فطالب الفردوسِ لا يسلم[2]

"السريع"

فكلمة (الفردوس) مأخوذة من قوله تعالى: " إِن الَذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ كَانَتْ لَهم جناتُ الْفِردوسِ نُزلاً"[3]، فالذين آمنوا با وعملوا بما يرضيه لهم أعلى درجات الجنّـة وهـي الفردوس منزلا ومستقرا، ويقول أيضا:

فخُذْ من النومِ بحظ فإن قضيتَ منه وطَرا فانْصبِ[4]

"السريع"

وقوله عز وجلّ: "فَإِذَا فَرغْتَ فَانصب"[5]، أي فإذا فرغت يا محمد من دعـوة الخلـق، فاجتهد في عبادة الخالق، وإذا انتهيت من أمور الدنيا، فأتعب نفسك في طلب الآخـرة، ويقـول القاضي ابن عبد البر:

تجافَ عن الدنيا وهون لقدرها ووف سبيل الدين بالعروةِ الوثقى[6]

"الطويل"

ويقول تعالى: "فَمن يكْفُر بِالطاغُوتِ ويؤْمِن بِاللهِ فَقَد استَمسك بِالْعروةِ الْوثْقَى"[7]، أي من كفر بما يعبد من غير ا كالشيطان والأوثان وآمن با فقد تمسك من الدين بأقوى سبب.

(1) سورة يوسف، آية40.
(2) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص740.
(3) سورة الكهف، آية107.
(4) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص741.
(5) سورة الشرح، آية7.
(6) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص296، المقري، نفح الطيب، ج4، ص28.
(7) سورة البقرة، آية256.

ثالثا: التأثر بالقصص القرآني:

ونرى القضاة يعتمدون كذلك على القصص القرآني، فيكتفون بمجـرد الإشـارة إليـه معتمدين على إدراك السامع وفهمه، فيقول القاضي الزبيدي في ذم أهل زمانه:

سامريين يقولو ن جميعا: "لا مِساسا!"[1]

"مجزوء الرمل"

وهذا مأخوذ من قصة السامري رئيس قوم اليهود الذي أمر قومه بعبادة العجل في غياب موسى عن الطور، وذلك في قوله تعالى: " قَالَ فَما خَطْبُك يا سامِري، قَـالَ بـصرتُ بِمـا لَـم يبصروا بِهِ فَقَبضتُ قَبضةً مِن أَثَر الرسول فَنَبذْتُها وكَذَلِك سولَتْ لِي نَفْسِي، قَالَ فَاذْهب فَإِن لَـك فِي الْحياةِ أَن تَقُولَ لا مِساس"[2]، أي عقوبتك في الدنيا ألاّ تمس أحداً ولا يمسك أحـد، ويقـول القاضي ابن عبد البر:

إذا فاخرتَ فافخر بالعلومِ ودع ما كان من عظْمٍ رميمِ[3]

"الوافر"

وهو متأثر بقصة أُبي بن خلف الذي جاء بعظم رميم، وفتته في وجه النبي الكريم وقال ساخراً:أتزعم يا محمد أن الله يحيينا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذا؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم له: نعم يبعثك ويدخلك النار، فيقول تعالى: "وضرب لَنَا مثَلاً ونَسِي خَلْقَه قَالَ من يحي الْعِظَام وهِـي رمِيم"[4].

(1) المقري، نفح الطيب، ج3، ص476. ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص673.

(2) سورة طه، آية 95-97.

(3) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص329.

(4) سورة يس، آية78.

رابعا: الاستشهاد بالقرآن الكريم:

فيقول القاضي منذر بن سعيد البلوطي، وقد آذاه شخص فخاطبه منذر بالكنية، فقيل لـه: أيؤذيك وأنت تخاطبه بالكنية؟ فقال: (الكامل)

لا تعجبوا من أنّني كنيته   مِن بعدِ ما قد سبنا وآذانا

فا قد كنّى أبا لهبٍ وما   كنّاه إلا خزيةً وهوانا[1]

"الكامل"

فهو يستشهد بما جاء في القرآن من تكنية عم الرسول الكريم عبد العـزى بـن عبـد المطلب بأبي لهب في قوله تعالى: " تَبتْ يدا أَبِي لَهبٍ وتَب"[2]، ويقول القاضي أبو الوليد الباجي في معنى الزهد والطاعات:

وحاقَ بي ما جاء عن ربنا   (ووجدوا ما عملوا حاضرا [3])[4]

"السريع"

فهو يستشهد بقوله تعالى: " ووجدوا ما عمِلُوا حاضِرا ولا يظْلِم ربك أَحدا" [5].

ومن الجدير الإشارة أن أشعار القضاة خلت من الاقتباس القرآني النصي، وهو ما التزم فيه الشاعر بلفظ النص القرآني وتركيبه، فقد كان للعلماء موقف منه، حيث قال السيوطي: "وقـد اشتهر عن المالكية تحريمه، وتشديد النكير على فاعله"[6]، وقد أكّد المقري في نفح الطيب هـذا

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص248-249. المقري، نفح الطيب، ج1، ص374.

(2) سورة المسد، أية1.

(3) الشطر غير مستقيم الوزن.

(4) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104.

(5) الكهف، آية49.

(6) ورد هذا النص في كتاب: بهجت، الدكتور منجد مصطفى. الاتّجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، ص436. ط1. مؤسسة الرسالة، بيروت: 1407هـ- 1986م. نقلا عن: المدني، علي صدر الدين بن معصوم. أنوار الربيع في أنواع البديع، 2ج، ص217-218. ط1، تحقيق: شاكر هادي شكر. مطبعة النعمان، النجف:1969م.

الرأي[1]، وبذلك يظهر أثر المذهب المالكي جليا في أشعار قضاتنا، فقد كانت هذه الأشعار صورة صادقة لهم، غير أن ابن الأثير يرى رأيا مغايرا، "وذاك أنّه لا تؤخذ الآية بكاملها، بل يؤخذ جزء منها، ويجعل أولا لكلام أو آخرا، هذا إذا لم يقصد به التضمين، فأما إذا قصد التضمين فتؤخذ الآية بكاملها، وتدرج درجا"[2]، ولئن اختلف أسلوب التعبير إلا أن الرأي واحد، فابن الأثير يرى أن الآية لا تؤخذ كاملةإلا إذا قصد بها التضمين، والذي قصدته المالكية بتحريمها كذلك هو الاقتباس الحرفي الذي لا يتضمن تصريحا أو تلميحا معه على أنّه آية، والتجويز هذا هو ما عبرنا عنه بالاستشهاد.

خامسا: التأثر بالحديث الشريف:

كما كان للحديث النبوي الشريف أثر واضح في أشعارهم، فيقول القاضي ابن عبد البر:

تَعفّفُ المرء عن سؤالِه ... وكسبُه الحِل باحتيالِه
وسعيه في صلاحِ عيشٍ ... لمن يواريهِ من عِيالِه
مروءةٌ بالغٌ بها من ... يبلُغُها منتهى كمالِه
ومن يصن وجهه يزنْه ... صيانةُ الوجهِ من جمالِه
رضى الفتى بالقضاءِ عز ... وذِلةُ الوجهِ في ابتذالِه[3]

"مخلع البسيط"

فقد روى الزبير بن العوام رضي ا عنه عن النبي صلّى ا عليه وسلّم، قال: "لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكفّ ا بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"[4]، ويقول القاضي أبو الوليد الباجي:

---

(1) المقري. نفح الطيب، ج5، ص271

(2) ابن الأثير، ضياء الدين نصر ا بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مج2، ص287.ط1، تحقّيق: الشيخ كامل محمد محمد عويضة. دار الكتب العلمية، بيروت:1419هـ- 1998م.

(3) ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص165-166.

(4) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، مج1، ج2، باب الاستعفاف عن المسألة، حديث رقم1471، ص157.

تجنب بجهدِك ما صوروا وإن كان في ستر أو (ميثره)

فإن الرسولَ عليهِ السلام أحقّ العذاب لمـن صوره[1]

"المتقارب"

وهذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام: "إن أشد الناس عذابا عند ا يـوم القيامـة المصورون"[2]، ويقول القاضي منذر بن سعيد البلوطي:

ثلاثٌ وستون قد جزتَها فماذا تُؤَملُ أو تنتظر[3]

"المتقارب"

فقد روي عن ابن عباس أنه قال: "أنزل على رسول ا صلّى ا عليه وسلّم، وهو ابن أربعين، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشرا، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين"[4]، ويقول القاضي محمد بن سعيد بن بشير:

ما ماتَ قوم إذا أبقوا لنا أدبا وعلْم دينٍ ولا بانوا ولا ذهبوا [5]

"البسيط"

فقد روي عن أبي هريرة عن رسول ا صلّى ا عليه وسلّم قال: "إذا مـات الإنـسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، من صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يـدعو لـه"[6]. وقـال القاضي منذر بن سعيد مشيدا بصفات سيدنا علي -كرم ا وجهه- :

رب الكساءِ وخير آل محمدٍ داني الولاءِ مقدم الإسلامِ[7]

"الكامل"

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص103.

(2) البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب التصاوير، حديث رقم5950، ص85.

(3) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص249.

(4) الترمذي، صحيح الترمذي، أبواب المناقب، ص108-109.

(5) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص512.

(6) النسائي. سنن النسائي، ج5، كتاب الوصايا، ص251. تحقّيق: الشيخ حسن محمد المسعودي. دار الكتاب العربي، بيروت.

(7) المقري، نفح الطيب، مج2، ص512.

فقد روي عن أبي سلمة ربيب النبي صلّى ا عليه وسلّم قال: نزلت هذه الآيـة علـى النبي صلّى ا عليه وسلّم (إنما يريد ا لِيذْهِب عنْكُم الرجس أهلَ البيتِ ويطَهركُم تَطْهيـرا)[1] في بيت أم سلمة، فدعا النبي صلّى ا عليه وسلّم فاطمة وحسنا وحسينا، فجلّلهم بكساء وعلـي خلف ظهره، فجلّله بكساء، ثم قال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عـنهم الـرجس وطهـرهم تطهيرا. قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي ا ؟ قال: أنت على مكانك، وأنت إلي خير"[2].

(1) الأحزاب، أية: 33.

(2) ينظر: الترمذي. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، ج5، حديث رقم (3787)، ص663.

بناء الصورة الفنية



- التشبيه المفرد.
- التشبيه التمثيلي والضمني.
- الاستعارة والمجاز والكناية.

بناء الصورة الفنية

قد برع الأندلسيون في التصوير والخيال، وأكثروا من أنواع التشبيه[1] المفرد والتمثيلي والضمني، وافتنّوا في الاستعارات والكنايات، فهم تارة يعرضون التشبيه قضية بسيطة وأخرى يعرضونه حجة وبرهانا على قضية سابقة، وقد يضيفون إليه ألوانا من المحسنات البديعية، كما زاوجوا بين استخدام الصور الموروثة وصور تتسم بالجدة والطرافة[2]، والحال نفسه عند قضاتنا الشعراء حيث تعددت لديهم الصور الفنية وتنوعت، فامتازوا ببعد الخيال وحسن التشبيه.

التشبيه المفرد:

وهو"ما يكون فيه الوصف المشترك محقّقا في شيء واحد"[3]، ويكثر القضاة من هذا اللون من التشبيه في صورة المضاف والمضاف إليه، وهو ما يصطلح البلاغيون على تسميته بالبليغ، "وهو اللفظ التشبيهي الذي تحذف فيه أداة التشبيه، ويحذف فيه وجه الشبه، ولا يتضمن إلا الطرفين فقط: المشبه والمشبه به"[4]، يقول القاضي أبو الوليد الفرضي:

رعتكم من الرحمن عين بصيرةٌ   ولا كشفتْ أيدي الردى عنكم سترا[5]

"الطويل"

---

(1) التشبيه: هو الدلالة على مشاركة شيء أو صورة لشيء آخر أو صورة أخرى في معنى أو صفة بإحدى أدوات التشبيه لجامع بينهما، كما تقول : محمد كالأسد شجاعة، ينظر:

فيود، الدكتور بسيوني عبد الفتاح. علم البيان، دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص17. مؤسسة المختار- مصر، ودار المعالم الثقافية-الأحساء: 1418هـ- 1998م. وهبة. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، باب التاء، ص99. عباس، فضل حسن. البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، ص17.

(2) شلبي. الأصول الفنية للشعر الأندلسي "عصر الإمارة"، ص303.

(3) أبو موسى، محمد. التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص26. ط2، مكتبة وهبة، القاهرة: 1400هـ- 1980م.

(4) عطية، الدكتور مختار. علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلّقات السبع، دراسة بلاغية، ص43. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية: 2004م.

(5) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام. الذخيرة، مج2، قسم1، ص616. المقري. نفح الطيب، ج2، ص13. الضبي. بغية الملتمس، ص291. الحميدي. جذوة المقتبس، ص399. ابن باشكوال.الصلة، قسم1، ص255.

وهو يشبه الردى بالأيدي، فالمعنى مشترك بين المشبه والمشبه به، فكلاهما يحملان مدلول الأخذ والسلب، وهو بذلك يعكس صورة نفسية، تجعله يستحضر الموت في كلّ حين، فالموت في ذهن القاضي هو تلك اليد التي تلازمه في كلّ حين، وما هو عن متناولها ببعيد.

ويقول القاضي محمد بن أبي عيسى:

كأن لم تُأرقْ بالعراقين مقْلتي ولم تمر كف الشوق ماء مآقي[1]

"الطويل"

فيشبه الشوق بالكفّ، فالكفّ ترمز إلى لقاء الأحباب والأصحاب، فبها تكون المصافحة بعد طول غياب، ويستخدم بعد ذلك الاستعارة، فيشبه الدموع بالمياه، فيحتاج مجددا إلى تلك الكفّ لتمسح دموعه المنسكبة من شدة الشوق وحرارة اللقاء، فتتداخل هذه التشابيه وتتعانق لتضعنا أمام صورة فنية مؤثّرة وبديعة. ويقول القاضي أبو بكر الزبيدي:

أغْرقْتَني في بحور فكرٍ فكدتُ منها أموتُ غَما[2]

"مخلّع البسيط"

يعيش قاضينا حالة من التوتر والضياع، فلم يعد يقوى على تحمل تلك الأفكار، فكانت أشبه ما تكون بالبحور، فكلاهما يموجان بصاحبهما، ويوديان به نحو الهلاك. ويمدح أبو الوليد الباجي ممدوحه بصفات حسية تقليدية، فيشبهه بالشهاب، وهي صورة موروثة:

هذا الشهاب المستضاء بنورهِ علم الهدى هذا الشهاب الأوحد[3]

"الكامل"

وكثيرا ما شبهت الكلمة بالسيف أو السهم، في صورة موروثة، فيقول الباجي أيضا:

---

(1) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص260. المقري. نفح الطيب، ج2، ص13.

(2) المقري. نفح الطيب، ج4، ص8.

(3) ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص100.

وأرى القولَ كالسهامِ فإن كا ن قبيحا عادتْ علي سهامي[1]

"الخفيف"

ويقول القاضي منذر:

مقالٌ كحد السيفِ وسطَ المحافل قَرقْـتُ بهِ ما بين حقّ وباطـل

بقلـبٍ ذكي ترتمـي جنَباتُـه كبارق رعدٍ عند رعش الأنامل

وقد حدقتْ نحوي عيون إخالُها كمثل سهامٍ أثبتتْ في المقاتل[2]

"الطويل"

فهو يشبه خطبته ومقالته التي ألقاها بحضرة ملك الروم والتي فـرق بهـا بـين الحـقّ والباطل بالسيف القاطع الفاصل، وهي صورة موروثة، كما يشبه القلـب المرتجـف الخـائف بصورة مركبة طريفة تجمع صوت الرعد المرجف ورعش الأنامل والأطـراف، كمـا يـشبه النظرات والعيون بالسهام، وبهذا تنعكس حالة الشاعر النفسية المضطربة، فتظهر في تـشبيهاته، فالموقف جليل يثير في القلوب الهلع والخوف، ولئن كان قاضينا أظهر نوعا من رباطة الجـأش إلا أن صورة المشبه به في ذهنة كانت قاتمة، فتارة يستخدم السيف، ومـرة الـسهام، وأخـرى الرعد والرعش.

ومن بدائع التشبيهات قول القاضي منذر مشبها الموت بالحوض الذي لابد من أن يرده الجميع:

الموتُ حوض وكلنا يرد لم ينج مما نخافُه أحد[3]

"المنسرح"

ومن تشبيهاتهم البسيطة الموروثة قول القاضي محمد بن السليم:

---

(1) المصدر نفسه. مج1، قسم2، ص105.

(2) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص244. المقري. نفح الطيب، ج1، ص373. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص184. المراكشي، المعجب، ص56.

(3) المقري. نفح الطيب، ج1، ص374.

أتاني قريض كالجمان المفصل   بديع معانيه لطيفُ التوصل[1]

"الطويل"

كما نجد القاضي ابن أبي عيسى يتأثر بالبيئة الأندلسية ذات المياه والأنهار في شبه قلبه بالجندل، وهو مكان في مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر،[2]، وذلك بجامع القسوة، وعدم الاحتفاظ بالشيء:

هم الصبابةُ لولا همةٌ شَرفتْ   فصيرتْ قلبه كالجنْدل القاسي[3]

"البسيط"

وهكذا فقد انعكست تشبيهات القضاة على الحالة النفسية لديهم، فتلونت بأحاسيسها وعواطفها، حيث "يتنوع أسلوب التأثير النفسي للتشبيه من مكان إلى آخر، حسب الاهتمامات والتعريفات التي يؤمن بها شعب دون شعب آخر، وأصحاب مهنة معينة عن مهنة أخرى، ولهذا فإن الشاهد التشبيهي إذا كان من بيئة المتفنّن والمتلقّي كان له سحر التأثير، وإذا اختلف في بيئة أحدهما فتر التأثير، وخفّ التوصيل"[4].

---

(1) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص544.

(2) أنيس، إبراهيم، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف ا الأحمر. المعجم الوسيط، باب الجيم، فصل النون. ط2، مجمع اللغة العربية، القاهرة: 1392هـ- 1972م.

(3) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص261. المقري. نفح الطيب، ج2، ص13. الثعالبي. يتيمة الدهر، ج2، ص72. الحميدي. جذوة المقتبس، ص126.

(4) أبو علي، الدكتور محمد بركات حمدي. البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، ص103. ط1، دار وائل للنشر، 2003م.

التشبيه التمثيلي والضمني

يقول القاضي أبو الوليد الباجي:

وأسمر ينطقُ في مشيـهِ ويسكتُ مهما أمر القلـم
على ساحةٍ ليلها مشرقٌ منيـر وأبيضها مدلهـم
وشبهتها ببياض المشيب يخالطُ نور سوادِ اللمـم[1]

"المتقارب"

وتظهر الصورة هنا بمظهرها المركب، فتعبر عن المستوى الثقافي له، فتارة يشبه المداد بالليل، ولكن هذا الليل مشرق بما يحويه من علوم ومعارف، وتارة أخرى يشبه المـداد بـسواد الشعر، ويشبه ما يتخلله من بياض بالشيب، فقد جاءت الصورة الثانية مؤكدة للصورة الأولّى.

ويقول القاضي أبو عبد ا الأنصاري:

ومـن عجـبٍ أنّـي أهيـم بحبـهِ وأوليـه إعراضـا وفي القلـب يرتـع
كـذي رمـدٍ فـي مقلتيـهِ يزيـده سنا الشمس (ضرا) وهو بالشمس مولع[2]

"الطويل"

فهو يصور إعراضه عن محبوبته مع أنه يهيم بحبها بالشخص الذي يشكو من رمد فـي عينيه، فيعرض عن أشعة الشمس مع أنه مولع بها، وفي هذا تشخيص للصورة المعنوية ونقلهـا إلى عالم المحسوس. ويقول أبو الوليد ابن الصفّار:

ربوع كساها المزن من خِلَع الحيا برودا وحلاها من النور جوهرا[3]

"الطويل"

---

(1) ابن بسام.الذخيرة، مج1، قسم2، ص98.

(2) ابن عسكر. أعلام مالقة، ص76.

(3) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص291.

فيصور النباتات بالبرود، والنور بالجواهر، وكأن هذه الربوع التي أورقت وأزهرت بعد أن أمطرت عليها السماء أصبحت فتاة حسناء قد لبست أجمل ثيابها، وتزينت بالجواهر.

ونجد عباس بن ناصح يقدم لنا صورة طريفة وجميلة يعبر بها عن حزنه وألمه وطـول ليله، فيشبه نجوم الليل التي لا تتحرك من مكانها بالقطيع من الغنم الذي يتلبث ويمـشي مـشيا وئيدا:

فبت أرقـب صبحا سـد مطْلِعـه فلا أرى الليلَ عن مرقاتهِ انصدعـا

كأنّه ونجـوم الليـل قـد جعِلـَتْ تهوي على السمتِ منها عُورا خُضعا

راعٍ تَلبثَ قـد أوصـى بصرمتِـه أُخرى الرعاءِ يزجـي سائقـا هبعا[1]

يا ليلُ أصبِح ويا صبح استتر فلقد أبرحتماني فَـإن لـم تفعلا فَدعـا[2]

"البسيط"

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الصورة مستعارة، إذ لا يوجد إبل في الأندلس حتّى قدوم يوسف بن تاشفين عام تسعة وسبعين وأربعمئة هجرية.

ويقول أبو الوليد الباجي في قيام الليل:

من ينصبِ الليلَ ينلْ راحتَه عند الصباح يحمد القوم السرى[3]

"الرجز"

يقول من قام الليل صلاة يستشعر الراحة في الصباح، ويستشهد على ذلك بحـال القـوم الذين يسرون باكرا فيحمدون سراهم عند الصباح.

---

(1) الصرمة: القطعة من الغنم، والهبع: ما نتج في آخر النتاج، والربع: ما نتج في أوله، فإذا مشى الهبع مع الربع يعقبه، أي استعان به.

(2) الطبيب، أبو عبد ا محمد بن الكتاني. كتاب التشبيهات، ص138.

(3) ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص105.

الاستعارة والمجازالمرسل والكناية

أولا: الاستعارة:

"الاستعارة هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به"[(1)]، ويقول الجرجاني: "واعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا، تدلّ الشواهد على أنّه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية"[(2)] وهي تنقسم إلى قسمن: تصريحية ومكنية، "والمراد بالأول هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به، والمراد بالثاني أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه"[(3)]، فيقول ابن أبي عيسى

لا تلمني على البكا والعويل ذكّرتني نخيلٌ فاسٍ نخيلي[(4)]

"الخفيف"

يشبه القاضي نخيل فاس بالأناسي الذين يتكلّمون ويذكّرون، ويحذف المشبه به، ويبقي على المشبه على سبيل الاستعارة المكنية، وهو بهذا يعكس إحساسا داخليا يتعاطى معه نفسيته فيتفاعل مع ما يشاهده من نخيل، فلا يعد ذالك النبات الجامد، وإنما أصبح كائنا حيا يبادله مشاعره وأحاسيسه. ويستخدم الاستعارة المكنية كذلك في قوله:

كلما قلتُ سالمتني الليالي وصفا العيشُ شابه التكدير [(5)]

"الخفيف"

---

(1) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي. مفتاح العلوم، ص369. ت: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1403هـ_1983م.

(2) الجرجاني، الإمام عبد القاهر. أسرار البلاغة في علم البيان، ص22. ط1، تحقّيق: السيد محمد رشيد رضا. دار الكتب العلمية، بيروت: 1409هـ_1988م.

(3) السكاكي. مفتاح العلوم، ص373.

(4) الثعالبي. يتيمة الدهر، ج2، ص72. عياض، ترتيب المدارك، ج3_4، ص410.

(5) عياض، ترتيب المدارك، ج3_4، ص410.

فيشبه العيش بالمياه، والتكدير بالشوائب، وقد عكس بتشبيهه هذا حالة حسية تعبر عن ذبذبة الأحوال وتقلّبها، فالمياة حرة الحركة، وبادية التحول والتغيير.

يقول القاضي محمد بن بشير في فضل الكتب:

قَصِرتُ في البيتِ مسرورا تُحدثني عن عِلْمِ ما غاب عني في الورى الكتُب[1]

"البسيط"

لم تعد الكتب مجرد أوراق، وإنّما أصبحت كائنا بشريا تجالس صاحبها وتتحدث معه، لقد كسر القاضي في هذه الاستعارة الحواجز المادية، وجسر بين ركنيها بلحمة معنوية.

ويشبه أبو الحسن الرعيني أطفاله بالفراخ فيحذف المشبه ويبقى على المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية:

فإني قد خلّفت في ٌأفق موطني فراخا هواهم ليس عنه مناب[2]

"الطويل"

ونحن نحس مدى اتّحاد المشبه بالمشبه به في نفس القاضي، مما جعله يحذف المشبه، ويصبح المشبه به بذلك في عالم القاضي ونفسيته حقّيقة لا مجازا، فينعكس بذلك إحساس القاضي الأبوي الذي ينظر إلى أولاده الصغار بعين الود والرحمة، "فالاستعارة إذن ليست حركة في ألفاظ فارغة من معانيها، ولا تلاعبا بكلمات، وإنّما هي إحساس وجداني عميق، ورؤية قلبية لهذه المشبهات التي تشكّلت في الكلمات المستعارة"[3].

ثانيا: المجاز المرسل:

وهو كلمة أو تركيب استعمل في غير معناه الحقّيقي لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقّيقي...، وقد تكون العلاقة في المجاز المرسل السببية، أو المسببية،

(1) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص511.

(2) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص172.

(3) أبو موسى. التصوير البياني، ص184.

أو الجزئية، أو الكلية، أو اعتبار ما كان، أو اعتبار ما يكون، أو المحلّية، أو الحالّية[1]. ويقـول القاضي ابن الفرضي:

رعتكم من الرحمن عين بصيرةٌ ولا كشفتْ أيدي الردى عنكم سترا[2]

"الطويل"

فيجعل من كلمة "عين" مجازا مرسلا علاقته الجزئية، فهي مناط الرعاية والحنان، لذلك كانت مكانتها في نفس القاضي كبيرة، فجعله ذلك ينظر إليها على أنّها كلّ لا جزء. يقـول ابـن أبي عيسى:

كم فتى منهم وكهلا وشيخا ألحدتْه كفّاك وسطَ الحفيـر[3]

"الخفيف"

وفيها -أيضا- مجاز مرسل علاقته الجزئية، فاليد بأكملها ساهمت في عمليـة الإلحـاد، وليس الكفّان فقط، وكثيرا ما ينسب الفعل للكف، فهي أهم عضو في العمل. ويقول أبـو الوليـد الباجيالباجي:

رعى ا قلبين استكانا ببلدةٍ هما أسكناها في السوادِ من القلبِ[4]

"الطويل"

والقاضي هنا يذكر القلبين، ولكنّه لا يريدهما فقط، وإنّما يقصد الجسدين كـاملين، وقـد اهتم بذكر هذا الجزء من الجسد ألا وهو القلب لأنّه موطن العواطف والـشعور والأحاسـيس، وشعر القاضي ينبعث من مشاعر وعواطف صادقة.

---

(1) وهبة. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، باب الميم، ص334-335.

(2) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام. الذخيرة، مج2، قسم1، ص616. المقري. نفح الطيب، ج2، ص13. الضبي. بغية الملتمس، ص291. الحميدي. جذوة المقتبس، ص399. ابن باشكوال. الصلة، قسم1، ص255.

(3) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص409.

(4) الأصفهاني. الخريدة، ص500. ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص101. المقري. نفح الطيب، مج2، ص75. ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب، ج1، ص327. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص807. ابن خاقان. قلائد العقيان، ص189.

ثالثا: الكناية:

كما نجد القضاة يكثرون في أشعارهم من استخدام الكناية، وهي " ترك التصريح بـ ذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: فلان طويل النجاد، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه، وهو طول القامة..."[(1)]، وهي "أن تطلق اللفظ، وتريد لازم معنـاه مـع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقّيقي"[(2)]، ويكنّي ابن الفرضي عن صفة الخضوع والذل بـ "عند بابك واقف":

أسير الخَطايا عند بابك واقفٌ   على وجل مما به أنتَ عارفُ[(3)]

"الطويل"

والكناية هنا تعطي صورة فنية جميلة، فتصور ذاك المذنب العاصي وقد تاب إلى ربـه وأقلع عن ذنبه، تصوره بذاك الأسير المقيد والمكبل أمام سيده، فتضفي على قاضينا صفة الـذل والخضوع تعالى، وتستشعر صفة الهيبة والجلال والعظمة عز وجلّ، ويكنّي أيـضا عـن نسبة الخضوع إلى اليد اليمنى بـ" طوع يمينه":

إن الذي أصبحتُ طوع يمينهِ   إن لم يكن قمرا فليس بدونهِ[(4)]

"الكامل"

لقد تمكّن هذا الحب من القاضي، فهو لا يستطيع التخلص منه، فالحب قـوي ومـسيطر عليه، وهو بذلك يعكس شعورا نفسيا فيصور الحب بأقوى وأشد أجزاء الجسد وبتلك اليد اليمنـى

---

(1) السكاكي. مفتاح العلوم، ص402.

(2) عباس. البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، ص243.

(3) المقري. نفح الطيب، ج2، ص129. ابن باشكوال. الصلة، قسم2، ص253. ابن خلّكان. وفيات الأعيان، مج3، ص105.

(4) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص286. المقري. نفح الطيب، ج2، ص130. الضبي. بغية الملتمس، ص291. الحميدي. جذوة المقتبس، ص399. ابن باشكوال. الصلة، قسم1، ص255. ابن خلّكان. وفيات الأعيان، مج3، ص106. ابن بسام. الذخيرة،مج2، قسم1، ص616.

الشديدة والقوية، كما أن لها دلالات خاصة وعامة، فاليمين رمز الخير والعطاء، وهو في نفـس الوقت دلالة على القوة والمنعة.

ويكنّي القاضي محمد بن أبي عيسى عن نسبة الخوف إلى الرأس فيقول:

ومن بحارٍ إذا هالتْ بصاحبها أهدتْ له الخوفَ محمولا على الراس[1]

"البسيط"

انعكست حالة القاضي النفسية على كنايته، فهو يصارع النوازل والأخطـار فـي تلـك السفرات، وما أكثر تلك المواقف التي يكون فيها الإنسان رهن الموت، ولا شك أن فـي معنـى السفر دلالات على الألم والقسوة والموت، فالمسافر في خطر مستمر، وهذا جعل القاضي يعبـر عن تلك المعاني، فنسب الخوف إلى الرأس، والرأس أكثر مواضع الجسم ضعفا وحساسية، كـلّ هذا رسمه بصورة فنية رائعة، يستشعر الإنسان من خلالها قلق القاضي وخوفه، وتماوج نفسيته المضطربة.

ويكنّي أبو الوليد الباجي عن صفة الكرم بقوله:

عالي محلّ النار في كَلِبِ الشتا إذْ بالحضيضِ لغيرهِ مستوقَد[2]

"الكامل"

وابن الباجي يمدح قاضي بغداد، فيستخدم كناية موروثة فيصفه بالجود والكرم، فقد كان في مديحه مقلّدا. يكنّي أبو بكر الزبيدي عن صفة الراحة والخمول:

وليس يفيد العلم والحِلم والحِجا أبا مسلمٍ طولُ القعودِ على الكرسي[3]

"الطويل"

---

(1) الحميدي. جذوة المقتبس، ص126.

(2) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص100.

[3] ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص120. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص86. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص181. الضبي، بغية الملتمس، ص57. السيوطي، بغية الوعاة، ص34. ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم، ص66. المراكشي، المعجب، ص63. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص278. المقري. نفح الطيب، ج4، ص7.

يريد أن يقول القاضي إن العلوم لا تنال إلا بالجد والاجتهاد، وليس بالأنساب والمناصب والمقامات، وطول الدعة والخمول كما يتصور البعض، ولئن رمزت الكرسي فـي كثيـر مـن الأحيان إلى القوة والملك والسلطان، فهي هنا تخرج في كنايتها عن هذا الأمر، وتعكس الناحيـة السلبية له، كذلك يكنّي عن صفة الطاعة والانقياد بقوله:

وإذا أمل قـوم أحـدا فإلى ربك فامدد عنُقَك[1]

"الرمل"

إن شعور القاضي الباطني يجعله يتمثّل رهبة ا وقدرته في كلّ حين، فمصيرنا بيد ا عز وجلّ، فلا منجاة لنا من حكمه وقضائه، فالموقف النفسي للقاضي يجعلـه يـصور ضـعف الإنسان أمام ا تعالى، فلا يجدر به غير الاستسلام له والرضا بقضائه، فليس هناك أكثر طاعة وانقيادا من ذاك الكائن الذي مد عنقه، وجعله في متناول الآخرين وسيطرتهم، والعنق هو مجمع السلطة والحياة.

من هنا نجد الاستعارة والمجاز والكناية عند القضاة تلونت بـألوان المـستوى الـديني والثقافي والمعرفي، فجاءت صورة صادقة عن أحاسيسهم وعواطفهم، كما انعكـست نفـسياتهم فيها، فنحت بدلالاتها ومعانيها تبعا للبيئة والمكان، وحسب اهتماماتهم وتعريفاتهم التي يؤمنـون بها.

[1] المقري، نفح الطيب، ج4، ص333.

البناء الموسيقي

- الجناس
- الترديد
- التصريع
- شكل القصيدة وأسلوبها
- الوزن الشعري
- القافية

الجناس[1]

تظهر موسيقا الشعر بالجناس الذي يقوم على أساس التشابه بين اللفظتين في الإيقاع مع اختلافهما في المدلول، فإن اتّفق اللفظان في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئتها الحاصـلة فـي الحركات والسكنات، وترتيبها كان الجناس تاما، وإن اختلف اللفظان في واحد مما ذكـر كـان الجناس ناقصا[2].

ومما سيق على شكل التجانس التام، متطابق الإيقاع بين ركنيه المتجانسين ما يأتي: قول أبي الوليد الباجي في عبادة ا والخضوع له:

وجاهد عن اللذاتِ نفسك جاهدا فإن جهاد النفسِ خير جهادِ[3]

"الطويل"

وقوله:

ثم تؤتى يوم الكتابِ كتابا ناطقا بالفجورِ والآثامِ[4]

"الرمل"

وقول ابن الفرضي في معنى الغزل:

ذلّي له في الحب من سلْطانِهِ وسِقام جسمي من سِقامِ جفونه[5]

"الكامل"

وإذا تأملنا الأمثلة السابقة نجد أن التطابق في الإيقاع بين ركني التجانس يعانقه تطـابق واتّحاد في درجة إحساس الشاعر بهما، وعلى الرغم من اختلاف معنيهما وتباين مدلوليهما فـي

(1) ينظر: الطيب. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج2، ص585.

(2) نجا. قصيدة المديح في الأندلس، ص249. وهبة. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، باب الجيم، ص138.

(3) ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص103.

(4) المصدر نفسه، مج1، قسم2، ص105.

(5) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص286. المقري، نفح الطيب، ج2، ص130. الضبي. بغية الملتمس، ص291. الحميدي. جذوة المقتبس، ص399. ابن باشكوال. الصلة، قسم1، ص255. ابن خلّكان. وفيات الأعيان، مج3، ص106. ابن بسام. الذخيرة، مج2، قسم1، ص616.

الحقّيقة والواقع، فهما متّحدان ومتطابقان في المعنى في نفس الشاعر، فهو من خـلال عواطفـه وأحاسيسه يمزج بين المعاني المتباعدة ويحقّق لها الوحدة، ففي المثال الأول يجانس بـين فعـل الأمر "جاهد" بمعنى امنع واحفظ، واسم الفاعل "جاهدا" بمعنى بذل الجهد والطاقة، فتتحد دلالتهما في نفس الشاعر وإحساسه، فكلا المعنيين يتطلب بذل المشقة والتعب، وذلك من أجل نيل رضـا ا والفوز بالجنّة، وفي المثال الثاني يجانس الشاعر بين لفظة "الكتاب" بمعنى يوم القيامة، ولفظة "كتاب" بمعنى سجلّ أعمال الإنسان يوم القيامة، فكلاهما يحمل معنى وارتباطا واحدا في نفـس الشاعر، فيوم القيامة يكون به الحساب على جميع أعمال الإنسان، وفي المثال الثالـث يتـساوى لدى الشاعر الشعور والإحساس في قوله "سقام" بمعنى المرض والألم، و"سقام" بمعنـى فتـور النظرة ونعاسها، فكلا الأمرين يسبب ويعقب التعب والسهر والعذاب في نفس الشاعر.

ومما سيق من أشعار القضاة على شكل التجانس الناقص، مختلف الإيقاع بين ركنيه المتجانسين ما يأتي: قول القاضي ابن أبي عيسى:

حسبي ا ُ خالقُ الخَلْقِ فالـلّـ ـه على كشْفِ ما عراني قدير[1]

"الخفيف"

قول أبو الوليد الباجي في رثاء ابنيه:

ِ يقَر بعيني أن أزور ثراهما وأُلصقُ مكنون الترائبِ بالتربِ[2]

"الطويل"

ويظهر في المثالين السابقين اختلاف ركني التجانس في عدد الأصوات، مما يؤدي إلـى اختلاف زمن الإيقاع بين المتجانسين، فيكون أحدهما أطول زمنا في ترددات ذبذباته الصوتية[3]،

---

(1) عياض، ترتيب المدارك، ج3_4، ص410.

(2) الأصفهاني. الخريدة، ص500. ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص101. المقري. نفح الطيب، مج2، ص75. ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب، ج1، ص327. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250-351. عياض، ترتيب المدارك، ج3_4، ص807. ابن خاقان. قلائد العقيان، ص189.

(3) نجا. قصيدة المديح في الأندلس، ص253.

ففي المثال الأول تزيد اللفظة الأولّى "خالق" عن اللفظة الثانية "خلق" بحركة الفتحة الطويلة وهي من أصوات المد والتي تعطي صفة التفخيم والاستعلاء، فا أعز وأجلّ من جميع الخلق، كما توحي زيادة الفتحة الطويلة كذلك في المثال الثاني في كلمة "الترائب" بالاستعلاء حيث يعلو الصدر فوق التراب، وينجم عن ذلك كلّه تنوع في الإيقاع والأثر السمعي. ويقول منذر البلوطي بعد أن فرغ من خطبته التي ألقاها بحضرة ملك الروم:

بقلبٍ ذكي ترتمي جنَباتُه كبارق رعدٍ عند رعشِ الأنامل(1)

"الطويل"

ويقول القاضي ابن عبد البر في تقليد العامة علماءها:

وأصِخْ إلى قولي ودن بنصيحتي واحفظْ علي بوادري ونوادري(2)

"الكامل"

والتجانس الناقص في المثالين السابقين سيق مختلفا في مسافة إيقاعه نتيجة لاختلاف نوع الأصوات بين المتجانسين، وتنعقد المجانسة في المثال الأول بين اللفظين "رعد" و"رعش"، فهما يختلفان في الصوت الأخير، ولئن كان هناك تقارب نسبي بين مخرج الدال الأسناني اللثوي ومخرج الشين الغاري، فهذا يعود لتقارب المعنى بينهما فكلاهما يدلان على الحركة والاهتزاز، لكن صوت الدال يتسم بملمحي الجهر والانفجار، فيكسب اللفظ القوة والشدة، بينما يتسم صوت الشين بملمح الهمس فيكسب اللفظ السكينة والهدوء، وملمح الاحتكاك يعطينا صورة لحالة الإنسان الخائف من صوت الرعد والمرتجف من برد السماء والذي أخذ يحك أطرافه بعضها ببعض، وملمح التفشي يجعل الصفة تنتشر في جميع أطراف الموصوف ويكسبها صفة الاستمرارية، وفي المثال الثاني نجد المجانسة بين اللفظين "بوادري" و"نوادري"، فهما يختلفان في الصوت الأول، فبوادر الكلام بدايته، وغالبا ما تكون معانيه سطحية الدلالة وناقصة، بينما

---

(1) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص244. المقري. نفح الطيب، ج1، ص373. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص184. المراكشي. المعجب، ص56. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص296.

(2) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص291.

النوادر تكون للمعاني الطريفة والثمينة، ومخرج الباء من الشفتين اللتين تعدان آخـر المخـارج الصوتية، ويتسم بملمح الجهر والانفجار، فيخرج التيار الهوائي له بعد انحباسـه خلـف نقطـة انطباق الشفتين فانفراجهما فجأة محدثا صوتا انفجاريا، وهذا يعطي الصوت صفة الاندفاع وعدم إصابة الهدف وسلبية النتيجة، بينما صوت النون لثوي متوسط المخرج يحمل ملمـح الأنفيـة، فيكسب الصوت قوة في المعنى والدلالة.

الترديد

ويكون بأن "يأتي الشاعر بلفظة متعلّقة بمعنى، ثم يرددها بعينها متعلّقة بمعنى آخر في البيت نفسه، أو في قسيم منه"[1] ، وذلك بهدف تفجير طاقتها المعنوية في السياق، وتوليد الإيقاع الموسيقي من خلال تردد أصوات الكلمتين، وقد أكثر القضاة من التردد واعتمدوا عليه، شأنهم في ذلك شأن شعراء الأندلس[2]، فمنه ما سيق على أحد طرفيه في صدر المصراع الأول، والطرف الآخر في صدر المصراع الثاني من البيت، ومنه: قول أبي الوليد الباجي في رثاء ابنه:

ورزئْتُ قبلَك بالنبي محمدٍ   ولَرزؤه أدهى لدي وأعظَم[3]

"الكامل"

وقول ابن أبي عيسى:

يحن إلى طيباتِ الطعامِ   حنين الرضيع إلى الوالدهْ[4]

"المتقارب"

ومنه ما سيق أحد طرفيه في عجز المصراع الأول، والآخر في عجز المصراع الثاني من البيت، ومنه: يقول ابن الفرضي:

فيا سيدي لا تُخْزني في صحيفتي   إذا نُشرتْ يوم الحساب الصحائفُ[5]

"الطويل"

---

(1) ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني. العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج2، ص2. ط1، تحقّيق: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي. محلّ محمد أمين الخانجي الكتبي وشركاه بمصر: 1325هـ- 1907م.

(2) نجا. قصيدة المديح في الأندلس، ص258.

(3) ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص101. المقري. نفح الطيب، مج2، ص75. ابن خاقان. قلائد العقيان، ص189.

(4) الطبيب. كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص244. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص410.

(5) المقري. نفح الطيب، ج2، ص129. ابن باشكوال. الصلة، قسم2، ص253. ابن خلّكان. وفيات الأعيان، مج3، ص105.

وقول منذر بن سعيد البلوطي:

فلا تكن مغرما برزق غَدٍ   فلستَ تدري بما يجيء غد[1]

"المنسرح"

ومنه ما سيق أحد طرفيه في عجز المصراع الأول، والآخر في حشو المصراع الثاني من البيت، ومنه:

وقول منذر بن سعيد البلوطي:

يا سفيها قد حان منك رحيلٌ   بعد ذاك الرحيل يوم عصيب[2]

"الخفيف"

وقول أبي بكر الزبيدي:

الفقر في أوطاننا غربةٌ   والمالُ في الغربةِ أوطان[3]

"السريع"

ومنه ما سيق أحد طرفيه في حشو المصراع الأول، والآخر في عجز المصراع الثاني من البيت، ومنه:

يقول ابن الفرضي:

سأستعتب الدهر المفرقَ بيننـا   وهل نافعي أن صرتُ أستعتب الدهرا[4]

"الطويل"

---

(1) المقري. نفح الطيب، ج1، ص374.

(2) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص239. المقري. نفح الطيب، ج1، ص375.

(3) الثعالبي. يتيمة الدهر ، ج2، ص81.

(4) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام. الذخيرة، مج2، قسم1،ص615. المقري. نفح الطيب، ج2، ص131. الضبي. بغية الملتمس، ص291. الحميدي. جذوة المقتبس، ص398. الصلة، قسم1ص255.

قول ابن الفرضي:

مضتْ لي شهور منذُ[1] غبتم ثلاثةٌ   وما خلتني أبقى إذا غبتم شهرا[2]

" الطويل"

ويقول محمد بن أبي عيسى:

وقبيح صبر الخليل أخي الوجـ   ـدِ عن الدمع عند ذكر الخليل[3]

" الخفيف"

ومنه ما سيق أحد طرفيه في صدر المصراع الأول، والآخر في عجز المصراع الثاني من البيت، ومنه:

يقول ابن الفرضي:

يخافُ ذنوبا لم يغب عنك غيبها   ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائفُ[4]

"الطويل"

ويقول محمد بن أبي عيسى:

يا قليلَ الإنصافِ في الهجرِ مهلا   إن وجدي عليك غير قليل[5]

"الخفيف"

---

(1) وردت في التراجم (مذ)، والوزن لا يستقيم إلا ب(منذُ).

(2) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب، ص62. ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام. الذخيرة، مج2، قسم1،ص615. المقري. نفح الطيب، ج2، ص131. الضبي. بغية الملتمس، ص291. الحميدي. جذوة المقتبس، ص398. الصلة، قسم1ص255.

(3) يتيمة الدهر، ج2، ص72.

(4) المقري. نفح الطيب، ج2، ص129. ابن باشكوال. الصلة، قسم2، ص253. ابن خلّكان. وفيات الأعيان، مج3، ص105.

(5) الثعالبي. يتيمة الدهر، ج2، ص72. عياض، ترتيب المدارك، ج3_4، ص411.

لقد جاء الترديد بكثرة في أشعار القضاة، ولئن كان سمة بارزة في الأدب الأندلسي بشكل عام، غير أنّنا نجده عندهم أوضح منه عند غيرهم، فقد ارتبط عندهم بحالتهم النفسية، فتفاعلات أحاسيسهم وعواطفهم مع البيئة والمؤثّرات من حولهم، فكانت الكلمة المرددة تمثّل محورية البيت، والمعنى يدور بأكمله حولها، فحقّقت بذلك نوعا من التوكيد، وجذب انتباه السامعين.

التدوير

"وهو أن يكون شطرا البيت مشتركين في كلمة واحدة"[1]، بحيث تنقسم الكلمة قسمين، فيدخل الجزء الأول منها في تفعيلة العروض، والجزء الثاني في التفعيلة الأولى من عجز البيت، وهذا التدوير يحقّق تواصلا في الأشطر يؤدي إلى سرعة الإيقاع، كما يضمن وحدة المقاطع أو الأجزاء التي يرد فيها، وبالتالي يحقّق وحدة نغمية في القصيدة ككلّ، أضف إلى ذلك أنّه يسمح بتعدد النغمات وتنوعها بين الشطر والآخر[2]، ونجد لدى القضاة بعض النماذج على ذلك، فيقول ابن أبي عيسى:

حسبي ا ُ خالقُ الخَلْق فاللّـ ـه على كشْفِ ما عراني قدير[3]

"الخفيف"

فجعل لفظ الجلالة بؤرة محورية تربط بين شقّي البيت، وتعكس من خلالها الموقف النفسي الذي يستشعر به في كلّ حين، فقد جعل من لفظ الجلالة رابطا لغويا يعكس رابطا دلاليا ومعنويا، فربط لفظ الجلالة بالخالق في شقّه الأول، وبالكشف في شقّه الثاني، وهو بذلك يشير إلى إيمانه العميق با ، وحتمية كشف الضر عن الخلق. ويقول الزبيدي:

سامرييـ ـن يقولـ و ن جميعا: "لا مِساسـا!"[4]

"مجزوء الرمل"

فالموصل بين المصراعين هو الفعل (يقولون) ، فربطه بما قبله لتأكيد نسبة القول إلى السامريين، وبما بعده لإلصاق القول بالمقول، فهذا المعنى شديد الصلة والترابط مع بعضه بعضا.

---

(1) أحمد، محمد، ومولاي حفيظ بابوي، وبشرى عليطي. البنية الإيقاعية في شعر عز الدين المناصرة، ص93. ط1، منشورات اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين، القدس: 1998م.

(2) المرجع نفسه، ص93.

(3) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص410.

(4) للمقري. نفح الطيب، ج3، ص476. ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص673.

ويقول ابن عبد البر:

فإذا اقتديتَ فبالكتابِ وسنّةِ الـ   مبعوثِ بالدين الحنيفِ الطاهر[1]

"الكامل"

فهو يربط بين القرآن والسنّة من جهة، والدين الإسلامي من جهة أخرى، ونرى كلمـة (المبعوث) جاءت لتدور البيت، فالمبعوث هو الرسول، وبرسالته هذه جاء بالقرآن والسنّة اللذين يكون بهما إحياء الدين الإسلامي. فكلمة (المبعوث) أوصلت وربطت الإسلام بالكتاب والـسنّة، وبهذا الترابط اللغوي عبر أيضا عن الترابط النفسي والواقعي.

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص292.

التصريع

التصريع "هو أن يجعل الشاعر العروض والضرب متشابهين في الوزن والـروي فـي البيت المصرع على أن يكون عروض البيت فيه تابعـة لـضربه، تـنقص بنقـصه، وتزيـد بزيادته"[1]، ولم يكن التصريع ظاهرة حديثة، بل هي ظاهرة موسيقية قديمـة، فقـد اسـتخدمها الشعراء منذ العصر الجاهلي، ولا سيما تصريع البيت الأول من القصائد، وقد أولع الأندلـسيون في استخدامه لأنه صادف هوى في أنفسهم، ونزوعا إلى تطلّب الاكتناز النغمي والإيقاعي، فقـد افتنّوا وأولعوا بالموسيقا حتّى أفضى ذلك إلى ظهور فن الموشّح وازدهاره[2]. وهكذا فقد اهـتم القضاة بتوظيف التصريع في كثير من مطالع قصائدهم، يقول ابن الفرضي في مطلع مقطوعتـه في معنى العبادة والخضوع :

أسير الخَطايا عند بابك واقفٌ   على وجل مما به أنتَ عارفُ[3]

"الطويل"

ويقول أبو الوليد الباجي في مدح قاضي بغداد:

يا بعد صبرك أتهموا أم أنجدوا   هيهاتَ منك تصبر وتجلد[4]

"الكامل"

ويقول كذلك في مدح الأمير معز الدولة أبي علوان بن أسد الدولة:

محلّ الهوى من سر حبك آهلُ   وصرفُ النوى عن شَمل شوقي غافِلُ[5]

"الطويل"

---

(1) يعقوب، إميل بديع. المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، ط1، ص193-194. دار الكتب العلمية، بيروت: 1411هـ- 1991م.

(2) نجا. قصيدة المديح في الأندلس، ص264.

(3) المقري. نفح الطيب، ج2، ص129. ابن باشكوال. الصلة، قسم2، ص253. ابن خلّكان. وفيات الأعيان، مج3، ص105.

(4) ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص99.

(5) المصدر نفسه. مج1، قسم2، ص102.

ويقول القاضي منذر بن سعيد في الزهد:

كم تصابى وقد علاك المشيب وتعامى عمدا وأنتَ اللبيب[1]

"الخفيف"

ويقول القاضي ابن الصفّار في التصوف والزهد:

فررتُ إليك من ظلمي لنفسي وأوحشني العباد وأنتَ أنسي[2]

"الوافر"

ونحن نجد التصريع مستخدما بكثرة عند القضاة في مختلف الأغراض وعلى جميع المستويات من بيت ونتفة ومقطوعة وقصيدة، وذلك لأن في التصريع جلبا لانتباه السامعين، ومنصب القضاء أحوج ما يكون لذلك، كذلك كانت تلك المقدمات مناسبة لمضمون القصائد أو المقطوعات، وألفاظها لطيفة تستحوذ على انتباه السامعين، وتبتعد عما ينفّرهم، "فقد حرص الأندلسيون في الابتداء أن يتخير الشاعر في مقدمة القصيدة ما لطف من الألفاظ، لأنه أول ما يقرع السمع، ولذلك فإن أكثر ما يعاب على الشعراء إذا بدؤوا قصائدهم بما يتطير به من الألفاظ"[3].

(1) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص239. المقري. نفح الطيب، ج1، ص375.

(2) الضبي. بغية الملتمس، ص447. الحميدي. جذوة المقتبس، ص613. ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص289. المقري. نفح الطيب، ج4 ،ص26.

(3) عبد الرحيم، مصطفى عليان. تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص391. مؤسسة الرسالة.

شكل القصيدة وأسلوبها

عرف الأندلسيون في أشعارهم القصيدة الطويلة، والمقطوعة، والنتفة، والبيت المستقل، ولم يستأثروا بشكل دون الآخر، وقد قمنا بدراسة مائة وثلاثة عشر (113) شكلا ما بين قصيدة ومقطوعة ونتفة وبيت مستقل، بواقع أربعمائة وأربعة وتسعين بيتا (494)، فكان لدينا ستّ وعشرون قصيدة (23%) بواقع مئتي وخمسة وأربعين بيتا (49.6%)، وثلاث وأربعون مقطوعة (38%) بواقع مائة وستّة وستّين بيتا (33.6%)، وتسع وثلاثون نتفة (34.5%) بواقع ثمانية وسبعين بيتا (15.8%)، وخمسة أبيات مستقلّة (4.5 %) بواقع (1%)، وهكذا فمن خلال دراستنا أشعار القضاة وجدنا أن السمة الغالبة عليها جاءت على شكل قطع قصيرة لا تتجاوز ستة أبيات كما أن هذه القصائد كانت من النوع القصير الذي لا يتجاوز الاثني عشر بيتا، غير قصيدة واحدة لأبي الوليد الباجي يمدح بها قاضي بغداد السمناني بلغت ثلاثة وعشرين بيتا، يقول في مطلعها:

يا بعد صبرك أتهموا أم أنجدوا هيهاتَ منك تصبر وتجلد[1]

"الكامل"

وإذا تفحصنا أشعار القضاة نجد القصائد -على قلّتها- موزعة على أغراض الحنين، والرثاء، والعلم، فكان نصيب غرض الشوق والحنين من القصائد خمسا من بين عشرة نماذج شعرية وبنسبة خمسين بالمائة، وفي الرثاء قصيدتان من بين ثلاثة وبنسبة سبع وستّين بالمائة، وفي العلم أربعة قصائد من بين عشرة وبنسبة أربعين بالمائة، وهذا يجعلنا نخرج بأمرين، أولهما صدق عاطفة القضاة وطول معاناتهم، فغرضا الحنين والرثاء ينبعان من عاطفة صادقة تفيض بالحزن والأسى على فراق الإخوان والخلان، ويشيران إلى طول الفرقة والمعاناة، فالمرثي يعقب خلفه مرارة وحزنا شديدين لا يزولان إلا بعد طول دهر وعناء، كما كانت للرحلات القضاة العلمية الطويلة الأثر البالغ في اشتداد الألم والشوق والمعاناة لطول غيابهم عن الأهل والأصحاب، وثانيهما الاهتمام بالعلم وتجشّم الأخطار والأهوال في سبيله، فمن طلب العلا سهر

(1) ابن بسام: الذخيرة، مج1، قسم2، ص99.

الليالي، وجاب بلاد المشرق والمغرب، ولهذا جاءت هذه الأغراض ذات طابع قصائدي طويلـة استطاع القضاة من خلال الكم العددي لأبياتها أن يعكسوا عبء المعاناة وطولها.

ونشير إلى أن هذه القصائد جميعها قد جاءت على نسق واحد، فلم تنح منحـى تقليـديا بالغزل والوقوف على الأطلال ووصف الرحلة ، بل طرق القضاة الغرض مباشرة دون تقـديم، فأحاسيسهم وعواطفهم صادقة ابتعدت بهم عن التقليد والمحاكاة والاهتمام بالشكل الفنّي، فكانـت الوحدة العضوية، وهي "وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، وما يـستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا به تتقدم القصيدة شيئا فشيئا حتّى تنتهـي إلـى خاتمـة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية، لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر"(1)، وعلى خلاف ذلك فإنّنا نجد قصائد المديح تلتزم بالشكل التقليدي، فتبدأ بالنسيب أو وصف الطبيعـة، و بعـد ذلـك وصف الرحلة إلى ديار الممدوح، وذلك لأن في غرض المديح الصنعة والتكلّف، وطلـب الـود والعطاء، فيكون الاهتمام بالشكل الفنّي أمرا لازما.

ونجد المقطوعات الشعرية تتفشّى وتزدحم في أغراض الوصف، والغـزل، والهجـاء، والزهد، والأخلاق، فلم يحفل القضاة بالوصف سوى ابن عباد، وقد كان وصـفه علـى شـكل مقطوعات انفرادية تتّفق مع شعر شعراء عصره، وكذلك نجدهم يبتعدون عن الغزل سـوى مـا جاء عرضا خاليا من الحس والعاطفة، فقد تساموا عن النظم في هذا الغرض ابتعادا منهم عـن الخطايا، وتنزيها لهم عن الصغائر والدنايا، ولم يؤثروا الإطالة في غرض الهجاء لتنافيـه مـع محاسن القضاء وأخلاقه، ونحوا به منحى جديدا بعيدا عن الفاحشة والرذيلة وشتم الأنساب وهتك الإعراض، بينما كان غرضا الزهد والأخلاق محلّ عناية واهتمام لديهم، فلئن غلب عليهما شكل المقطوعة إلا أنّهما استعاضا عن ذلك بالكم العددي، فقد كثرت هذه المقطوعات فبلغت الثلاثين، كما أن المقطوعة أكثر استيعابا لهذا الغرض، فهـي لا تتطلـب التحـضير المـسبق والعنايـة والمراجعة كما هو الحال في القصيدة، وإنّما يرتجلها الشاعر مع الطبع والبديهة، فتكون ملازمة للموقف والمقام، وما أكثر تلك المواقف التي يحتاجها القضاة لتذكير العامـة والخاصـة بالـدين

(1) هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، ص394. دار العودة، بيروت: 1987م.

الحنيف وحسن الأخلاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بقي أن نشير إلى أن بعض هذه المقطوعات ربما كان قصائد طويلة لم تصل إلينا، فللقاضي عباس بن ناصح قصيدة لـم يـصل منها سوى مطلعها وخاتمتها، فيقول في المطلع:

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدم — إذا المرء لم يعدل تقى ا والكرم

وينتهي بقوله:

تجافَ عن الدنيا فما لمعجزٍ — ولا عاجز إلا الذي خطّ بالقلم[1]

"الطويل"

وللقاضي أبي بكر الزبيدي في رثاء شيخه علي بن إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي اللغـوي قصيدة طويلة لم يصل إلينا منها سوى مطلعها:

تا لا يبقى لصرفِ النّوى — ذو جبدٍ في رأس نيقٍ منيفْ[2]

"السريع"

---

[1] المقري. نفح الطيب، ج2، ص261. ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب، ج1، ص246. الصفدي. الوافي بالوفيات، ج16، ص645.

[2] الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج2، ص81.

الوزن الشعري

ومن خلال دراستنا أشعار القضاة نجدها قد نظمت على أحد عشر بحرا عروضيا، وتتّفق نسبة شيوع بعضها مع نسبة شيوع البحور في الشعر العربي بشكل عام[1]، فقد احتلّ الطويل النصيب الأكبر (30%)، يليه حسب الترتيب البسيط (16.8%)، والمتقارب (8.9%)، والكامل (8.8%)، والسريع (8%)، والخفيف (6.2%)، والوافر (5.3%)، والمنسرح (4.4%)، ومخلّع البسيط (3.5%)، ومجزوء المجتثّ (2.7%)، والرمل (2.65%)، ومجزوء الرمل (2.65%)والرجز(1.8%)، ومجزوء الكامل (0.9%)، ومجزوء الوافر (0.9%). فالبحر الطويل بقي محافظا على نسبته وأكثريته، فقد "نُظم منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي"، بينما نجد الوافر والخفيف تقلّ نسبتهما عن نسبة شيوعهما، ويتقدم عليهما المتقارب والسريع[2].

ولا تهمنا هذه النسبة بمقدار ما تهمنا نسبة شيوعها في كلّ غرض شعري على حدة، وذلك لأن "الباحثين يعقدون الصلة بين عاطفة الشاعر وما تخيره من أوزان لشعره"[3]، و"الشاعر يختار البحور التي تلائم صوته قوة وضعفا، فالشاعر الطاعن في السن، والشاعر الضعيف الجسم، والشاعر الخفيض الصوت، والشاعر المريض بأمراض الصدر كالربو والنزلات الشعبية وغيرها، يعجزهم أن ينشدوا من البحر الطويل أو البحر البسيط لطولهما الذي يجعلهما أشبه شيء بالخطبة، حتّى ليحتاج المنشد لهما أن يلتقط أنفاسه عقب كلّ بيت"[4]، فالقاضي ابن أبي عيسى يتقدم به العمر ويدنو أجله، فيأمر أن يكتب على سريره قصيدة من ثمانية أبيات ينظمها على البحر الخفيف، فهو "أخفّ البحور على الطبع وأطلاها للسمع يشبه الوافر لينا، ولكنّه أكثر سهولة وأقرب انسجاما"[5]:

لا يغُرنّك يا محمد ليلٌ   بت فيه على فراشٍ وثير

---

(1) أنيس، إبراهيم: موسيقى الشعر، ص59-139. ط5، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر:1978.

(2) المرجع نفسه، ص191.

(3)المرجع نفسه، ص178.

(4) الجندي، علي: الشعراء وإنشاد الشعر، ص100. دار المعارف، القاهرة: 1967م- 1387هـ.

(5) البستاني، سليمان: شرح إلياذة هوميروس، مج1، ص93. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت. الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر، ص106.

قرب الموتَ منك مر الليالي   وأرى النقص[1] واضح التعبير[2]

"الخفيف"

وإذا رجعنا لمدحتي الباجي في أمير حاب معز الدولة وفي المعتضد با نجد الأولّى قد نظمها في ريعان شبابه، فاختار البحر الطويل الذي يلائم صوته وجسمه قوة، كما أنه أكثر مـن عدد أبيات القصيدة، فبلغت الاثني عشر:

محلّ الهوى من سر حبك آهلُ   وصرفُ النوى عن شَمل شوقي عَاِفلُ[3]

"الطويل"

بينما لم تتعد مقطوعته في المعتضد البيتين، وابتعد في نظمها عن البحور الطويلة التامة واختار مخلّع البسيط:

عباد استعبد البرايـا   بأنعـمٍ تبلـغُ النعائـم

مديحه خِيم كل نفـسٍ   حتّى تَغنَتْ بِهِ الحمائم[4]

"مخلع البسيط"

وإذا أنعمنا النظر في نسبة شيوع البحور العروضية في الأغراض الـشعرية نـرى أن غرض الشوق والحنين نظم على بحور طويلة كالطويل والبسيط، وبحور قصيرة وهـي الأعـم كالخفيف والسريع والوافر ومخلّع البسيط، وهذا الغرض ينبع من عاطفة صادقة ونفس منفعلـة تنسجم معها البحور القصيرة، وقد غلب استخدام الخفيف من بين هذه البحور فهو سهل خفيـف يتّفق مع هذا الغرض، وقد جاءت البحور الطويلة على شكل مقطوعات باستثناء واحد، فالشاعر

---

(1) جاءت في المصدر بإضافة كلمة (منك) ولا يستقيم الوزن إلا بحذفها.

(2) عياض، ترتيب المدارك، ج3_4، ص409.

(3) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص102. المقري، نفح الطيب، مج2، ص84.

(4) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص100. المقري، نفح الطيب، مج2، ص76. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250.

"ساعة الانفعال النفساني يميل عادة إلى تخير البحور القصيرة، وإلى التقليل من الأبيات"[1]، ولو عقدنا مقارنة بين قصيدة ابن الفرضي على البحر الطويل:

مضتْ لي شهور مذُ[2] غبتم ثلاثةٌ   وما خلتني أبقى إذا غبتـم شهـرا

وما لي حياةٌ بعدكـم أستلـذهـا   ولو كان هذا لم أكن بعدها حـرا

رعتكم من الرحمن عين بصيـرةٌ   ولا كشفتْ أيدي الردى عنكم سترا[3]

"الطويل"

وقصيدة ابن أبي عيسى على البحر الخفيف:

لا تلمنـي على البكـا والعويـل   ذكّرتنـي نخيـلُ فاسٍ نخيلـي

وانسكاب الأمواهِ من خلال الضـ   حى دموع الأحبابِ يوم الرحيل

فعلـتْ زفرتي وطـالَ انتحابـي   وبدتْ لوعتي وهاج غليلـي[4]

"الخفيف"

فنجد العاطفة وحرارتها عند ابن أبي عيسى أوضح وأصدق منها عند ابن الفرضي، فابن أبي عيسى يتفاعل مع أحاسيسه وعواطفه فيستخدم مفردات الحزن والبكاء بكثرة حتّـى لنـشعر بصورة حية تجسد القاضي في موقف تراجيدي مرير (البكا، العويل، نخيلي، انسكاب، دمـوع، الأحباب، فعلت، زفرتي، انتحابي، لوعتي، غليلي)، بينما لا نجد قوة هذه العاطفـة عنـد ابـن الفرضي، فلا يهتم في الكشف عن مشاعره وأحاسيسه، ويشغل نفسه في التأريخ (شهور، شهرا)، وأسلوب الشرط الذي يضعف العاطفة.

(1) أنيس. موسيقى الشعر، ص179.

(2) وردت في التراجم (مذ)، والوزن لا يستقيم إلا ب(مذُ).

(3) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام، الذخيرة، مج2، قسم1، ص 615-616. المقري، نفح الطيب، ج2، ص131. الضبي، بغية الملتمس، ص291. الحميدي، جذوة المقتبس، ص398-399. ابن باشكوال، الصلة، قسم1، ص255. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص62.

(4) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج2، ص72. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص409-411.

ونجد الزهد يكثر نظمه على المتقارب، ففي الزهد تجلّيات صوفية، وقسوة على الـذات وتعنيف لها، وهو "بحر فيه رنّة ونغمة مطربة، على شدة مأنوسة، وهو أصلح للعنـف والـسير السريع"(1)، ولئن كثر نظم الزهريات على بحر الرمل "فيجود نظمه فـي الأحـزان والأفـراح والزهريات، ولهذا لعب به الأندلسيون كل ملعب، وأخرجوا منه ضروب الموشّحات"(2) إلا إنّنا لا نجده في وصف القضاة، ولعلّ ذلك يرجع إلى عدم اهتمام قضاتنا بهذا الغرض، وانشغالهم عنـه بأمور الدين والقضاء، غير إنّنا نجد مقطوعة نظمت على البحر السريع الذي "يتـدفّق سلاسـة وعذوبة يحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف"(3)، فالقاضي ابن عباد يـشبه شـجرة الياسـمين بمطرف (ثوب من حرير) أخضر:

وياسمينٍ حسـن المنظـر	يفوقُ في المرأى وفي المخبر
كأنما(4) من فوقِ أغصانِهِ	دراهم في مطرفٍ أخضر(5)

"السريع"

وجاءت أشعار الرثاء على ثلاثة بحور هي السريع والكامل والبسيط، والرثاء غـرض تفيض فيه المشاعر والأحاسيس، ويمتاز بصدق العاطفة وحرارتها، والسريع "بحر يتدفّق سلاسة وعذوبة، فيحسن فيه الوصف،وتمثيل العواطف الفياضة(6)، فالقاضي أبو بكر الزبيـدي يرثـي شيخه على بن إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي اللغوي بقصيدة طويلة لم يصلنا منهـا سـوى مطلعها:

تا لا يبقى لصرفِ النّوى	ذو جيدٍ في رأسِ نيقٍ منيفْ(7)

"السريع"

(1) الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر، ص106.

(2) البستاني، سليمان: شرح إلياذة هوميروس، مج1، ص93.

(3)المرجع نفسه، مج1، ص93.

(4) وردت في المصادر (كأن) وبها لا يستقيم الوزن.

(5) ابن بسام. الذخيرة، ج1، قسم2، ص23. ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص38.

(6) الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر، ص106.

(7) الثعالبي: يتيمة الدهر ، ج2، ص81.

وتبقى قصيدتان في الرثاء للقاضي الباجي، جاءت إحداهما على البحر الكامل يرثي بهـا ابنه محمدا، والأخرى على الطويل يرثي بها ابنيه، لقد مات ابنان للبـاجي فـي أرض الغربـة أحدهما محمد، وقد صرح باسمه في قصيدته الأولى، بينما لم يصرح باسمي ولديه كليهمـا فـي القصيدة الثانية، وهذا يضعنا أمام تساؤل، هل مات الاثنان معا، أم سبق أحدهما الآخـر؟ ومـن السابق منهما؟، ونحن نستبعد الاحتمال الأول، ونرجح الاحتمال الثاني، فلو توفى ابناه معا لمـا خص ابنه محمدا في قصيدة مستقلّة، وكذلك نرى أن موت محمد سبق موت أخيه، فالأخ لم يرث إلا مع محمد، بينما رثي محمد منفردا.

من هنا ندرك أن القصيدة الأولى أسبق من الثانية، وقد كان رثاؤه لمحمد عاجلا، ووقت حدوث المصيبة فكان انفعاله النفسي في أشده، وعواطفه ومشاعره أكثر حرارة، بينمـا رثـاؤه لابنيه كان بعد مضي فترة زمنية، ومصحوبا بحالة من اليأس والجزع، فمحمد لم يكن قد مـات في تلك اللحظة، كما نستبعد أيضا أن يكون موت الأخ حديثا، فلو كان كذلك لرثاه فـي قـصيدة مستقلّة كما فعل مع محمد، "على أنّنا نستطيع ونحن مطمئنّون أن نقرر أن الـشاعر فـي حالـة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفّس عنه حزنـه وجزعه، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثّر بالانفعال النفسي، وتطلّب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة التنفّس وازدياد النبضات القلبية"[1]، وإذا كانت القصيدة الأولى نظمـت علـى البحـر الكامل، والثانية على الطويل، "والطويل والبسيط أطول بحور الشعر العربي"[2] فإنّنا بهذا نجـد رثاءه لابنه محمد في القصيدة الأولى أكثر عاطفة وحرارة:

أمحمد إن كنـتُ بعدك صابـرا	صبر السليمِ لمـا بـهِ لا يسأـم
فلقد علمـتُ بأنني بـك لاحـقٌ	مـن بعـدِ ظني أننـي متَقَـدم
وبكل أرضٍ لي من آجالك روعةٌ	وبكـل قَبـرٍ عبـرةٌ وترنّـم
فإذا دعوتُ سواك حاد عن اسمِهِ	ودعاه باسمِك مِقولٌ بك مغـرم

(1) أنيس. موسيقى الشعر، ص177-178.

(2) الطيب. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج1، ص362.

فلئن جزعـتُ فإن ربي عـاذر   ولئن صبرتُ فإن صبري أكرم [1]

"الكامل"

فهو يصرح باسمه مستخدما أسلوب نداء القريب، فابنه قريب منه، ولم يمض على وفاته وقت بعد، ولا يكاد يتحمل ثقل هذه المصيبة فهو على وشك الموت واللحاق به، وتـأتي ألفاظـه حاملة معاني البكاء والحزن والحسرة (روعة، قبر، عبرة، ترنّم، جزعت، صبرت).

ونجد شعر الشكوى نظم على البحور الطويلة لتكون متّسعا لدى الشاعر للتنفـيس عـن آلامه وأحزانه فيبثّ شكواه بنفس طويل، كذلك يشيع شعر العلم في البحـور الطويلـة والبحـر الكامل، فهي تستوعب كافّة المعاني، وتصلح لكلّ الأغراض[2]، إضافة إلى ذلك فهي تعكس طول باع القضاة في العلم، وحجم الجهد والمعاناة من جراء تعلّمه وتعليمه، وينظم الفخر على البحـر الطويل والوافر، فالطويل يستوعب الأغراض كافّة، ويتناسب مع الدافع لغـرض الفخـر الـذي يضخّم فيه صاحبه من ضمير الأنا ويطيل نفسه، والوافر "ألين البحور، يشتد إذا شددته، ويـرقّ إذا رققته، وأكثر ما يجود به النظم في الفخر كمعلّقة عمرو بن كلثوم"[3]، وكثر نظـم غـرض المراسلات على البحور البسيطة والمجزوءة، فهي "تصلح للأناشيد والتوشيحات الخفيفة وأفكـار الهزل والمجون"[4]، فقد كتب القاضي منذر البلوطي إلى أبي علي البغدادي يستعير منه كتابا:

بحقّ ريمٍ مهفهـفْ   وصدغِهِ المتعطـفْ

ابعـثْ إلـي بجـزءٍ   من الغريبِ المصنّفْ[5]

"مجزوء المجتث"

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص101-102. المقري، نفح الطيب، ج2، ص75. ابن خاقان، قلائد العقيان، ص189.

(2) البستاني، سليمان: شرح إلياذة هوميروس، مج1، ص91-92.

(3) المرجع نفسه. مج1، ص92.

(4) الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر، ص107.

(5) المقري، نفح الطيب، مج2، ص20. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص184.

القافية[1]

حظيت القافية باهتمام الشعراء والنقّاد، وهي بمثابة السجع في النثر، فهي قـوام الـشعر وملاكه، وهي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعرا حتّـى يكـون لـه وزن وقافية[2]، ويعد حرف الروي[3] أبرز حروف القافية وأهمها، ولكن هل كان الشعراء يختـارون القوافي المناسبة لمعانيهم وأغراضهم كما لاحظنا مناسبة كثير من البحور لأغراضها؟، وللإجابة عن هذ السؤال نجد الأستاذ سليمان البستاني يقول: "ولا ريب أن اختيار قافية القصيدة أبعد منالا من اختيار بحرها، وذلك بنسبة ما يربو عدد القوافي على عدد البحور، والمرجع في ذلك إلـى سلامة الذوق وغزارة المادة، فالقريحة الجيدة في غنى عن أصول توضع لها بهذا المعنى، ولـو فرضنا من الممكن وضع مثل هذه الأصول فهي من نفسها تقع على القافية والبحر بلا جهد ولا تردد، ومع هذا فلا بأس من إيراد بعض ملاحظات تتراءى للناظم أثناء النظم، وللقـارئ أثنـاء القراءة"[4].

ويشير النقّاد إلى أن هناك حروف روي ضعيفة وكريهة، وينبغى على الشعراء اجتنابها، "وهي على الترتيب: الثاء، والخاء، والذال، والزاي، والشين، والصاد، والطاء، والظاء، والغين، والواو"[5]، "وليست كراهة هذه الألفاظ في أجراسها الغليظة المنفّرة فقط، فإن لها عيبا آخر هـو قلّتها في اللغة العربية، فإذا نظم الشاعر منها ضيق على نفسه ما وسعه ا عليه، فإما أن يكتفي بالمقطوعات التي لا تستوعب غرضه كلّه، وإما أن يعيدها بنفسها، فيعيد قبحا مرتين!"[6].

---

(1) القافية: "هي الأحرف والحركات التي على الشاعر أن يستلزمها في آخر كلّ بيت من أبيات القصيدة الواحدة، وتقوم على حرف يسمى الروي، يسبقه أو يلحقّ به أحرف وحركات ثابتة": سمعان، سعيد. الجديد في البيان والعروض، ص268. مكتبة لبنان، بيروت: 1969م. وهي على رأي الخليل آخر ساكنين في البيت، وما بينهما، والمتحرك قبل أولهما، وعند الأخفش آخر كلمة في البيت: وهبة. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، باب القاف، ص282.

(2) الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر، ص113.

(3) الروي: هو "أحد أحرف القافية الذي تبنى عليه القصيدة، ويتكرر بتكرر أبياتها، وتنسب غليه عادة": وهبة. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، باب الراء، ص190.

(4) البستاني، سليمان: شرح إلياذة هوميروس، مج1، ص95-96.

(5) الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر، ص120.

(6) المرجع نفسه، ص122.

ونحن في دراستنا هذه لا نجد القضاة ينظمون على هذه الحروف سوى مرتين، الأولّى مقطوعة لأبن عباد نظمها على حرف الذال وتمثّلت في غرض الوصف، وكما رأينا سابقا لم يحفل قضاتنا بالوصف، ولم يكن ينبع لديهم من عاطفة صادقة، بل كان ضربا من التفنّن وإظهار البراعة الفنية واللغوية، وهذا ما قاد القاضي إلى النظم على حرف الذال الذي تضحل مفرداته المعجمية، فكانت القافية الأخيرة، موطن خلاف، فكلمة (الزمرد) وردت في اللغة بالذال المعجمة، والدال المهملة في رأي ابن قتيبة، وصوب الأصمعي الإعجام[1]، والثانية مراسلة أجراها القاضي الزبيدي مع الوزير أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي ونظمها على حرف الظاء، ولئن كنّا لا ننكر غلظة جرس الظاء ونفرته، وقلّته في اللغة، إلا إنّنا نستسيغه ونقبله في هذه الأبيات لسببين، يتمثل أحدهما في طبيعة غرض المراسلة هذه التى تستلزم وتتطلب في هذا الموقف الطرافة والبراعة الفنية، وإظهار المقدرة اللغوية، ويكمن ثانيهما في أن القاضي لم يتخير حرف الروي هذا طواعية، وإنّما دفع إليه قسرا، حيث كان موضوع المراسلة لغويا حول كلمة (فائظ)، أهي بالضاد أم الظاء؟، وكان رأي الزبيدي أنها بالظاء فنظم مراسلته على هذا الحرف.

وقد جاءت نسبة شيوع حرف الروي لدى القضاة مشابهة ومقاربة لما كانت عليه عند شعراء العرب، وقد انحصرت في ثمانية عشر حرف روي، وهي على الترتيب: الراء، الميم، الباء، اللام، الدال، العين، الفاء، السين، النون، القاف، الياء، الضاد، الظاء، الحاء، الكاف، الجيم، الذال، الألف.

وتنوعت القافية عند القضاة بين مطلقة ومقيدة[2]، فكانت الأولّى هي الأكثر في أشعارهم، والثانية هي الأقلّ، وقد جاءت بنسبة (8.8%)، فهي "قليل الشيوع في الشعر العربي، لا يكاد يجاوز 1%، وهو في شعر الجاهليين أقل مما في شعر العباسيين، وذلك لأن الغناء في العصر العباسي قد التأم مع هذا النوع وانسجم، بل لا يزال الملحن فينا يرى مثل هذه القافية أطوع

(1) ينظر: ابن منظور. لسان العرب، باب الذال، فصل الزاي. الزبيدي. تاج العروس، باب الذال، فصل الزاي.

(2) القافية المقيدة: "هي ما كانت غير موصولة، أي ليس فيها حرف لين ناشئ عن إشباع حركة الروي": وهبة. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، باب القاف، ص284.

وأيسر في تلحين أبياتها"[1]، ومما ساعد على يسر هذه القافية وخفّتها عند القضاة أنّها جاءت في المقطوعات، ولم تأت إلا في قصيدة قصيرة واحدة في سبعة أبيات، كما أنها نظمت على أبحـر قصيرة ومجزوءة، وإذا اشترط النقّاد في القافية المقيدة أن تعتمد على مد قبل حرف الروي، فإن "عامة البحور القصار يصلح فيها التقييد من غير اعتماد على مد قبله"[2]، فيقول الباجي:

وأسمر ينطقُ في مشيهِ ويسكتُ مهما أمر القلم
على ساحةٍ ليلها مشرقٌ منير وأبيضها مدلهـم
وشبهتها ببياض المشيب يخالطُ نور سوادِ اللمم[3]

"المتقارب"

غير أنّنا نجد مقطوعتين قصيرتين نظمتا على البحر الطويل، وهو "أصـلح الأوزان الطـوال للروي المقيد"[4]، فقد أنشد القاضي ابن عبد البر:

تذكرت من يبكي علي مداوما فلم ألفِ إلا العلم بالديـن والخبـر
علوم كتاب ا والسنن التـي أتتْ عن رسول ا مع صحة الأثر
وعلم الألى من ناقديه وفهم ما له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر[5]

"الطويل"

كذلك فقد غلب مجيؤها في أغراض شعرية سهلة وبسيطة كالزهد والوصف الحـضري والمراسلات.

---

(1) أنيس: موسيقى الشعر، ص260.

(2) الطيب، عبد ا : المرشد إلى فهم أشعار العرب، ج1، ص43. الدار السودانية، الخرطوم.

(3) ابن بسام: الذخيرة، مج1قسم2ص98.

(4) الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، ج1، ص44.

(5) المقري، نفح الطيب، ج6، ص61. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص359. المقري، نفح الطيب، ج4، ص327.

الخاتمة

ولا بد لي في نهاية هذا البحث المعنون بـ (شعر قضاة الأندلس من الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف) أن أقف وقفة سريعة مستعرضا فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، وأوجزها بما يأتي:

- لقد كانت خطّة القضاء في الأندلس من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلّقها بأمور الدين والدنيا.

- اشترطوا في القاضي العقل، والإسلام، والحرية، والذكورة، والعدالة، والعلم بالأحكام الشرعية، وسلامة الحواس، وشروطا أخرى كالاستقامة والنزاهة والأمانة والزهد.

- تعددت الجهات التي تولّت مسؤولية تعيين القضاة، ولئن كان الخليفة أو الحاكم هو المسؤول الفعلي والمباشر عن تعيينهم إلا أنّنا نجده في كثير من الأحيان يوكل أمر تعيينهم إلى نائبه، وأمراء الأقاليم وقضاتها، وأهل الشورى، وقد يلجأ أحيانا إلى الترشيح.

- وقد تنوعت اختصاصاتهم ما بين قضائية كالنظر في الجراح وقضايا الأحداث، والقضاء بين الجند وركب الحجيج، والمناكح، والمواريث، واختصاصات غير قضائية، كالنظر في أموال اليتامى، والأحباس، وإلزام الولاية للسفهاء، وتنفيذ الوصايا على شروط الموصي، وتزويج الأيامى، وتصفّي الشهود، وتفقّد الأمناء.

- ولئن تحمل بعض القضاة عبء القضاء كاملا، إلا أن كثيرا منهم اتّخذ له بعض الأعوان والمساعدين، كالكتبة، والحجاب، والقومة، والأمناء، والشيوخ، وقد كانوا يختارونهم على أسس سليمة، يراعون فيها صدقهم وأمانتهم، وحسن سيرهم.

- وكانت حياة القضاة مثالا في الزهد والأمانة والبساطة، فتقاضوا راتبا من بيت المال، وبعضهم رفض أن يأخذ أجرا في أيام الجمع والعطل، ومنهم من لم يأخذ إلا كفافا لحاجته، وبعضهم امتنع عن تقاضي أي أجر على ذلك، بينما نجد بيت القاضي بسيطا

خاليا من مظاهر الترف والنعمة، كما نجدنا أن الدولة في كثير من الأحيان توفّر المسكن لهم إلى جانب الرزق، ولم تكن ألبستهم موحدة، ولكنّها كانت مميزة عن سـائر ألبـسة العوام، كما يظهر لنا تواضعهم، فلم يركبوا الدواب، وآثروا المشي على القدمين.

- ونجد لهم كذلك ألقابا متعددة، كقاضي الجند الذي وجد في بداية الفتوحـات الإسـلامية، والمسدد، وهو من ولي القضاء على بلدة صغيرة، وقاضي الجماعة، وقاضي القـضاة، وقد عرف هذا اللقب منذ الفتح الإسلامي حتى آخر عصر الولاة، وخليفة القاضي.

- ولم يكن لديهم في البداية مذهب مشترط متّبع، ولئن كان المذهب الأوزاعي هو الـسائد، إلا أنّهم لم يحملوا على القضاء به، وبقي هذا الحال حتى عهد الأمير هـشام بـن عبـد الرحمن بن معاوية الداخل عام سبعين ومائة للهجرة، فألزمهم جميعا بمذهب مالك.

- وكذلك حظي القضاة بوفرة من العلوم والمعارف، فقد كانوا من طبقة العلمـاء، وقليـل منهم من تخلو حياته من الرحلات العلمية الداخلية والخارجية.

- وتعددت مجالس القضاء عندهم، ولكنهم غالبا ما كانوا يتّخذون المسجد لذلك، ومنهم من تخير بعض الأيام، فبعضهم امتنع عن القضاء أيام الجمع، وتفرغ للعبادة والقيام بشؤون دنياه، وآخرون تفرغوا طيلة شهر رمضان، وبعضهم كان يتخير ساعات مـن النهـار لذلك.

- وكذلك فإنّنا نجد للقضاء ديوانا يعنى بميزانيته من صادرات وواردات، ويـضم أسـماء القضاة وسيرهم، ويحوي كتبهم، وأجوبة الحكام إليهم.

- ونجد القضاء لديهم يضم أعمالا مختلفة، كالأمانات، والنظر في الأحبـاس، والـصلاة، وخطبة الجمعة، والاستسقاء، والصلاة على الأموات، وصـلاة الخـسوف والكـسوف، والوزارة، والسفارة، والإشراف على الثغور، والشرطة، والسكّة، والمواريث.

- كان عدد قضاة الأندلس كبيرا جدا، وقلّة منهم من استطعنا العثور له على مخلّفات شعرية، ولا يتجاوزون الستّة عشر، وهم: أبو الوليد عبد الله بن الفرضي، وأبو عبد الله محمد بن أبي عيسى، وأبو الوليد سليمان الباجي، وأبو بكر محمد بن بشير المعافري، وأبو الحكم منذر البلوطي، وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، وأبو عبد الله محمد بن سليمان الأنصاري، وأبو بكر محمد بن إسحقّ بن السليم، وأبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد، وأبو الوليد يونس بن الصفّار، وسليمان بن الأسود الغافقي، وأبو الحسن مختار الرعيني، وأبو عمر بن الحذّاء، وأبو عمر أحمد بن سحيق، وأبو عمر يوسف بن عبد البر، وأبو العلاء عباس بن ناصح الثقفي، فمنهم من كان مقلا، ومنهم من كان مكثرا كالقاضي أبي الوليد الباجي، وأبي بكر الزبيدي، وأبي الحكم منذر البلوطي، وأبي عمر بن عبد البر.

- وقد نظموا أشعارهم في ثلاثة عشر غرضا، هي: الوصف، والشوق والحنين، والمديح، والهجاء، والفخر، والرثاء، والشكوى، والغزل، والاستصراخ، والعلم، والزهد، والإخوانيات والمراسلات، والأخلاق، ومن هذه الأغراض ما أكثروا وأجادوا فيها، كالشوق والحنين، والعلم، والزهد، ومنها ما جاءت شحيحة قليلة، كالغزل، والاستصراخ.

- وفي ميدان البحث عن خصائص أشعارهم الفنية، فقد كان بناؤها اللغوي سهلا وبعيدا عن التكلّف، حتى أن أسلوبهم في كثير من الأحيان اقترب من أسلوب النثر، وقد أثّرت الحضارة في كثير من مفرداتها، كما كثر لديهم أسلوب الطباق، فحقّقوا به تقوية الفكرة والمعنى، والتعبير عن حالة الاضطراب لديهم من جراء واقع الحياة وتعقيداتها، وجاء أسلوب الترادف ليؤكّد المعنى، ويعكس اهتمامهم بالفكرة وجوهرها، وقد جاءت الجمل الخبرية مؤكدة بالأسماء والحروف، مما عكس فصل القول والخطاب لديهم، وأعطى الكلام نوعا من الحجة والبرهان، كما استخدموا الجمل الإنشائية الطلبية بكثرة، وخرجت إلى معانٍ متعددة، فأضفت على المعنى والأسلوب القوة والبيان، كما كان لديهم تأثّر واضح وكبير بالقرآن الكريم، وذلك من حيث القصص والمعاني والألفاظ، وهذا دليل على سعة علومهم، واحتفالهم بالدين الإسلامي، وعظم الوازع الديني لديهم.

- أما صورتها الفنية فقد تمثّلت في التشبيه المفرد، والتمثيلي، والضمني، فعكست حـالتهم النفسية، وتلونت بأحاسيسها وعواطفها، ، وذلك بحسب التعريفات والاهتمامـات التـي يؤمنون بها، وكذلك فقد تلونت الاستعارة والمجاز والكناية عندهم بألوان المستوى الديني والثقافي والمعرفي لهم، فجاءت صورة صادقة عن أحاسيسهم وعواطفهم.

- كما امتاز بناؤهم الموسيقي بأسلوب السجع، فكان التطابق في الإيقاع لديهم بين ركنـي التجانس يعانقه تطابق واتّحاد في درجة إحساس الشاعر بهما، كما جاء أسلوب الترديـد بكثرة في أشعارهم، وارتبط بحالتهم النفسية، فتفاعلات أحاسيسهم وعواطفهم مـع البيئـة والمؤثّرات من حولهم، كما كان للتدوير نصيب لديهم، فجاءت الكلمة المدورة التي تربط بين شقي البيت رابطا دلاليا ومعنويا يعكس إحساسهم بها، كما استخدموا التصريع فـي مختلف الأغراض، وعلى جميع المستويات، من بيت ونتفة ومقطوعة وقصيدة.

- وقد جاءت أغلبية أشعارهم على شكل مقطوعات قصيرة لا تتجاوز ستّة الأبيـات، وقـد تفشّت في أغراض الوصف والغزل والهجاء والزهد والأخلاق، وأما القصائد فكانت من النوع القصير الذي لا يتجاوز الاثني عشر بيتا، وقد توزعت فـي أغـراض الحنـين، والرثاء، والعلم، وجاءت جميعها على نسق واحد، فلم تنح منحى تقليديا بالغزل والوقوف على الأطلال ووصف الرحلة، بل طرقوا الغرض مباشـرة دون تقـديم، فأحاسيـسهم وعواطفهم صادقة ابتعدت بهم عن التقليد والمحاكاة والاهتمام بالشكل الفني.

- ونجد أشعارهم قد نظمت على أحد عشر بحرا، وتتّفق نسبة شيوع بعـضها مـع نـسبة شيوع البحور في الشعر العربي بشكل عام، وقد احتلّ الطويل النصيب الأكبـر، يليـه حسب الترتيب البسيط، والكامل، والمتقارب، والسريع، والخفيف، والوافر، والمنـسرح، ومخلّع البسيط، ومجزوء المجتثّ، والرمل، ومجزوء الرمل، والرجز، ومجزوء الكامل، ومجزوء الوافر، وقد نظم غرض الحنين في معظمه علـى بحـور خفيفـة وقـصيرة كاالسريع والوافر ومخلّع البسيط، لأن هذا الغرض ينبع من عاطفة صادقة ونفس منفعلة

تنسجم معها هذه البحور، ونجد غرض الزهد يكثر نظمه على المتقارب، ونظم غـرض الشكوى على البحور الطويلة لتكون متسعا لدى الشاعر للتعبير عن آلامه وأحزانه.

- ولا نجد القضاة ينظمون على حروف الروي الضعيفة سوى ما ندر ، وقد تنوعـت القافية عندهم بين مطلقة وهي الأكثر شيوعا ومقيدة.

وقد جاءت الغالبية من المصادر التي ضمت هذه الأشعار مفتقرة إلى الطباعـة الجيـدة والتحقيق، فوقع الخطأ في كثير من أبياتها، وقد قمت بتصحيحه، والتنويه له ولما بقي منه مختلّ الوزن أو المعنى.

مجموع أشعار القضاة

قضاة الأندلس الشعراء

- أولا: أبو الوليد عبد ا بن الفرضي
- ثانيا: أبو عبد ا محمد بن أبي عيسى
- ثالثا: أبو الوليد سليمان الباجي
- رابعا: أبو بكر محمد بن بشير المعافري
- خامسا: أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي
- سادسا: أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي
- سابعا: أبو عبد ا محمد بن سليمان الأنصاري
- ثامنا: أبو بكر محمد بن إسحقّ بن السليم
- تاسعا: أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد
- عاشرا: أبو الوليد يونس بن الصفّار
- حادي عشر: سليمان بن الأسود الغافقي
- ثاني عشر: أبو الحسن مختار الرعيني
- ثالث عشر: أبو عمر بن الحذّاء
- رابع عشر: أبو عمر أحمد بن يحيى بن سحيق
- خامس عشر: أبو عمر يوسف بن عبد البر
- سادس عشر: أبو العلاء عباس بن ناصح الثقفي

أولا: أبو الوليد عبد ا بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي المعروف بابن القرطبي الفرضي:

حرف الراء

يقول في الشوق والحنين إلى أهله حين توجه للحج أو طلب العلم في المشرق:

مضتْ لي شهور منذُ[1] غبتم ثلاثــةٌ ... وما خلتنــي أبقــى إذا غبتــم شهــرا

ومــا لي حياةٌ بعدكــم أستلــذهــا ... ولــو كــان هذا لم أكن بعدها حــرا

ولــم يسلِني طــول التنائي عليكــم ... بلى زادني وجــدا وجدد لي ذكــرى

يمثّلكــم لــي طــولُ شوقي إليكــم ... ويدنيكــم حتّــى أناجيكــــم ســــرا

سأستعتــب الدهــر المفــرقَ بيننــا ... وهل نافعي أن صرتُ أستعتب الدهرا

أعــللُ نفسي بالمنــى فــي لقائكــم ... واستسهلُ البر الذي جبــتُ والبحــرا

ويؤنسني طــي المراحــل دونكــم ... أروح على أرضٍ وأغدو على أخــرى

وتا ما فارقتكم عــن قلــى لكــم ... ولكنها الأقدار تَجــري كمــا تُجــرى

رعتكم من الرحمن عيــن بصيــرةٌ ... ولا كشفتْ أيدي الردى عنكم ستــرا[2]

(الطويل)

حرف الفاء

ويقول في الزهد والخضوع تعالى:

أسير الخَطايــا عنــد بابــك واقــفُ ... على وجل ممــا به أنــتَ عارفُ

---

(1) وردت في المصادر (مذ)، والوزن لا يستقيم إلا بـ (منذُ).

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص286. ابن بسام، الذخيرة، مج2، قسم1، ص 615-616. المقري، نفح الطيب، ج2، ص131. الضبي، بغية الملتمس، ص291. الحميدي، جذوة المقتبس، ص398-399. ابن باشكوال، الصلة، قسم1، ص255. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص62.

يخافُ ذنوبا لم يغب عنـك غيبهـا　　ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائـفُ

ومن ذا الذي يرجو سواك ويتّقـي　　وما لك في فصل القضاءِ مخالفُ

فيا سيدي لا تُخْزني في صحيفتـي　　إذا نُشرتْ يوم الحسابِ الصحائفُ

وكن مؤنسي في ظلمةِ القبر عندما　　يصد ذوو القربى ويجفو المؤالفُ

لئن ضاقَ عني عفوك الواسع الذي　　أُرجي لإسرافي فإنّـي لتالـفُ[1]

(الطويل)

حرف النون

وله في النسيب:

إن الذي أصبحتُ طوع يمينهِ　　إن لم يكن قمرا فليس بدونـهِ

ذلّي له في الحب من سلْطانهِ　　وسِقام جسمي من سِقامِ جفونهِ[2]

(الكامل)

ثانيا: أبو عبد ا　محمد بن عبد ا　بن أ بي عيسى:

حرف الدال

يقول في رفيقين له من البرابرة يسميان عجنوس ويعقوب، أرسلهما معه بعض أمراء العلويين بالعدوة:

تضمـن عسكرنـا إبـرةً　　نقيضين في قبـةٍ واحـده

(1) المقري، نفح الطيب، ج2، ص129. ابن باشكوال، الصلة، قسم2، ص253. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، مج3، ص105.

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص286. المقري، نفح الطيب، ج2، ص130. الضبي، بغية الملتمس، ص291. الحميدي، جذوة المقتبس، ص399. ابن باشكوال، الصلة، قسم1، ص255. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، مج3، ص106. ابن بسام، الذخيرة، مج2، قسم1، ص616.

فقد بر يعقوب بـه بحـ ـرةً إذا شـ ـط قسـ ـورةٌ لابـ ـده

فهذا له صفْو مـ ـا في المرادِ وذاك لـ ـه أَلِـ ـفُ المائـ ـده

وعنجوس مستوطن لا يريـ ـم كما أرستِ الجعصة الخالده

يحـ ـن إلى طيبـ ـاتِ الطعـ ـامِ حنين الرضيع إلى الوالـ ـده

ويأكلُ في سبعةٍ مـ ـن ومـ ـن ولا يشتكي وحـ ـدةً فاسـ ـده

وأركـ ـان لقمتـ ـهِ ستّـ ـةٌ كأن لـ ـه إصبعـ ـا زائـ ـده[1]

(المتقارب)

حرف الراء

إن رجلا من أصحابه أتاه ليلا، فذكرله أن فقيهين مشهورين يقدمان عليه في قـصة بشهادة مدخولة، فلما كان الغد أتاه أحدهما،فأعرض عنه القاضي، وتبسم في وجهه لعلّه يقوم ويكفي شأنه،فتمادى ، فلما رأى عزمه على أداء الشهادة، تناول القاضي سحاءة بين يديـ ـه، فكتب فيها وطواها وألقاها في حجره، فلما تصفحها وجد مكتوبا فيها:

أتتني عنـ ـك أخبـ ـار لهـ ـا في القلـ ـب آثـ ـار

فدع مـ ـا قـ ـد أتيـ ـتَ بهِ ففيـ ـهِ العـ ـار والنـ ـار[2]

(مجزوء الوافر)

وأمر أن يكتب على سريره:

لا يغُرنّـ ـك يـ ـا محمـ ـد ليـ ـلٌ بـ ـت فيـ ـهِ على فراشٍ وثيـ ـر

منْعم البال مطمئنّـ ـا فـ ـلا بـ ـد من النعشِ بعد هذا السريـ ـر

كم فتى منهم وكهـ ـلا وشيخـ ـا ألحدتْه كفّـ ـاك وسـ ـطَ الحفيـ ـر

---

(1) الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص244. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص410.

(2) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص60. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص408.

وتذكّـر بني أبيـك أبي عيـ ... ـسى ذوي الجاهِ والعديد الكثيـر

وتفكر في تعبٍ موتِ أبي بكـ ... ـرٍ ففي ذلـك أعظـم التفكيـر

قـدمِ الزاد للمعـ ـادِ ولا تنـ ... ـس إذا ما بطشتَ بطشَ القديـر

واتّق ا واعلمن[1] هذه الأيـ ... ـيام واعملْ فيها[2] ليومِ النشـور

قرب الموتَ منك مـر الليالي ... وأرى النقص[3] واضح التعبير[4]

(الخفيف)

ومن شعره في تقلقله في تلك السفرات:

أَلِفَتْني الهمـوم مذْ كنتُ طفـلا ... لم تَرعِني وقـد علاني القَتيـر

كلمـا قلـتُ سالمتني الليـالي ... وصفا العيـشُ شابـه التكديـر

فبدى يستحـل في كـل يـومٍ ... وهموم تتـرى ودهـر يجـور

وفـلاةٌ تختارني عـن فـلاةٍ ... وصبـا تستحثُنـي ودبـور

فوقَ حرفٍ حاملٍ لم يكن في[5] ... بطْن أنثى ولا علتْهـا الذكـور

زوجتـي أيم وإبنـي يتيـم ... في حياتي ومنـزلي مهجـور

خلّطَ الدهر لي سرورا بهـمٍّ ... فهو يوما جفا[6] ويوما نُشـور

كل ذا نعـم مـن أ عنـدي ... فأنـا حامـد عليهـا شكـور

حسبي ا ُ خالقُ الخَلْـق فاللّـ ... ـه على كشْفِ ما عراني قدير

---

(1) أدخلنا نون التوكيد الخفيفة على الفعل ليستقيم الوزن.

(2) أضيفت كلمة (فيها) ليستقيم الوزن.

(3) جاءت في المصدر بإضافة كلمة (منك) ولا يستقيم الوزن إلا بحذفها.

(4) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص409.

(5) الشطر غير مستقيم الوزن.

(6) هذه الكلمة وضعت ليستقيم الشطر.

وله الحمـد كـم بفَضـلٍ منْـ ـه ينعمني ولكنّي عنود كفور[1][2]

(الخفيف)

حرف السين

ويقول في الشوق والحنين إلى قرطبة:

ماذا أكابـد مـن ورق مغـردةٍ على قضيـبٍ بذاتِ الجـزع ميـاسِ
رددن شجوا شجا قلب الخلي فهـلْ في عبرةٍ ذُرفتْ في الحب مـن باسِ
ذكّرنه الزمن الماضي بقرطبـةٍ بيـن الأحبـةِ في أمـنٍ وإينـاسِ
هم الصبابةُ لولا همـةٌ شَرفـتْ فصيـرتْ قلبـه كالجنْـدل القاسـي
كم بين آل عيسى[3] وراكِبهـم من صحن سهبٍ وطود شامـخٍ راسي
ومن بحارٍ إذا هالـتْ بصاحبهـا أهدتْ له الخوفَ محمولا على الراسِ[4]

(البسيط)

حرف القاف

ومن شعره ما قاله عند أوبته من غربته[5]:

كأن لم يكن بيـن ولم تـك فُرقـةٌ إذا كان من بعدِ الفِـراقِ تـلاقِ
كأن لـم تُأرقْ بالعراقيـن مقْلَتـي ولم تمرِ كف الشوق مـاء مآقي

(1) البيت غير مستقيم.

(2) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص410.

(3) هناك خلل في الوزن الشعري.

(4) الحميدي، جذوة المقتبس، ص126. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص261. المقري، نفح الطيب، ج2، ص13. الثعالبي، يتيمة الدهر، ج2، ص72.

(5) وبعضهم ينسبها لمحمد بن عبد السلام الخشني. ينظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص268. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص118.

ولم أزرِ الأعراب في جنْبِ أرضهم بذاتِ اللوى مـن رامةٍ وبـراق

ولم أصطبح بالبيدِ من قهوةِ الندى وكأسٍ سقاها في الأزاهر سـاق[1]

(الطويل)

حرف اللام

ويقول في الغرض نفسه:

لا تلمنـي على البكـا والعويـل ذكّرتنـي نخيـلُ فـاسٍ نخيلـي

وانسكاب الأمواهِ من جلـل الضـ حى دمـوع الأحبابِ يوم الرحيل

فَعلـَتْ زفرتي وطـالَ انتحابـي وبـدتْ لوعتي وهـاج غليلـي

ولَنِعـم البـلاد للنـازح الأو طان دمـع جرى برغـمِ العذول

وقبيح صبر الخليل أخـي الوجـ دِ عن الدمع عند ذكـر الخليـل

وبنفسي نائي المحـل قريـب من فؤادٍ صب وجسـمٍ نحيـل

كان بيني وبينـه البحـر والقفْـ ر ووخْد السرى وطولُ الذميـل

يا قليلَ الإنصافِ في الهجر مهـلا إن وجدي عليك غيـر قليـل[2]

(الخفيف)

ثالثا: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي:

حرف الباء

يقول في الطاعة والعبادة:

إذا كنتَ تعلـم أن لا محيـد لذي الذنْبِ عن هول يومِ الحسابِ

---

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص360-261. المقري، نفح الطيب، ج2، ص13.

(2) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج2، ص72. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص409-411.

فأعص الإلـه بمقـدار مـا ... تحب لنفسْـكِ سـوء العـذابِ[1]

(المتقارب)

وقال يرثي ابنيه وقد ماتا مغتربين:

رعـى ا قلبيـن استكانـا ببلـدةٍ ... هما أسكناها في السـوادِ مـن القلـبِ

لئـن غُيبـا عـن ناظـري وتبـوءا ... فؤادي لقـد زاد التباعـد في القُـربِ

يقَـر بعينِـي أن أزور ثراهمـا ... وأُلصـقُ مكنـون الترائـب بالتـربِ

وأبكـي وأبكـي ساكنِيهـا لعلنـي ... سأُنجد من صحـبٍ وأُسعـد مـن سحـبِ

فما ساعدتْ ورقُ الحمامِ أخـا أسـى ... ولا روحتْ ريح الصبا عن أخـي كـربِ

ولا استعذبتْ عيناي بعدهمـا كـرى ... ولا ظَمِئَـتْ نفسـي إلى البـاردِ العـذْبِ

أحـن ويثني اليأس نفسي على الأسى ... كما اضطر محمولٌ على المركبِ الصعبِ[2]

(الطويل)

وله في معنى السفر:

فإن[3] كنتَ ربي في طريقي صاحبا ... وتخلفُني في الأهل ما دمـتُ غائبا

فسهـلْ سبيلـي وازوِ عني شرها ... وشر الذي ألقاه في الأهـل آيبـا[4]

(الطويل)

(1) الكتبي، فوات الوفيات، مج3، ص65. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص374.

(2) الأصفهاني، الخريدة، ص500. ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص101. المقري، نفح الطيب، مج2، ص75. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250-251. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص807. ابن خاقان، قلائد العقيان، ص189. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص327.

(3) وردت (إن) ولا يستقيم الوزن إلا بـ(فإن).

(4) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104.

حرف الدال

وله في الزهد:

تبلّـغْ إلـى الدنيـا بأيسـرِ زادٍ ... فإنـك عنهـا راحـلٌ لمعـادِ

وغُض عن الدنيا وزخرفِ أهلِها ... جفونَك واكحلْها بطول سهـادِ

وجاهد عن اللذاتِ نفسك جاهـدا ... فإن جهاد النفسِ خيـر جهـادِ

فما هـذهِ الدنيـا بـدارِ إقامـةٍ ... فيعتد مـن أغراضِهـا بعتـادِ

ومـا هي إلا دار لهـوٍ وفتنـةٍ ... وإن قصارى أهلِهـا لنفـادِ[1]

(الطويل)

وقال يمدح قاضي بغداد السمناني ناصح الدين تاج الإسـلام،وكان الحرمـان يكـسوه، فأكرمه:

يا بعد صبرك أتهموا أم أنجـدوا ... هيهاتَ منـك تصبـر وتجلـد

يأبـى سلـوك بارقٌ متألـــقٌ ... وشميـم عرفِ عرارةٍ ومغـرد

في كل أُفْقٍ لي علاقـةُ خولـة ... تهدي الهوى وبكل أرضٍ ثهمـد

ما طالَ عهدي بالديـارِ وإنمـا ... أنسـى معاهدهـا أسـى وتلبـد

ولقد مررتُ على المعاهدِ بعدما ... لبس البـداوةَ رسمهـا المتأبـد

فاستنجدتْ ماء الدمـوع لبينهـم ... فتتابعـتْ حتّى توارى المنجـد

طَفِقتْ تسابقني إلى أمـدِ الصبـا ... تلك الربى ومنـالُ شأوي يبعـد

لو كنت أنبأتَ الديـار صبابتـي ... نحلَ الصفـا بفنائِهـا والجلمـد

أيـام الشبـابِ وحسنُهـا ... وغصونُهـن المائسـاتُ الميـد

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص103.

أيـام أنفـض للمـراح ذؤابتـي	بين اللداتِ ودرع بردي مجسـد
أتقنص الظبياتِ في سبل الصبـا	فيصيدهن لي العـذار الأسـود
حتّى علاني الشيب قبـلَ تَحلـمٍ	وأبر ما سبقَ المشيـب المولـد
وحجِيتُ سن الحلمِ في زمن الصبا	وبصرتُ فالتاح السبيلُ الأقصد
وسقتني الدنيـا زعـاقَ خُمارها	وسعى إلي من الخطوبِ معربد
ما هالني صعب المرامِ ولا الذي	تستبعد الأيـام عنـدي يبعـد
أستقرب الهدفَ البعيـد بهمـ ـةٍ	أدنى منازِلها السهـا والفرقـد
أسري إذا اعتكر الظـلام وقادني	أملٌ مطالبه العـلا والسـؤدد
حيثُ التَقَتْ طُنبةُ السماحةِ والعلا	ورستْ قواعده وحـلّ المِقـود
فجنابـه لا يستبـاح وجـ ـاره	لا يستضام ونبعـه لا يقصـد
حرم المكـارمِ لا ينـالُ فِنـاءه	ذام ولا للفضـل عنـه مبعـد
عالي محلّ النار في كَلِبِ الشتـا	إذْ بالحضيض لغيرهِ مستوقَـد
هذا الشهاب المستضـاء بنـورهِ	علَم الهدى هذا الشهاب الأوحد
هذا الذي قَمع الضلالـةَ بعدمـا	كانتْ شياطين الضلال تمـرد(1)

(الكامل)

حرف الراء

وله:

تجنب بجهدِك ما صـوروا	وإن كان في ستر أو (ميثره)

(1) ابن بساك، الذخيرة، مج1، قسم2، ص99-100. المقري، نفح الطيب، مج2، ص76. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص249.

فإن الرسولَ عليهِ السـلام أحقّ العذاب لمـن صـوره[1]

(المتقارب)

وله في الزهد والعبادة:

يا قلب إمـا تلهني كاذبـا أو صادفا عن الهـدى جائـرا

تشغلُني عن عمـلٍ نافـع في موقفٍ ألقـاك لي ضائـرا

أحـر بأن تُسلمني نادمـا إن لـم ألـق ا لي عـاذرا

وحاقَ بي ما جاء عن ربنا (ووجدوا[2] ما عملو حاضرا)[3]

(السريع)

وله في قيام الليل:

قد أفلح القانتُ في جنْح الدجى يتلـو الكتـاب العربـي النيـرا

فقائمـا وراكعـا وساجـ ـدا مبتهـ ـلا مستعبـرا مستغفـرا

لـه حنيـن وشهيـقٌ وبكـا يبلّ مـن أدمعِهِ تـرب الثـرى

إنّا لَسفْر نبتغي نيـلَ المـدى ففي السرى بغيتُنا لا في الكرى

من ينصبِ الليلَ ينلْ راحتَـه عند الصباح يحمد القوم السرى[4]

(الرجز)

حرف العين

يقول في الحض على الطاعة والعبادة:

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص103.

(2) العجز غير مستقيم الوزن.

(3) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104.

(4) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104-105.

إذا كنتُ أعلم علمـا يقينـا	بأن جميـع حياتي كساعـةْ
فلم لا أكون ضنينـا بهـا	وأجعلها في صلاحٍ وطاعةْ(1)

(المتقارب)

حرف اللام

ويمدح الأمير معز الدولة أبا علوان بن أسد الدولة:

محلّ الهوى مـن سـر حبـك آهـلُ	وصرفُ النوى عن شَمل شوقي غَافِلُ
و طيـفٌ لا يلـــم كأنّمــــا	لـه مـن سهادي في الزيارةِ عاذلُ
غـدا نافـرا لا أستطيـع اقتناصـه	ولـو أن لي يـوم الكثيـبِ حبائلُ
تبيتُ جفوني صادياتٍ مـن الكـرى	ولكنهـا مـن مـاءِ دمعي نواهلُ
لئن أمطرتْ روض الخدودِ سحابهـا	لقد صدِيـتْ منـا قلـوب مواجلُ
خليلي ها فاستعرضا الركـب منهما	فقد درجتْ في الريح منهـا رسائلُ
أسروا إلى الليـل البهيـمِ سراهـم	فنمـتْ عليـهِ في الشمـال شمائلُ
متى نزلوا ثاوين في الخَيفِ من منى	بدتْ للهـوى بالمأزميـن مخايـلُ
فللهِ مـا ضمـتْ مِنـى وشِعابهـا	وما ضمِنَتْ تلك الربى والمنـازلُ
ولمـا التقينـا للجمـارِ وأبـرزتْ	أكـف لتقليـبِ الحصـى وأنامـلُ
أسـرتْ إلينـا بالغـرامِ محاجـر	وباحتْ بـهِ منـا جسـوم نواحـلُ

(1) الأصفهاني، الخريدة، ص505. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص95. الضبي، بغية الملتمس، ص262. المقري، نفح الطيب، مج2، ص74. ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص98. ابن باشكوال، الصلة، قسم1، ص202. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص120. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج2، ص408-409. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج1، ص327. الكتبي، فوات الوفيات، مج3، ص65. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص374. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص807. الحميري، الروض المعطار، ص75. ابن خاقان، قلائد العقيان، ص189.

سقى أَثْلَاثَ الجزع مـن أم مالـكٍ عشار سحـابٍ مترعـاتٌ حوافـلُ[1]

(الطويل)

حرف الميم

وله في الحساب والدعوة إلى الأخلاق:

وتيقّن بأنـك الدهـر تُملـي في كتابٍ المستحفظين الكرامِ
ثم تؤتى يوم الكتـابِ كتابـا ناطقـا بالفجـور والآثـامِ
وأرى عثرةَ اللسان وإن لـم تَبد أنكى من عثرةِ الأقـدامِ
وأرى القولَ كالسهامِ فإن كا ن قبيحا عادتْ علي سهامي
ومن الغي أن أُصاب بسهـمٍ وأنا مالك يميـن الرامـي[2]

(الخفيف)

وقال في الشكوى من أحوال أهل زمانه:

مضى زمن المكارمِ والكـرامِ سقاه ا من صـوبِ الغمامِ
وكان البِر فعـلا دون قـولٍ فصار البـر نطقا في الكلامِ
وزالَ النطقُ حتّى لستَ تلقى فتًى يسخـو بـرد للسـلامِ
وزاد الأمر حتّى ليـس إلا سخـي بالأذى أو بالمـلامِ[3]

(الوافر)

ويقول يصف قلم:

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص102. المقري، نفح الطيب، مج2، ص84.
(2) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص105.
(3) المقري. نفح الطيب، مج2، ص85.

واسمـر ينطـقُ في مشيـهِ	ويسكتُ مهمـا أمر القلـم
على ساحةٍ ليلهـا مشـرقٌ	منيـر وأبيضهـا مدلهـم
وشبهتها ببيـاض المشيـب	يخالـطُ نور سوادِ اللمـم[1]

(المتقارب)

وله يمدح المعتضد بالله:

عبـاد استعبد البرايـا	بأنعـمٍ تبلـغُ النعائـم
مديحه خيم كل نفـس	حتّى تَغَنتْ بهِ الحمائم[2]

(مخلع البسيط)

وقال يرثي ابنه محمدا:

أمحمد إن كنـتُ بعـدك صابـرا	صبر السليم لمـا بـهِ لا يسلـم
ورزئْـتُ قبلـك بالنبي محمـدٍ	ولرزؤه أدهـى لـدي وأعظـم
فلقد علمـتُ بأنني بـك لاحقٌ	من بعـدِ ظنـي أننـي متَقَـدم
ذكـر لا يـزالُ بخاطـري	متَصرفٌ في صفْـوهِ متَحكّـم
فإذا نظـرتُ فشخصـه متَخَيـلٌ	وإذا أصخْـتُ فَصوتُـه متَوهـم
وبكل أرضٍ لي من آجلك روعةٌ	وبكـل قبـرٍ عبـرةٌ وترنّـم
فإذا دعوتُ سواك حاد عن اسمِهِ	ودعاه باسمِك مقولٌ بك مغـرم
حكْم الردى ومناهج قـد سنهـا	لأولي النهى والحِذْقُ قبلُ متيـم
فلئـن جزعـتُ فإن ربي عاذر	ولئن صبرتُ فإن صبري أكرم [1]

---

(1) ابن بسام. الذخيرة، مج1، قسم2، ص98.

(2) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص100. المقري، نفح الطيب، مج2، ص76. الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250.

(الكامل)

وله في معنى الحمد والشكر:

الحمـد ذي الآلاءِ والنعـمِ ومبدعِ السمعِ والأبصارِ والكلِـمِ
من يحمدِ ا يأتيه المزيد ومن يكفر فكـم نِعمٍ آلـتْ إلى نِقَـمِ[2]

(البسيط)

وقال في لذعة الوداع:

ليس عندي شخص النوى بعظيمٍ فيهِ غمٌ وفيهِ كشـفُ غُمـومِ
إن فيـهِ اعتناقـةً لوداعٍ وانتظـار اعتناقـةٍ لقُـدومٍ[3]

(الخفيف)

وقوله:

تداركـتُ مـن خطئي نادمـا أن أرجو سوى خالقي راحما
فلا رفِعتْ صرعتي إن رفَعتُ يدي إلـى غيـر مولاهمـا
أموتُ ولا أدعو إلى من يموتُ بمـاذا أكفّر هذا بما!؟[4]

(المتقارب)

حرف النون

وله أيضا يمدح معز الدولة:

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص101-102. المقري، نفح الطيب، مج2، ص75. ابن خاقان، قلائد العقيان، ص189.

(2) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص104.

(3) الحموي، معجم الأدباء، مج6، ج11، ص250.

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص374.

لرياهم في عـرفِ ربعـك عنـوان   ومِن حسنِهم في حسن مغناك تَبيان

وفيـك مـن الحي الذين تحملـ ـوا   مخايلُ أغصانٍ تميـس وكثبـان

وكم ليلـةٍ فيهـا تعسفْـتُ حولَهـا   وكالِئُهـا مني مشيـح ويقظـان

سرينا كما يسري الخيالُ وغضضتْ   على ركبنا من ناظر الليل أجفان

لَبسنا بـرود الليـل حتّى تشققَـتْ   جيوب تضيء بالصباحِ وأردان

حويتَ معز الدولةِ الملك فاعتـزى   بذكرك في الآفاقِ ملْك وسلْطان

فللمجدِ سلـك قـد أجيـد نظامـُه   وأنتَ لذاك السلكِ در ومرجان[1]

(الطويل)

حرف الياء

وله أيضا في الحمد:

الحمد   حمـد معتـرفٍ   بأن نُعماه ليس نحصيهـا

وأن ما بالعبادِ من نِعـمٍ   فان مولّى الأنامِ موليهـا

وأن شكري لبعضِ أنعمِهِ   من خير ما نعمةٍ يواليها[2]

(المنسرح)

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، مج1، قسم2، ص103.

(2) المصدر نفسه، مج1، قسم2، ص104.

رابعا: أبو بكر محمد بن سعيد بن بشير المعافري:

حرف الباء

وقال في فضل النظر في الكتب وحمد العناية بالدفاتر:

أقبلـتُ أهـرب لا آلـو مباعـدةً ... في الأرضِ منهم فلم يحصنِي الهـرب

لمـّا رأيـتُ بأني لسـتُ معجزهـم ... فوتـا ولا هربـا قـديـت احتجـب

فصرتُ في البيـتِ مسرورا تُحدثني ... عن عِلْمِ ما غاب عني في الورى الكتُب

فردا تُخبرني الموتى وتَنْطِـقُ لـي ... فليـس لي مِـن أنـاسٍ غيرهـم إرب

مِـن جلسـاء لا جليسهـم ... ولا خليطُهـم للسـوءِ مرتَقِـب

لا بادراتِ الأذى يخشـى رفيقُهـم ... ولا يلاقيـهِ منهـم منْطِـقٌ ذَرِب

أبقوا لنـا حِكمـا تَبقـى منافعهـا ... أخرى الليالي على الأيـامِ وانشعبـوا

إن شِئْتَ مِن محكمِ الآثار يرفعهـا ... إلـى النبـي ثِقَـاةٌ خِيـرةٌ نُجـب

أو شِئْتَ مِن عربٍ عِلْمـا بأولهـم ... في الجاهليـةِ تُنْبينـي بهـا العـرب

أو شِئْتَ مِن سِير الأملاكِ مِن عجمٍ ... تُنْبـي وتُخْبِـر كيـفَ الرأي والأدب

حتّى كأنّي قد شاهدتُ عصرهـم ... وقد مضتْ دونَهم مِن دهـرنا حقّـب

ما ماتَ قوم إذا أبقوا لنـا أدبـا ... وعلْـم ديـنٍ ولا بانـوا ولا ذهبـوا [1]

(البسيط)

---

(1) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص511_512.

حرف الدال

له أبيات في الشكوى والنكتة:

إنمـا أزرى بقـدري أننـي | لستُ من بابةِ أهـل البلـدِ
ليس منهم غيـر ذي مقليـةٍ | لذوي الألبابِ أو ذي حسدِ
يتحامـون لقائـي مثلمـ ـا | يتحامـون لقـاء الأسـدِ
مطلعي أثقـلُ فـي أعينهـم | وعلى أنفسِهم مـن أحـدِ
لو رأوني وسطَ بحرٍ لم يكن | أحد يأخذُ منهـم بيـدي[1]

(الرمل)

حرف العين

وقال في العلم:

أما لو أعي كـل ما أسمـع | وأحفظُ مِن ذاك مـا أجمـع
ولم أستفد غير ما قد جمعتُ | لقيلَ هـو العالـم المقنـع
ولكن نفسي إلى كـل فـن | مِن العلْـمِ تسمعـه تنـزع
فلا أناْ أحفظُ ما قـد جمعتُ | ولا أناْ مـن جمعِـهِ أشبـع
ومن يك في علمِـهِ هكـذا | يكن دهره القهقرى يرجـع
إذا لم تكن حافظـا واعيـا | فجمعـك للكُتْـبِ لا ينفـع
أأحضر بالجهل في مجلسٍ | وعلمي في الكُتْبِ مستودع[2]

(المتقارب)

---

(1) المقري، نفح الطيب،مج2، ص149.

(2) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص86.

خامسا: أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي:

حرف الباء

وله في الزهد:

كم تصابى وقـد علاك المشيـب　　وتعامى عمـدا وأنـتَ اللبيـب
كيفَ تلهـو وقـد أتـاك نذيـر　　أن سيأتي الحمام منـك قريـب
يا سفيها قد حان منـك رحيـلٌ　　بعد ذاك الرحيـل يوم عصيـب
إن للمـوتِ سكـرةً فارتقبهـا　　لا يداويـك إن أتتـك طبيـب
كم توانى حتّى تصيـر رهينـا　　ثـم تأتيـك دعـوةٌ فتجيـب
بأمـور المعـادِ أنـتَ عليـم　　فاعملَن جاهـدا لها يـا أريـب
وتذكّـر يومـا تُحاسـب فيـهِ　　إن من يذكـر فسـوفَ ينيـب
ليس من ساعةٍ مـن الدهـر إلا　　للمنايا بها عليك رقيـب(1)

(الخفيف)

حرف الدال

يقول في الزهد من الدنيا مذكرا بالموت:

الموتُ حـوض وكلنـا يـرد　　لـم ينـج ممـا نخافُـه أحـد
فلا تكن مغرمـا برزق غَـدٍ　　فلستَ تدري بمـا يجـيء غـد
وخُذْ من الدهر ما أتـاك بـهِ　　ويسلـم الروح منـك والجسـد

---

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص239. المقري، نفح الطيب، ج1، ص375-376.

والخير والشر لا تدعه فمـا … فـي النـاس إلا مشَنـع حسِـد[1][2]

(المنسرح)

وكان يشكو من الدهر والناس قبل إقبال الدنيا عليه:

هذا المقالُ الذي ما عابـه فَنَـد … لكن صاحبـه أزرى بـهِ البلـد

لو كنتُ فيهم غريبا كنتُ مطرفا … لكننـي منهـم فاغتالني النكـد

لولا الخلافةُ- أبقى ا بهجتَها- … ما كنتُ أبقى بأرضٍ ما بها أحد[3]

(البسيط)

حرف الراء

وكتب بعض الأدباء إلى القاضي منذر بقوله:

مسألةٌ جئتـك مستفتيـا … عنها وأنتَ العالم المستشـار

علام تحمر وجوه الظبا … وأوجه العشاق فيها اصفرار

(السريع)

فأجابه:

احمر وجه الظبي[4] إذْ لحظُه … سيفٌ على العشاق فيهِ احورار

واصفر وجه الصب لما نأى … والشمس تبقى للمغيبِ اصفرار[5]

(السريع)

(1) لقد ورد العجز في المصدر بعبارة (في الناس إلا التشنيع والحسد)، وآثرنا ما ذكرناه ليستقيم الوزن والمعنى.

(2) المقري، نفح الطيب، ج1، ص374.

(3) الضبي، بغية الملتمس، ص406. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم2، ص556. المقري، نفح الطيب، ج1، ص374. المراكشي، المعجب، ص55. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص296.

(4) وردت في المصدر بلفظ (الظبا)، وبها لا يستقيم الوزن.

(5) المقري. نفح الطيب، مج2، ص20.

ويقول في الزهد:(1)

ثلاثٌ وستـون قـد جزتَهـا فمـاذا تُؤَمـ ـلُ أو تنتظـ ـر

وحلّ عليك نذيـر المشيـبِ فما ترعوي أو فمـا تَزدجِـر

تمـر لياليـك مـرا حثيثـا وأنتَ على مـا أرى مستمـر

فلو كنتَ تعقـلُ مـا ينقضي من العمرِ لاعتَضتَ خيرا بِشَر

فمـا لـك لا تستعـ ـد إذاً لدارِ المقَـ ـامِ ودارِ المقـ ـر

أترغب عن فجـأةٍ للمنـون وتعلم أن ليـس منهـا مفـرْ

فإمـا إلـى جنّـةٍ أزلفـتْ وإمـا إلـى سقَـرٍ تستعِـر(2)

(المتقارب)

حرف الفاء

كتب إلى أبي علي البغدادي، يستعير منه كتابا من الغريب:

بحقّ ريمٍ مهفهـفْ وصدغِهِ المتعطـ ـفْ

ابعثْ إلي بجـزءٍ من الغريبِ المصنّفْ(3)

(مجزوء المجتث)

حرف الكاف

ويقول فيمن يروون للأئمة ولا يعرفون للقول وجها:

عذيري مـن قومٍ يقولـون كلّمـا طلبتُ دليلا هكـذا قـال مالـك

---

(1) وبعضهم ينسبها إلى الوزير أبي الوليد بن حزم، انظر: المقري. نفح الطيب، ج3، ص553_554.

(2) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص249.

(3) المقري، نفح الطيب، مج2، ص20. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص184.

فإن عدتُ قالوا هكذا قالَ أشهـب وقد كان لا تَخْفى عليهِ المسالـك

فإن زدتُ قالوا قالَ سحنون مثلَهم ومن لم يقُلْ ما قاله فَهـو آفِـك

فإن قلتُ قالَ ا ضجوا وأكثروا وقالوا جميعا أنتَ قِرن مماحـك

وإن قلتُ قَد قالَ الرسولُ فقولُهـم أتتْ مالكا في تركِ ذاك المسالك[1]

(الطويل)

حرف اللام

قال في الناصر بسبب بنائه مدينة الزهراء:

يا باني الزهراءِ مستغرقا أوقاتَه فيها أمـا تَمهـلْ

ما أحسنَهـا رونقـا لو لم تكن زهرتُها تذبلْ[2]

(السريع)

وقال بعد أن فرغ من خطبته التى ألقاها بحضرة ملك الروم صاحب القسطنطينية:

مقالٌ كحد السيفِ وسـطَ المحافـل فَرقْـتُ بهِ ما بيـن حـقّ وباطـل

بقلـبٍ ذكـي ترتمـي جنَباتُـه كبارقِ رعدٍ عند رعـشِ الأنامـل

فما دحضتْ رجلي وما زلّ مِقولي ولا طاشَ عقلي يوم تلـك الزلازل

بخيرِ إمـامٍ كان أو هـو كائـن لمقتبلٍ أو في العصـورِ الأوائـل

وقد حدقتْ نحوي عيـون إخالُهـا كمثل سهـامٍ أثبتـتْ في المقاتـل

ترى الناس أفواجـا يؤمـون داره وكلهـم مـا بيـن راضٍ وآمـل

وفود ملوكِ الرومِ وسـطَ فِنائِـهِ مخافـةَ بأسٍ أو رجـاء لنائـل

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص469، الحميري، الروض المعطار، ص95-99.

(2) المقري. نفح الطيب، مج1، ص576.

فعشْ سالما أقصى حيـاةِ معمـرٍ فأنتَ غِياثُ كـل حـافٍ وناعِـل
ستملكُها ما بين شرقٍ ومغـربٍ إلى دربِ قُسطَنْطين أو أرض بابل[1]

(الطويل)

حرف الميم

وفي ارجوزة ابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاوية رابعهم ولم يذكر عليا فيهم ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بني مروان إلى عبد الرحمن بن محمد، فلما رأى ذلك غضب وسب ابن عبد ربه، وكتب على حاشية الكتاب:

أوما علي -لا برحت ملعنا- يا ابن الخبيثةِ عندكم بإمامِ
رب الكساءِ وخير آل محمدٍ داني الولاءِ مقدم الإسلامِ[2]

(الكامل)

حرف النون

وله وقد آذاه شخص فخاطبه منذر بالكنية، فقيل له: أيؤذيك وأنت تخاطبه بالكنية؟ فقال:

لا تعجبوا من أنّني كنيته مِن بعدِ ما قد سبنا وآذانا
فا قد كنّى أبا لهبٍ وما كنّاه إلا خزيـةً وهوانـا[3]

(الكامل)

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج1، ص373. الحموي، معجم الأدباء، مج10، ج19، ص184-185. المراكشي، المعجب، ص56. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص296. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص244.
(2) المقري. نفح الطيب، مج2، ص511-512.
(3) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص249. المقري، نفح الطيب، ج1، ص374.

دون حرف روي

وقال في معنى أن يكتب أحدهم الحديث ولا يتفهم ولا يتدبر:

انْعقْ بما شئتَ تَجِـدِ أنصارا ورم أسفـارا تجـد حمـ ـارا
يحملُ ما وضعتَ من أسفـار فَمِثْلُـه[1] كمثـ ـل الحِمـ ـار
يحمل أسفارا لـه ومـا درى إن كان ما فيها صوابا أو خطا
إن سئِلوا قالوا كـذا روينـا مـا إن كذبنـا ولا اعتدينـ ـا
كبيرهم يصغر عند الحفـل لأنّـه قلّـد أهـلَ الجهـ ـل[2]

(الرجز)

سادسا: أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد ا بن مذحج الزبيدي الإشبيلي:

حرف الحاء

وأهدى القاضي أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن وافد اليحصبي إلى الزبيدي في طبق ورد بكيرا، وكتب معه إليه:

أهديتُ شَبهك منظرا في العالمين ومخبـرا
فتَقَبضنْـن بدر الذي يرجو رضاك وذا حرا

(مجزوء الكامل)

فأجابه الزبيدي:

طبـ ـق الـ ـورد الـذي أهدى إلى الأرواح روحا
فأنـ ـا دهـري عليـ ـه أعتنـي بالشكـ ـر مدحـ ـا

---

(1) وردت في المصدر (مثله) بدون فاء، ولا يستقيم الوزن إلا بها.

(2) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص413.

لم تزل في العلم يا يحيى عـلـى الأدواح دوحـــا[1]

(الرمل)

حرف الراء

يقول في تكذيب المنجم:

يقـولُ المنجـم لي لا تَسِــر فإنّك إن سِرتَ لاقيْتَ ضـرا

فإن كان يعلـم أنّـي جسيـر فقد جاء بالنهي لَغْوا وهجـرا

وإن كان يجهلُ سيري فكيـفَ يراني إذا سِرتُ لاقيتُ شَرا[2]

(المتقارب)

ويقول في الزهد:

لو لم تكن نار ولا جنّةٌ للمـرءِ إلا أنّـه يقْبـر

لكان فيهِ واعظٌ زاجر ناهٍ لمن يسمع أو يبصر[3]

(السريع)

حرف السين

وقوله في الشكوى من أهل زمانه:

أشْعِرن قلبـك ياسـا ليس هذا الناس ناسـا

ذهب الإبريز منهـم فبقُـوا بعـد نحاسـا

سامرييـن يقولـو ن جميعا: "لا مِساسا!"[4]

(مجزوء الرمل)

---

(1) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص668.

(2) الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج2ص81. عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص583.

(3) الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج2، ص81. المقري، نفح الطيب، ج6، ص74.

(4) المقري، نفح الطيب، ج3، ص475-476. ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص673.

ويقول في أبي مسلم بن فهد الهذلي الإشبيلي:

أبـا مسلـمٍ إن الفتـى بجنانِـهِ ومِقْولِـهِ لا بالمراكـبِ واللبـسِ
وليس ثياب المرءِ تُغنـي قُلامـةً إذا كان مقصورا على قِصرِ النفـسِ
وليس يفيد العلم والحِلم والحِجـا أبا مسلمٍ طولُ القعـودِ على الكرسي
ولا تُبتنـى العليـا بكأسٍ وقينـةٍ وصهباء لم تنْغَر بها القِـدر كالورسِ
أعيرتني أن لـم أفـَره مطيتـي وأن ثيابي غيـر بيـضٍ ولا ملْـسِ
فرب ثيـابٍ رثّةٍ حشْوهـا فتًـى أجد مِـر غيـر فَسـلٍ ولا نِكْـسِ
وآخَر براقُ الثيـابِ وعِرضـه من العارِ والتدنيسِ رجس على رجسِ
فإمـا تَهولنْـك البغـالُ فإنّهـا منَوعـةٌ عنـد اليهـودي والقَـس[1]

(الطويل)

حرف الضاد

ويقول في طلب العلم:

ما طلبتُ العلوم إلا لأني لم أزلْ من فنونها في رياضِ
ما سواها له بقلبي حظ غير ما كان للعيون المراض[2]

(الخفيف)

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص120. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص86. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص181. الضبي، بغية الملتمس، ص57. السيوطي، بغية الوعاة، ص34. ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم2، ص66. المراكشي، المعجب، ص63. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص278. نفح الطيب، ج4، ص7، ج7، ص40.
(2) المقري، نفح الطيب، ج3، ص475.

حرف الظاء

وكتب الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي إلى القاضي الزبيـدي كتابـا فيـه "فاضت نفسه" بالضاد، فجاوبه الزبيدي بمنظوم بين له فيه الخطأ دون تصريح، وهو:

قلْ للوزيـر السنِـي محتِـده   لي ذمةٌ منك أنـتَ حافظُهـا

عنايـةٌ بالعـلـومِ مفْخـرةٌ   قد بهـظَ الأوليـن باهظُهـا

يقِـر لي عمرهـا ومعمـَرها   فيهـا ونظامهـا وجاحظُهـا

قد كان حقًّا قبـولُ حرمتِهـا   لكن صرفَ الزمان لافظُهـا

وفي خُطوبِ الزمان لي عِظَةٌ   لو كان يثني النفوس واعظُها

إن لم تُحافظْ عصابةٌ نُسِبـتْ   إليك قِدمـا فمـن يحافظُهـا

لا تَدعـن حاجتي بمطْرحـةٍ   فأن نفسي قـد فاظَ فائظُهـا

(المنسرح)

فأجابه المصحفي:

خفض فِواقا فأنـتَ أوحـدها   علمـا ونقّابهـا وحافظُهـا

كيفَ تَضِيع العـلوم في بلـدٍ   أبنـاؤه كلهـم يحافظُهـا

ألفاظُهـم كلهـا معطّلـةٌ   ما لم يعولْ عليـك لافظُهـا

من ذا يساويك إن نطقتَ وقد   أقر بالعجز عنـك جاحظُهـا

علْم ثنى العالمين عنك كمـا   ثَنى عن الشمس من يلاحظُها

وقـد أتتني وُدِيـتَ شاغلـةٌ   للنفس أن قلـتُ فاظَ فائظُهـا

فأوضِحنْهـا تَفُـز بنـادرةٍ   قد بهـظَ الأوليـن باهظُهـا

(المنسرح)

فأجابه الزبيدي، وضمن شعره الشاهد على ذلك:

أتانـي كتـاب مـن كريـمٍ مكـرمٍ	فنَفـس عـن نَفْـسٍ تكـاد تَفيـظُ
فسـر جميـع الأوليـاء وروده	وسيء رجـالٌ آخـرون وغِيظـوا
لقد حفِظَ العهـد الـذي قـد أضاعـه	لـدي سـواه والكريـم حفيـظُ
وباحثتَ عن "فاظَـتْ" وقبلِـي قالهـا	رجـالٌ لديهم في العلـومِ حظـوظُ
روى ذاك عن "كيسان" "سهلٌ" وأنشدوا	مقـالَ أبـي الغَيـاظِ وهو مغِيـظُ
"وسميـتُ غَياظـا ولسـتُ بغائـظٍ	عـدوا ولكـن للصديـق تَغِيـظُ"
"فلا حفِظَ الرحمـن روحـك حيـةً	ولا هي في الأرواح حيـن تَفِيـظُ"(1)

(الطويل)

حرف العين

اشتاق وهو بقرطبة إلى إشبيلية، فاستأذن الأمير الحكم، فرفض فكتب إلى جاريته سلمى:

ويحـكِ يا سلـم لا تراعي	لا بد للبيـن مـن زمـاعِ
لا تحسبينـي صبـرتُ إلا	كصبر ميتٍ على النـزاعِ
ما خلـقَ ا مـن عذابٍ	أشـد مـن وقفـةِ الوداعِ
ما بيننـا والحمـامِ فَـرقٌ	لولا المناحـاتُ والنواعي
إن يفترقْ شملنـا وشيكـا	من بعدِ ما كان ذا اجتماع
فكل شمـلٍ إلى افتـراقٍ	وكل شعبٍ إلى انصـداعِ

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص86_88. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص182-183. المراكشي، المعجب، ص63-64. المقري، نفح الطيب، ج4، ص6-7.

وكـل قـُربٍ إلى بِعـادٍ وكل وصلٍ إلى انقطـاعِ [1]

(مخلع البسيط)

حرف الفاء

وله في رثائه لشيخه علي بن إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي اللغوي قصيدة جزلة الألفاظ كثيرة الغريب، صاغها صوغ فحول العرب وضمنها قطعة من غريب كلامهم، وهي قصيدة طويلة أولها:

تا لا يبقى لصرفِ النّوى ذو جبدٍ في رأسِ نيقٍ منيفْ[2]

(السريع)

وله في الأخلاق:

أقابلُ بالرفْقِ عنْفَ العنيفِ وأقنع من صاحبي بالطفيفِ

ويكرمني بر غير الشريفِ فأنسخُ ذاكِ ببـر الشريـفِ[3]

(المتقارب)

حرف القاف

ويقول في الطاعة والانقياد إلى ا عز وجلّ:

اتركِ الهم إذا ما طرقّك وكل الأمر إلى من خلقَك

(1) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج1، ص184. الحميدي، جذوة المقتبس، قسم1، ص88. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص351. الحموي، معجم الأدباء، مج9، ج18، ص183-184. الضبي، بغية الملتمس، ص57. المراكشي، المعجب، ص65. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص278-279. المقري، نفح الطيب، ج4، ص7-8، ج7، ص40.

(2) الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج2، ص81.

(3) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص668.

وإذا أمل قـوم أحـدا فإلى ربـك فامدد عنُقَـك[1]

(الرمل)

حرف اللام

وقف زرب القاضي يوما بالزبيدي، فلما علم به خرج إليه مكشوف الرأس وبيده مدية، فلما كان في بيته سارع لقضاء حقّه، فوقف قائما وقضى حقّه، فأنكر ابن زرب خروجه على تلك الهيئة وسأله الجلوس، فأبى وأنشد:

أقوم وما بي أن أقـوم مذَلّـةً علي وإنّي للكرامِ مبجـلُ

على أن لي منها لغيري مجنّةً ولكنّها بيني وبينك تجملُ[2]

(الطويل)

حرف الميم

ويقول في حسن الإسلام:

كيفَ بالدين القويـمِ لـك مـن أم تميـمِ

ولقـد كـان شفـاء من جوى القلبِ السقيمِ

يشرقُ الحسن عليها في دجى الليل البهيـم[3]

(مجزوء الرمل)

وكتب مراجعا:

أغْرقْتَنـي في بحـور فكـرٍ فكدتُ منهـا أمـوتُ غمّـا

(1) المقري، نفح الطيب، ج4، ص333.

(2) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص583.

(3) المقري. نفح الطيب، ج7، ص39. ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص277.

كلفْتَنــي غامضــا عويصــا
أرجم فيهِ الظنــون رجمــا

ما زالتُ أسروا السجوفَ عنه
كأنّنــي كاشــفٌ لِظلْمــــا

أقــرب مــن ليلــهِ وأنــأى
مستبصرا تــارةً وأعمــى

حتّى بــدا مشْــرقُ المحيــا
لمــا اعتلى طالِعــا وتَمــا

مــن منْطِــقٍ وجيــزِ
قد جــل قدرا ودق فَهمــا

أخْلَصــتُ فيــــهِ قــولا
سلمــتُ فيــــهِ حكْمــا

إذا قلتُ قولَ امرئٍ حكيــمٍ
مراقِــبٍ للإلــه عِلْمـــا

ربـــــي ولــي نَفْســي
في كل بؤسٍ وكــل نُعمى[1]

(مخلع البسيط)

حرف النون

وقوله:

الفقر في أوطاننّــا غربــةٌ
والمالُ في الغربةِ أوطان

والأرض شتّى كلها واحد
والناس إخوان وجيران[2]

(السريع)

سابعا: أبو عبد الله محمد بن سليمان بن خليفة بن عبد الواحد الأنصاري:

حرف السين

من شعره في الشكوى:

كان الزمان وكان الناس أشبهه
فاليوم فوضى فلا دهر ولا ناس

(1) المقري. نفح الطيب، ج7، ص39. ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص277.

(2) الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج2، ص81.

أسافلٌ قد علتْ لم تعلُ عن كرمٍ ومشرفـاتُ الأعالي منه أنكاس[1]

(البسيط)

حرف العين

وقوله في النسيب:

ومـن عجبٍ أنّي أهيـم بحبـهِ وأوليه إعراضـا وفي القلـبِ يرتـع

كـذي رمـَدٍ في مقلتيهِ يزيـده سنا الشمسِ ضرا وهو بالشمسِ مولع[2]

(الطويل)

حرف الفاء

ومن شعره في النسيب:

تقولُ سليمى إذ وفَيتُ بعهدهـا أشيب وفي وصل الأحبةِ منصفُ

وإن بياضـا كان مني سـواده مكان السويدا بالعلاءِ مصـرفُ

فقلتُ أجلْ إن تعفُ أطلالٌ وامقٍ تراه له في ذاك الرسمِ موقـفُ

وهلْ هو إلا قالص فوقَ ثوبـهِ ولكنه القلب الذي كنتَ تعرفُ[3]

(الطويل)

حرف القاف

وكان قد تغرب في الفتنة إلى جهة تُدمِير:

---

(1) ابن عسكر، أبو عبد ا وأبو بكر بن خميس. أعلام مالقة، تحقّيق: الدكتور عبد ا المرابط الترغي، طر، ص75. دار صادر، بيروت: 1999م. النباهي. تاريخ قضاة الأندلس، ص100.

(2) ابن عسكر. أعلام مالقة، ص76.

(3) المصدر نفسه، ص75.

أعـاد ا أيـ ـام التلاقـ ـ ـي كمـا كنّـا بهـا قبـلَ الفِـراق

وأكملَ بالسرور إيـ ـاب نفسـ ـي فقـ ـد آلَ السـ ـرور إلى محـ ـاق

نأى صبري غداةَ نأيتُ عنكـ ـم وهـ ـلْ تنـ ـأى همومي واشتياقي

لئن ضـ ـن الأسى بالصبر عنّي فمـ ـا ضنّـ ـتْ بأدمعِهـ ـا مآقـ ـي

أحـ ـن إلى الرفـ ـاق لأن ُأنسي بأخبـ ـار الأحبـ ـةِ في الرفـ ـاق

وأفـ ـرح بالهـ ـلال لأن خِلّـ ـي بـ ـهِ في غيـ ـر آنـ ـاءِ المحـ ـاق

كأنّي مذْ نأيتُ وصـ ـرتُ رهنا بتدميـ ـ ـرِ أسيـ ـ ـر في وثـ ـاق

لقـ ـد أبقـ ـى فِراقُكـ ـم بقلبـ ـ ـي كلومـ ـا لَـ ـذع حرقتهـ ـن بـ ـاق

أرى ليلـ ـي علـ ـي إذا تدجـ ـى سـ ـواء والنهـ ـار بمـ ـا ألاقـ ـي

أقولُ وقـ ـد ذكرتُك فاستقـ ـادتْ لذكـ ـرك أدمعي ذاتُ اشتياقـ ـي

سلام تَرجفُ الأحشـ ـاء منـ ـه على الحسن بن وهبٍ والعراق

على البلدِ الحبيبِ إلي غـَ ـورا ونجدا والأخ العـ ـذْبِ المـ ـذَاق[1]

(الوافر)

ثامنا: أبو بكر محمد بن إسحقّ بن السليم:

حرف اللام

كتب إلى الحكم المستنصر با :

لو أن أعضاء جسمي ألسن نطقتْ بشكر نعماك عندي قل شكري لَك

أو كان ملّكني الرحمن مـ ـن أجَلِي شيئا وصلتُ بهِ يا سيـ ـدي أجلَك

[1] ابن عسكر. أعلام مالقة، ص76.

ومن تك في الورى آمالُه كثُـرتْ فإنّما أملي في[1] أن ترى أملَـك[2]

(البسيط)

ولوى القاضي ابن السليم للوزير أبي زيد بن خدير بإنفاذ تسجيل له، فاستبطأه أبو زيد وكتب إليه يعتبه بشعر:

إليك بك الشكوى لعلّـك موصلي وإن كنت قد ضيعت سبلَ توصيلي

إذا لم يكن منـك الجميـلُ فإنني رضيتُ بإن أعتاض حسن التنصل

لأجعلَ دون الصبر للوصل عقلَه عسى وطنـا يبقى لنـا بالتجمـل

(الطويل)

فأجابه القاضي بقوله:

أتاني قريض كالجمان المفصـل بديـع معانيه لطيـفُ التوصـل

حباني بهِ نـدب كريـم معظـم بأسلابِـهِ مـن ماجـدٍ متفضـل

خلا أن فيهِ بعض عتْبٍ لشخصٍ يلام لتقصيـرٍ وليـس بموئـَل

وما عاقَ عن إنفاذ ما قـد رغبته سوى خطأ في العقل غير محصل

وغاب اللذان أخطـآ في نظامـهِ فلم يكتمـلْ منـه مـراد مؤمـل

وإنّي وقد طالَ انتظاري علاجه فأكملتُ ما قد كان غيـر مكمـل

وهذا أبو بكْـرٍ فأعـدلُ شاهـدٍ يقـولُ مقالي لا محالـةَ فاعـدل

ورفقا بخِل غير جاْـدٍ لعاتـبٍ على أنه جاْد لدى كـل معضِـل[3]

(الطويل)

---

(1) لم ترد (في) في المصدر، وإنّما جئنا بها ليستقيم الوزن.

(2) المقري. نفح الطيب، مج3، ص466.

(3) عياض، ترتيب المدارك، ج3_4، ص544_545.

تاسعا: أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد:

حرف الباء

ويقول في النسيب:

محب ما يساعده الحبيـب   رأى وجه الإنابةِ لو ينيـب
ويبكي للصبا إذ زالَ عنه   فيضحك في مفارقهِ المشيب
وكم أحيتْ حشاشتُه أمانٍ   يباعد بينها الأجلُ القريـب[1]

(الوافر)

حرف الجيم

وقال في النيلوفر:

يا ناظرين لذا النيلوفر البهـج   وحسن مخْبره في الفَـوح والأرجِ
كأنّـه جـام دُر فـي تألقـهِ   قد أحكموا وسطَه فصا من السبجِ[2]

(البسيط)

حرف الذال

وقال في وصف زهرة الظيان:

ترى ناضر الظيان فـوقَ غصونـهِ   إذا هو مِن ماءِ السحائبِ يغتـذي
وحفّـتْ بـهِ أوراقُـه في رياضِـهِ   وقد قُد بعض مثلَ بعضٍ وقد حذي
كصفرٍ من الياقوتِ يلبس في الضحى   منضدةً من فوق قُضبِ الزمـردِ[3]

(الطويل)

---

(1) ابن الأبار. الحلة السيراء، قسم2، ص38.

(2) الحميدي. جذوة المقتبس، ص134. الضبي. بغية الملتمس، ص101. ابن الأبار. الحلة السيراء، قسم2، ص39. المقري. نفح الطيب، ج4، ص228.

(3) ابن بسام. الذخيرة، ج1، قسم2، ص23. ابن الأبار. الحلة السيراء، قسم2، ص39.

حرف الراء

قال يشبه شجرة الياسمين بمطرف (ثوب من حرير) أخضر:

وياسمينٍ حسـن المنظـر يفوقُ في المرأى وفي المخبرِ
كأنها[1] من فوق أغصانِهِ دراهم في مطـرفٍ أخضـرِ[2]

(السريع)

ويقول في الياسمين:

يا حبذا الياسمين إذ يزهـر فوقَ غصـونٍ رطِيبةٍ نُضـر
قدِ امتطى للجبال ذروتَهـا فوقَ بساطٍ من سندسٍ اخضر
كأنـه والعيـون ترمقُـه زمـرد في خلالِـهِ جوهـر[3]

(المنسرح)

وقال يفتخر ويمني نفسه في اتساع ملكه:

ولا بد من يومٍ أَسود على الورى ولو رد عمرو للزمـان وعامـر
فما المجد إلا في ضلوعي كامن ولا الجود إلا مـن يميني ثائـر
فجيشُ العلا ما بيـن جنبي جائلٌ وبحر الندى ما بيـن كفي زاخر[4]

(الطويل)

---

(1) وردت في المصادر (كأن) وبها لا يستقيم الوزن.

(2) ابن بسام. الذخيرة، ج1، قسم2، ص23. ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص38.

(3) ابن بسام. الذخيرة، ج1، قسم2، ص23. ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص39. المقري، نفح الطيب، ج4، ص242.

(4) ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص38.

حرف الضاد

وقال معارضا أبا الأصبع بن عبد العزيز، فنقد عليه شيئا من التشبيه، فقال يعرض به ويعاتبه:

أبلـغْ شقيقـي عنّـي مقالـــةً لتمضـه
بأن وصـفَ الأقاحي آلذي وصفتَ لم أرضه
هلا وصفتَ الأقاحي بأكـؤسٍ مـن فضـه
أوِ النجـومِ تساقـطْ ن في المها المبيضه[1]

(مجزوء المجتث)

حرف القاف

وله في وصف زهرة الظيان:

كأن لون الظيان حين بدا نواره أصفـرا على ورقِـه
لون محب جفاه ذو ملـلٍ فاصفر من سقْمِهِ ومن أرقِه[2]

(المنسرح)

عاشرا: أبو الوليد يونس بن عبد ا بن مغيث المعروف بابن الصفار:

حرف الباء

يقول في قيام الليل:

النوم من مرسِلِهِ رحمـةُ وراحـةٌ للبـدن المتعـبِ
فخُذْ من النومِ بحـظ فإن قضيتَ منه وطَرا فانْصبِ[3]

(السريع)

(1) ابن بسام. الذخيرة، ج1، قسم2، ص205.
(2) ابن الأبار، الحلة السيراء، قسم2، ص39.
(3) عياض، ترتيب المدارك، ج3-4، ص741.

حرف الدال

وله في الحثّ على خلق الصبر:

أدافع أيامي بقصـدٍ وبلْغَـةٍ   وألزم نفسي الصبر عند الشدائدِ

وأعلم أنّي في مكابدةِ البلا   بعين الذي يرجوه كل مكابـدِ[1]

(الطويل)

حرف الراء

وله في وصف الديار:

ديار عليها مِـن بشاشـةِ أهلِهـا   بقايا تسر النفس أُنسا ومنظـرا

ربوع كساها المزن من خِلَع الحيا   برودا وحلّاها من النور جوهرا

تسرك طَـورا ثم تَشجـوك تارةً   فترتاح تأنيسا وتشجى تذكّـرا[2]

(الطويل)

حرف السين

وله في الزهد والتصوف:

فررتُ إليـك مـن ظلمي لنفسي   وأوحشنـي العبـاد وأنـتَ أنسي

رضاك هو المنى وبك افتخاري   وذكرك في الدجى قمري وشمسي

قصدتُ إليك منقطعـا غريبـا   لتؤنس وحدتـي في قعـر رمسي

وللعظمى من الحاجاتِ عنـدي   قصدتُ وأنـتَ تعلم سـر نفسي[3]

(الوافر)

(1) عياض. ترتيب المدارك، ج3-4، ص740. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص360.

(2) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص291.

(3) الضبي. بغية الملتمس، ص447. الحميدي. جذوة المقتبس، ص613. ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص289. المقري. نفح الطيب، ج4 ،ص26.

حرف الميم

ومـن شعـره في المستنصـر:

أتَـوا حِسبـةً إذْ قيـلَ جـد نُحـولُه فلم يبقَ من لحـمٍ عليهِ ولا عظْـمِ

فعادوا قميصا في فراشٍ فلـم يـروا ولا لمسوا شيئا يـدل على جسـمِ

طواه الهوى في ثوبِ سقمٍ من الضنى وليس بمحسوسٍ بعيـنٍ ولا وهـمِ[1]

(الطويل)

وله في الحض على فعل الخيرات:

سارع إلى الخيـر وبادر بهِ فإن من خلفك مـا تعلـم

لا تسأمِ الكد وطولَ السرى فطالـب الفردوسِ لا يسلم[2]

(السريع)

حادي عشر: سليمان بن الأسود الغافقي:

حرف الباء

كان سليمان صنيعة للأمير عبد ا قبل ولايته، فكان سليمان يستبطئ قيام دولته طمعا في العودة، فلما ولي وأغفله جعل سليمان ينشد مع جملة الفقهاء للإشهاد:

فلما بلغنا التي كنا نؤملها صرنا شهودا كأنا مثلُ غيابِ[3]

(البسيط)

---

(1) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص290. المقري. نفح الطيب، ج4، ص26.

(2) عياض. ترتيب المدارك، ج3-4، ص740.

(3) الخشني. قضاة قرطبة، ص89.

حرف اللام

وكان ينشد:

تُضحي على وجلٍ تُمسي على وجلٍ ... بين الأقاربِ والجيـران والخُوَّل
كلّ التراب ولا تعملْ لهـم عمـلا ... فالشر أجمعـه في ذاك العمـل[1]

(البسيط)

ثاني عشر: أبو الحسن مختار بن عبد الرحمن الرعيني:

حرف الباء

يقول لبني حمود ملوك قرطبة:

ألا فأذنوا لي بالسـراج فإنّهـا ... نهايـة مطلوبي وفيه عـذاب
فإني قد خلّفت في أُفق موطني ... فراخا هواهم ليـس عنه مناب[2]

(الطويل)

حرف الراء

قال وقد دخل حماما فجلس بإزائه عامي أساء إليه الأدب:

ألا لُعِـن الحمـام دارا فإنّـه ... سواء بِهِ ذو العلمِ والجهل في القَدر
تَضِيع بِهِ الآداب حتّى كأنّهـا ... مصابيح لم تنفقْ على طلعةِ الفجر[3]

(الطويل)

---

(1) النباهي. تاريخ قضاة الأندلس، ص58.

(2) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب، ج2، ص172.

(3) المقري. نفح الطيب، ج3، ص405.

ثالث عشر: أبو عمر بن الحذّاء:

حرف الميم

يقول في قصيدة أولها:

أبدتْ أسى إذْ رأتْ للبين أعلاما — وأظهرتْ للنوى وجـدا وتَهيامـا

لتَعلَمن بنـو مـروان أن لهـا — مولّى يضرم نار الحربِ إضراما

قد قارع الدهر حتّى فُل مضربه — يرى مع الدهر مظلوما وظلاما[1]

(البسيط)

رابع عشر: أبو عمر أحمد بن يحيى بن أحمد بن سحيق بن محمد بن عمر بن واصل بن حرب بن اليسر بن محمد بن علي:

حرف اللام

وقد تذاكر مع آخر آداب عيادة المرضى، وتناشدا قول الناظم[2] في ذلك:

حكْم العيادةِ يوم بين يومين — واقعد قليلا كمثل اللحظِ في العين

لا تَبرمن عليلا في مسائِلِهِ — يكفيك من ذاك: تسألُه بحرفيـن

(البسيط)

وأنشد القاضي لنفسه معارضا لهذا الشعر:

إذا لَقيـتَ عليـ ـلا — فاقعـد لديهِ قليـلا

ولا تُطـولْ عليـهِ — وقلْ مقالا جميـلا

---

[1] الحميدي. جذوة المقتبس، ص632. الضبي. بغية الملتمس، ص459.

[2] البيتان لجعفر بن حذار الكاتب، فقد وردا في: ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص243.

وقم بفضلك عنــه   تكن حكيما نبيــلا[1]

(مجزوء المجتث)

خامس عشر: أبو عمر يوسف بن عبد البر بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي:

حرف الألف

يقول في معنى الزهد والطاعة:

تجـافَ عـن الدنيا وهـون لقدرهـا   ووف سبيـل الديـن بالعروةِ الوثقـى
وسـارع بتقـوى ا   سـرا وجهـرةً   فـلا ذمةٌ أقـوى هديـتَ من التقـوي
ولا تنـس شكر ا ِ فـي كـلّ نعمـةٍ   يمن بهـا فالشكـر مستجلـب النعمى
فدع عنك مـا لا حـظ فيـهِ لعاقـلِ   فإن طريـقَ الحـقّ أبلـج لا يخفـى
وشُـح بأيـامٍ بقيـن قلائـلِ   وعمـرٍ قصيـرٍ لا يـدوم ولا يبقـى
ألم تـر أن العمـر يمضـي موليـا   فَجِدتُـه تَبلـى ومدتُـه تَفْنـى
نخـوض ونلهـو غَفْلَـةً وجهالـةً   وننشُـر أعمـالا وأعمارنـا تُطْـوى
تُواصِلُنـا فيـهِ الحـوادثُ بالـردى   وتَنتابنـا فيـهِ النوائـب بالبلـوى
عجِبتُ لنفـسٍ تُبصـر الحـقّ بينـا   لديهـا وتأبى أن تُفـارقَ مـا تَهـوى
وتسعى لمـا فيـهِ عليهـا مضـرةٌ   وقد علمتْ أن سوفَ تُجزى بما تَسعى
ذنوبـي أخشاهـا ولسـتُ بآيِـسٍ   وربي أهـلٌ أن يخـافَ وأن يرجـى
وإن كان ربي غافرا ذنْب مـن يشـا   فإنّـي لا أدري أأُكْـرم أم اُخْـزى[2]

(الطويل)

(1) ابن باشكوال. الصلة، قسم1، ص58.

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص296. نفح الطيب، ج4 ،ص28-29.

حرف الباء

وقال في معنى (لا يستطاع العلم براحة الجسم):

يا من يرى فضل[1] جمع المال والكتبِ	خُدعـتَ وا ليـس الجـد كاللعـبِ
العلم ويحك مـا في الصـدر تجمعـه	حفظـا وفهمـا وإتقانـا فـداك أبـي
لا مـا توهمه العنـدي مـن سفـه	إذْ قالَ مـا تبتغي عنـدي وفي كتبـي
قـالَ الحكيـم مـقالا ليـس يدفعـه	ذو العقل من كان من عجمٍ ومن عربِ
مـا إن ينـالُ الفتى علْمـا ولا أدبـا	براحـةِ النفـسِ واللّـذاتِ والطَـربِ
نَعـم ولا باكتسـابِ المـال تجمعـه	شتّـَان بيـن اكتسـابِ العلمِ والذَهبِ
أليس في الأنبياءِ الُرسـل ُأسـوتنـا[2]	عليهم صلـواتُ الرب ذي الحجـبِ
حازوا العلوم وعنهم جملةٌ وَرثَتْ	وعـاشَ أكثرهـم جهـدا بلا نَشَـبِ
إن الحيـاء لخيـر كلـه أبـدا	ما لم يحلْ بين نفسِ المـرءِ والطَلـبِ
وكل ما حالَ دون الخير لـم يـك في	ما بين ذاك وبين الخير مِـن نَسـبٍ[3]

(البسيط)

وقال أحمد بن محمد بن أحمد في فضل الكتاب:

وألذ[4] ما طلب الفتى بعد التقى	علْـم هنـاك يزينُـه طَلَبـه
ولكـل طالـبِ لـذةٍ متنَـزه	وألـذ نُزهـةِ عالـمٍ كُتُبـه

(الكامل)

---

(1) لم ترد كلمة (فضلَ) في المصدر، وإنّما جئنا بها ليستقيم الوزن والمعنى.

(2) لقد وردت في المصدر بلفظ (أرسل)، ولا يستقيم الوزن والمعنى إلا بـ (الرسل).

(3) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص120.

(4) وردت في المصدر (ألذ) والوزن لا يستقيم إلا بالواو.

وزاد القاضي فيها بحضرته فقال:

يسلي الكتاب هموم قارئِهِ ويبين عنه إن قَرا نَصبـه

نِعم الجليس إذا خَلَوتَ بِهِ لا مكره يخشى ولا شَغَبه[1]

(الكامل)

حرف الراء

وقال في تقليد العامة علماءها من قصيدة له:

يـا سائلـي عـن موضع التقليدِ خُـذْ عنّـي الجـواب بفهـمٍ لـب حاضـر

وأصِـخْ إلى قولـي ودن بنصيحتـي واحفـظْ علـي بـوادري ونـوادري

لا فَـرقَ بيـن مقَلـدٍ وبهيمـةٍ تنقـاد بيـن جنـادلٍ ودعاثـر

تبـا لقـاضٍ أو لمفـتٍ لا يـرى علـلا ومعنـى للمقـال السائـر

فإذا اقتديـتَ فبالكتـابِ وسنّـةِ الـ مبعـوثِ بالديـن الحنيـفِ الطاهـر

ثـم الصحابـةِ عنـد عدمـك سنّـةٍ فأولاك أهـلُ نهـى وأهـلُ بصائـر

وكـذاك إجمـاع الذيـن يلونَهـم مِـن تابعيهـم كابـرا عـن كابـر

إجمـاع أمتنـا وقـولُ نبينـا مثلُ النصوصِ لدى الكتـابِ الزاهـر

وكـذا المدينـةُ حجـةٌ إن أجمعـوا متتابعيـن أوائـلا بأواخـر

وإذا الخـلافُ أتى فدونَـك فاجتَهـد ومـع الدليـل فَمِـلْ بفَهـمٍ وافـر

وعلى الأصول فقِس فُروعك لا تَقِس فرعـا بفـرعٍ كالجهـول الحائـر

والشـر ما فيـهِ- فديتُـك- أسـوة فانْظُـر ولا تحفَـلْ بزلـةِ ماهـر[2]

(الكامل)

---

(1) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص512.

(2) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص291-292.

وبعد أن بين ضرورة الاجتهاد والاطلاع على الأصول والسنن قال:

ولسـتُ بناجٍ مِـن مقالـةِ طاعـنٍ ولو كنتُ في غارٍ على جبلٍ وعـر
ومن ذا الذي ينجوا مِن الناسِ سالما ولو غاب عنهم بين خافِيتَي نسـر[1]

(الطويل)

وأنشد:

تذكرت من يبكي علي مداومـا فلم الفِ إلا العلم بالديـن والخبـر
علـوم كتاب ا والسنـن التي أتتْ عن رسول ا مع صحة الأثر
وعلم الألى من ناقديه وفهم مـا له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر[2]

(الطويل)

حرف العين

وقال في الحديث واتباع الأثر:

مقالـةُ ذي نُصحٍ وذاتُ فوائـدٍ إذا مِن ذوي الألبابِ كان استماعها
عليكـم بآثـارِ النبـي فإنّهـا مِن آفضل أعمال الرشاد اتّباعهـا[3]

(الطويل)

توجه من دانية قاصدا المعتضد بن عباد في إشبيلية وقال له:

قصدتُ إليك من شرق لغـربٍ لتُبصِر مقلتي مـا حـل سمعي
وتَعطِفُك المكارم نحو أصـلٍ دعاكم راغبـا في خيـر فَرعِ

---

(1) المصدر نفسه، ص471.

(2) المقري، نفح الطيب، ج6، ص61. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص359. المقري، نفح الطيب، ج4، ص327.

(3) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ص284. المقري، نفح الطيب، ج6، ص327.

فإن جدتُم بهِ من بعـد عفـوٍ		فليـس الفضـلُ عندكم ببـدع

فوعدك كي يسكن خفـقَ قلبي		ويرقأ من جفوني سكب دمعي[1]

(الوافر)

وقوله في الهدية:

سخافةُ المرءِ تُدرى في هديتِهِ		والنوك واللؤم فيها يظهران معا

إن اللئيـم إذا أهدى هديتَـه		أبدى نذالتَه فيها لِمـن سمِعـا[2]

(البسيط)

حرف الفاء

وله يصف ما لاقى من البعوض بإشبيلية في الشرف، وفي مدينة قَبتور ومدينة قَبطيل، وذلك حين مبيته بها، وما منه تلقى أهل المدينة أيضا:

بعوض قَبتور والقَبطيـل والشـرفِ		قد آذنتْ بذهـابِ النفـس والتلـفِ

فمن مثيـرِ دخـانٍ يستجيـر بـهِ		وآخرٍ مختَفٍ في الثـوبِ ملتَحِـفِ

قد غَيـب الرأس والرجلين مستترا		بالبيتِ من طَـرفٍ فيهِ إلى طَـرفِ

ويلي من الجِرجـسِ المثْني عقْربه		ينصب مثلَ عقـابٍ جاع مختَطِـفِ

يـؤُم أذْنَـي هجمـا كالمهـدِ لي		وكالمنادي بأخـذِ الهاربِ النَطِـفِ

خرطومـه كسنـانٍ لا يقـوم لـه		ثوب مثَنّى ولو كان من الخَزفِ

يا ويلَه من عـدو لسـتَ تدفعـه		إلا بلطْمٍ على الأعضاءِ منصـَرفِ

نفى البعوض أناسا من مساكِنِهـم		على البحيرةِ في غَربٍ من الشَرفِ

(1) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب، ج2، ص329.
(2) ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم1، ص284.

وساحلُ البحرِ طولا أصلُ منيتِـهِ	يغشى المدينةَ في الأبياتِ والغُرفِ
وليـس عنهم بستـْرٍ أو مدافعـةٍ	أو حيلةٍ قد أعدوهـا بِمنْحـرفِ[1]

(البسيط)

حرف اللام

وقال في الأخلاق:

تَعففُ المرء عـن سؤالـه	وكسبـه الحِـل باحتيالـه
وسعيه في صـلاحِ عيـشٍ	لمن يواريهِ مـن عِيالـه
مروءةٌ بالغٌ[2] بهـا مـن	يبلُغُهـا منتهـى كمالِـه
ومن يصـن وجهـه يزنْه	صيانةُ الوجهِ من جمالـه
رضى الفتى بالقضاءِ عـز	وذِلةُ الوجهِ في ابتذالِـه[3]

(مخلع البسيط)

وقال حين رحل من إشبيلية شاكيا من الناس:

وقائلـةٍ مـا لـي أراك مرحــلا	فقلتُ لها: صه واسمعي القولَ مجملا
تَنَكر مـن كُنـا نُسـر بقُربــهِ	وصار زعافا بعدمـا كان سلْسـلا
وحقّ لجـارٍ لم يوافِقْـه جـاره	ولا لاءمتْـه الـدار أن يتَحــولا
بليتُ بحمـصٍ والمقـام ببلـدةٍ	طويلا لَعمري مخْلقٌ يورثُ البِـلا
إذا هان حر عنـد قـومٍ أتاهـم	ولم ين عنهم كان أعمى وأجهـلا

---

(1) ابن عبد البر. بهجة المجالس، قسم2، ص104-105.

(2) جاءت الكلمة مقترنة بالواو ولا يستقيم الوزن الا بحذفها.

(3) ابن عبد البر، بهجة المجالس، قسم،ص165-166.

ولم تُضربِ الأمثـالُ إلا بعالـمٍ وما عوتِب الإنسـان إلا ليعقِـلا[1]

(الطويل)

حرف الميم

وله يصف كتابه (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد):

سمير فؤادي مذُ ثلاثين حجـةً وصيقلُ ذهني والمفرج عـن همي

بسطتُ لكم فيهِ كـلام نبيكـم بما في معانيهِ من الفقـهِ والعلـمِ

وفيهِ من الآدابِ ما يهتـدى بهِ إلى البر والتقوى وينهى عن الظلمِ[2]

(الطويل)

وقال يفتخر بعلومه:

إذا فاخـرتَ فافخر بالعلومِ ودع ما كان من عظْـمٍ رميـمِ

فكم أمسيتُ مطرحـا بجهـلٍ وعلمي حلّ بي بيـن النجـومِ

وكائن من وزيرٍ سار نحـوي فلازمنـي ملازمـةَ الغريـمِ

وكـم أقبلـتُ متئـدا مهابـا فقام إلي مـن ملِـكٍ عظيـمِ

وركبٍ سار في شرقٍ وغربٍ بذكري مثلَ عرفٍ في نسيـمِ[3]

(الوافر)

---

(1) ابن خاقان. مطمح الأنفس، ص295-296. المقري. نفح الطيب، ج4 ،ص30. ابن عبد البر. بهجة المجالس، قسم1، ص243.

(2) ابن عبد البر، الإمام القاضي يوسف بن عبد ا بن محمد القرطبي. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، مج10، ص611. ط1،دار الكتب العلمية، بيروت: 1419هـ_1999م.

(3) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب، ج2، ص329.

سادس عشر: أبو العلاء عباس بن ناصح الثقفي الجزيري:

حرف الباء

وله:

ومجوبة تنفـي مخافتهـا نوم الفتى ذي المـرةِ الندبِ

للجن في أجوازها لَغَـطٌ بالليل مثلُ تنازع الشـربِ

وترى بها جون النعامِ إذا أشْرفْن كالمهنوءةِ الجربِ(1)

(الكامل)

حرف الدال

وله في النسيب:

قل لعبدِ الرحيـمِ رفقـا بعبـدك لا تُمِتْ قلبه بلوعـةِ صـدك

بذمام الهوى وبالسحر من عيـ نيك والوردِ من شقائق خـدك

رق لي رقةً تُشاكلُ خصريـ ك ولا تَقْس مثلَ قسوةِ نَهدِك(2)

(الخفيف)

حرف الراء

وقد توجه إلى الثغر، فلما نزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول: واغوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتّى كلب العدو علينا، فأيمنا وأيتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت كنت مقبلة من البادية فـي رفقة، فخرجت علينا خيل العدو، فقتلت وأسرت، فصنع قصيدته التي أولها:

تململت في وادي الحجارة مسهرا أراعي نجوما ما يردن تغـورا

(1) الطبيب. كتاب التشبيهات، ص167.

(2) المصدر نفسه، ص138.

إليك أبا العاصي نَضيـتُ مطيتي تسير بهـم سريا[1] مهجـرا

تدارك نساء العالميـن بنصـرةٍ فإنّك أحرى أن تغيثَ وتَنصرا[2]

(الطويل)

فلما دخل عليه أنشده القصيدة، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، فغزا ناحيتهم، وأثخن فيها، وفتح الحصون، وخرب الديار، وقتل عددا كبيرا، فأحضر المرأة وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد، فأُحضر، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها.

ولما كانت المجاعة الشديدة سنة 297هـ أكثر الحكم بن هشام (الحكم الربضي) فيها من مواساة أهل الحاجات، فمدحه عباس بن ناصح بقوله:

نكد الزمان فآمنـتْ أيامـه مِن أن يكون بعصره عسر

ظلع الزمان بأزمة فجلا له تلك الكريهةَ جوده الغمر[3]

(الكامل)

وقوله في وصف السراب:

قَطَعتُ بها خَرقا كأنّي وآلَه أمامي وخلفي راكب لُجةَ البحر[4]

(الطويل)

وأنشد يوما قوله من قصيدة:

بقَرتُ بطون الشعر فاستُفْرِغَ الحشا بكفي حتّى آب خاويهِ من بقْري[5]

(الطويل)

---

(1) ورد في المصدر (ساريا)، وبها لا يستقيم الوزن.

(2) المقري. نفح الطيب، ج1، ص343.

(3) المقري. نفح الطيب، ج1، ص341.

(4) الطبيب. كتاب التشبيهات، ص170.

(5) المقري. نفح الطيب، ج2، ص262.

فقال له بكر بن عيسى الشاعر: أما وا يا أبا العلاء، لئن كنت بقرت الحشا لقد وسخت يديك بفرثه، وملأتهما بدمه، وخبثتَ نفسك بنتنه، وخَشَمتَ أنفَك بعرفِه، فاستحيا عباس وأفحم عن جوابه.

حرف العين

وقال في وصف طول ليله:

فبت أرقب صبحـا سـد مطْلِعـه   فلا أرى الليـلَ عـن مرقاتهِ انصدعا

كأنّه ونجـوم الليـل قـد جعِلَـتْ   تهوي على السمتِ منها غُورا خُضعا

راعٍ تَلبثَ قد أوصـى بصرمتِـهِ   ُأخرى الرعاءِ يزجي سائقـا هبعـا

يا ليلُ أصبِح ويا صبح استنر فلقد   أبرحتمـاني فإن لـم تفعـلا فَدعـا[1]

(البسيط)

حرف الميم

وله قصيدة أولها:

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدم   إذا المرء لم يعدل تقى ا والكرم

حتّى انتهى:

تجافَ عن الدنيا فمـا لمعجـزٍ   ولا عاجـز إلا الذي خـطّ بالقلم[2]

(الطويل)

---

(1) الطبيب. كتاب التشبيهات، ص138.

(2) المقري. نفح الطيب، ج2، ص261. ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب، ج1، ص246. الصفدي. الوافي بالوفيات، ج16، ص645.

فقال له الغزال: أيها الشيخ، وما الذي يصنع مفَعل مع فاعل؟ فقال لـه: كيـف تقـول؟ فقال:كنت أقول: فليس لعاجز ولا حازم، فقال له عباس: وا يا بني لقد طلبها عمك فما وجدها.

حرف النون

وقال:

متقـارب متباعـد أبياتـ ـه   رجح مثقفَـةُ البنـاءِ رزان

وسماعهن كطعمِ ماءٍ بـاردٍ   عذْبٍ أغيثَ بِبـردِهِ ظمآن

بنيتْ مباديها على أعجازها   فتَنَظمتْ يسمو بهـا البنيان

كقِداحِ متصطَنِع أعد قِذاذها   لنِصالها قَدرا وهـن مِتَان

متلاظّياتٌ ما يـل رمِيهـا   ذُلُقٌ كأن ظُباتهاالشُهبـان[1]

(الكامل)

حرف الياء

وقال في وصف طائر الحدج وسط السراب:

تعوم أحداجهم في الآل رافعةً   عوم السفائِن تُزجيها نَواتيها[2]

(البسيط)

وقوله في الزهد:

ما خير مدة عيش المرءِ لـو جعلـت   كمـدة الدهـر والأيـام تفنيهـا

فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضا   واتبـع نجاتـك بالدنيا وما فيها[3]

(البسيط)

---

(1) الطبيب. كتاب التشبيهات، ص110.

(2) المصدر نفسه، ص170.

(3) المقري. نفح الطيب، ج1، ص276. السيوطي. بغية الوعاة، ص276. الصفدي. الوافي بالوفيات، ج16، 646.

جداول توضيحية بنسب الحصيلة الشعرية للقضاة، والأغراض الشعرية، والأشكال الفنية، والبحور، والقوافي.

الحصيلة الشعرية للقضاة

القاضي	الغرض	عدد الأبيات	البحر	الروي	الحركة	النظم
أبو الوليد عبد ا بن الفرضي	الشوق والحنين	9	الطويل	راء	الفتح	قصيدة
	الزهد	6	الطويل	فاء	الضم	مقطوعة
3	الغزل	2	الكامل	نون	الكسر	نتفة
		17				
أبو عبد ا محمد بن أبي عيسى	المراسلات	2	مجزوء الوافر	راء	الضم	نتفة
	الزهد	8	الخفيف	راء	الكسر	قصيدة
	الهجاء	7	المتقارب	دال	الفتح	قصيدة
7	الشوق والحنين	4	الطويل	قاف	الكسر	مقطوعة
	الشوق والحنين	6	البسيط	سين	الكسر	مقطوعة
	الشوق والحنين	8	الخفيف	لام	الكسر	قصيدة
	الشوق والحنين	10	الخفيف	راء	الضم	قصيدة
		45				
أبو الوليد سليمان الباجي	الشوق والحنين	2	الخفيف	ميم	الكسر	نتفة
	الشكوى	4	الوافر	ميم	الكسر	مقطوعة
	الوصف	3	المتقارب	ميم	السكون	مقطوعة
	الرثاء	7	الطويل	باء	الكسر	قصيدة
	الرثاء	9	الكامل	ميم	الضم	قصيدة
	المدح	23	الكامل	دال	الضم	قصيدة
	المدح	2	مخلّع البسيط	ميم	السكون	نتفة
	المدح	12	الطويل	لام	الضم	قصيدة
	المدح	7	الطويل	نون	الضم	قصيدة
20	الزهد	2	المتقارب	راء	الفتح	نتفة
	الزهد	2	المتقارب	عين	الفتح	نتفة
	الزهد	5	الطويل	دال	الكسر	مقطوعة
	الزهد	4	السريع	راء	الفتح	مقطوعة
	الزهد	2	الطويل	باء	الفتح	نتفة

	الزهد	2	البسيط	ميم	الكسر	نتفة
	الزهد	3	المنسرح	ياء	السكون	مقطوعة
	الزهد	5	الرجز	راء	الفتح	مقطوعة
	الزهد	5	الرمل	ميم	الكسر	مقطوعة
	الزهد	2	المتقارب	باء	الكسر	نتفة
	الزهد	3	المتقارب	ميم	الفتح	مقطوعة
		104				
محمد بن بشير المعافري	الشكوى	5	الرمل	دال	الكسر	مقطوعة
	العلم	7	المتقارب	عين	الضم	قصيدة
3	العلم	12	البسيط	باء	الضم	قصيدة
		24				
منذر بن سعيد البلوطي	الشكوى	3	البسيط	دال	الضم	مقطوعة
	الفخر	9	الطويل	لام	الكسر	قصيدة
	المراسلات	2	مجزوء المجتثّ	فاء	السكون	نتفة
	المراسلات	2	السريع	راء	السكون	نتفة
	الزهد	4	المنسرح	دال	الضم	مقطوعة
	الزهد	2	السريع	لام	السكون	نتفة
12	الزهد	8	الخفيف	باء	الضم	قصيدة
	الزهد	7	المتقارب	راء	السكون	قصيدة
	الهجاء	2	الكامل	ميم	الكسر	نتفة
	الهجاء	2	الكامل	نون	الفتح	نتفة
	الهجاء	5	الرجز	بلا	دون	مقطوعة
	الهجاء	5	الطويل	كاف	الضم	مقطوعة
		51				
أبو بكر محمد الزبيدي	العلم	2	الخفيف	ضاد	الكسر	نتفة
	الرثاء	1	السريع	فاء	السكون	بيت
	الهجاء	3	مجزوء الرمل	سين	الفتح	مقطوعة
	الشوق والحنين	7	مخلّع البسيط	عين	الكسر	قصيدة
	الشوق والحنين	2	السريع	نون	الضم	نتفة
	الأخلاق	2	الطويل	لام	الضم	نتفة

	الأخلاق	2	المتقارب	فاء	الكسر	نتفة
	المراسلات	7	المنسرح	ظاء	الضم	قصيدة
	المراسلات	7	الطويل	ظاء	الضم	قصيدة
17	المراسلات	2	مجزوء الكامل	راء	الفتح	نتفة
	المراسلات	4	مجزوء الرمل	حاء	الفتح	مقطوعة
	الزهد	8	الطويل	سين	الكسر	قصيدة
	الزهد	2	الرمل	قاف	الفتح	نتفة
	الزهد	3	المتقارب	راء	الفتح	مقطوعة
	الزهد	2	السريع	راء	الضم	نتفة
	الزهد	3	مجزوء الرمل	ميم	الكسر	مقطوعة
	الزهد	9	مخلّع البسيط	ميم	الفتح	قصيدة
		66				
أبو عبد ا محمد بن عبد الواحد	الشوق والحنين	12	الوافر	قاف	الكسر	قصيدة
	الشكوى	2	البسيط	سين	الضم	نتفة
4	الغزل	4	الطويل	فاء	الضم	مقطوعة
	الغزل	2	الطويل	عين	الضم	نتفة
		20				
محمد بن إسحقّ بن السليم	المدح	3	البسيط	لام	الفتح	مقطوعة
2	المراسلات	8	الطويل	لام	الكسر	قصيدة
		11				
أبو القاسم محمد بن عباد	الفخر	3	الطويل	راء	الضم	مقطوعة
	المراسلات	4	مجزوء المجتثّ	ضاد	الفتح	مقطوعة
	الغزل	3	الوافر	باء	الضم	مقطوعة
	الوصف	2	السريع	راء	الكسر	نتفة
8	الوصف	2	البسيط	جيم	الكسر	نتفة
	الوصف	3	المنسرح	راء	السكون	مقطوعة
	الوصف	3	الطويل	ذال	الكسر	مقطوعة
	الوصف	2	المنسرح	قاف	الكسر	نتفة

		22				
أبو الوليد يونس بن الصفّار	المديح	3	الطويل	ميم	الكسر	مقطوعة
	الوصف	3	الطويل	راء	الفتح	مقطوعة
	الزهد	4	الوافر	سين	الكسر	مقطوعة
6	الزهد	2	السريع	باء	الكسر	نتفة
	الأخلاق	2	الطويل	دال	الكسر	نتفة
	الأخلاق	2	السريع	ميم	الضم	نتفة
		16				
سليمان بن الأسود الغافقي	المراسلات	1	البسيط	باء	الكسر	بيت
2	الزهد	2	البسيط	لام	الكسر	نتفة
		3				
أبو الحسن مختار الرعيني	الشوق والحنين	2	الطويل	باء	الضم	نتفة
2	الهجاء	2	الطويل	راء	الكسر	نتفة
		4				
أبو عمر بن الحذّاء	المدح	3	البسيط	ميم	الفتح	مقطوعة
1						
أبو عمر أحمد بن يحيى	الأخلاق	3	مجزوء المجتثّ	لام	الفتح	مقطوعة
1						
أبو عمر يوسف بن عبد البر	المديح	4	الوافر	عين	الكسر	مقطوعة
	الفخر	5	الوافر	ميم	الكسر	مقطوعة
	الشكوى	6	الطويل	لام	الفتح	مقطوعة
	الزهد	12	الطويل	ألف	السكون	قصيدة
	الوصف	10	الطويل	فاء	الكسر	قصيدة
	الأخلاق	2	البسيط	عين	الفتح	نتفة
	الأخلاق	5	مخلّع البسيط	لام	الكسر	مقطوعة
	العلم	10	البسيط	باء	الكسر	قصيدة
14	العلم	2	الطويل	عين	الضم	نتفة
	العلم	12	الكامل	راء	الكسر	قصيدة

	العلم	2	الطويل	راء	الكسر	نتفة
	العلم	2	الكامل	باء	الضم	نتفة
	العلم	3	الطويل	ميم	الكسر	مقطوعة
	العلم	3	الطويل	راء	السكون	مقطوعة
		78				
عباس بن ناصح الثقفي	الغزل	3	الخفيف	دال	الكسر	مقطوعة
	الفخر	1	الطويل	راء	الكسر	بيت
	الاستصراخ	3	الطويل	راء	الفتح	مقطوعة
	المديح	2	الكامل	راء	الضم	نتفة
	الزهد	2	البسيط	ياء	السكون	نتفة
	الزهد	2	الطويل	ميم	السكون	نتفة
11	الوصف	5	الكامل	نون	الضم	مقطوعة
	الوصف	4	البسيط	عين	الفتح	مقطوعة
	الوصف	3	الكامل	باء	الكسر	مقطوعة
	الوصف	1	البسيط	ياء	السكون	بيت
	الوصف	1	الطويل	راء	الكسر	بيت
		27				

الأغراض الشعرية

الشوق والحنين	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	0	0
النتفة	3	6
المقطوعة	2	10
القصيدة	5	46
المجموع	10	62

العلم	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	0	0
النتفة	4	8
المقطوعة	2	6
القصيدة	4	41
المجموع	10	55

الغزل	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	0	0
النتفة	2	4
المقطوعة	3	10
القصيدة	0	0
المجموع	5	16

الهجاء	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	0	0
النتفة	3	6
المقطوعة	3	13
القصيدة	1	7
المجموع	7	26

الزهد	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	0	0
النتفة	12	24
المقطوعة	11	45
القصيدة	6	52
المجموع	29	121

الفخر	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	1	1
النتفة	0	0
المقطوعة	2	8
القصيدة	1	9
المجموع	4	18

الوصف	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	2	2
النتفة	3	6
المقطوعة	7	24
القصيدة	1	10
المجموع	13	42

المراسلات	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	1	1
النتفة	4	8
المقطوعة	2	8
القصيدة	3	22
المجموع	10	39

المديح	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	0	0
النتفة	2	4
المقطوعة	4	13
القصيدة	3	42
المجموع	9	59

الأخلاق	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	0	0
النتفة	5	10
المقطوعة	2	8
القصيدة	0	0
المجموع	7	18

الرثاء	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	1	1
النتفة	0	0
المقطوعة	0	0
القصيدة	2	16
المجموع	3	17

الاستصراخ	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	0	0
النتفة	0	0
المقطوعة	1	3
القصيدة	0	0
المجموع	1	3

الشكوى	عدد الأشعار	عدد الأبيات
البيت	0	0
النتفة	1	2
المقطوعة	4	18
القصيدة	0	0
المجموع	5	20

الأشكال الفنية

البيت	
عدد الأشعار	عدد الأبيات
5	5

النتفة	
عدد الأشعار	عدد الأبيات
39	78

المقطوعة	
عدد الأشعار	عدد الأبيات
43	166

القصيدة	
عدد الأشعار	عدد الأبيات
26	245

البحور

البحر	الطويل
التام	34
المجزوء	0
المخلّع	0
المجموع	34

البحر	المتقارب
التام	10
المجزوء	0
المخلّع	0
المجموع	10

البحر	الرجز
التام	2
المجزوء	0
المخلّع	0
المجموع	2

البحر	الكامل
التام	10
المجزوء	1
المخلّع	0
المجموع	11

البحر	البسيط
التام	15
المجزوء	0
المخلّع	4
المجموع	19

البحر	الرمل
التام	3
المجزوء	3
المخلّع	0
المجموع	6

البحر	الوافر
التام	6
المجزوء	1
المخلّع	0
المجموع	7

البحر	السريع
التام	9
المجزوء	0
المخلّع	0
المجموع	9

البحر	المجتثّ
التام	0
المجزوء	3
المخلّع	0
المجموع	3

البحر	الخفيف
التام	7
المجزوء	0
المخلّع	0
المجموع	7

البحر	المنسرح
التام	5
المجزوء	0
المخلّع	0
المجموع	5

القوافي

	الحنين	الغزل	الزهد	الوصف	المديح	الرثاء	الشكوى	العلم	الهجاء	الفخر	المراسلات	الأخلاق	الاستصراخ	المجموع
الهمزة														0
الباء	1	1	4	1		1		3			1			12
التاء														0
الثاء														0
الجيم				1										1
الحاء											1			1
الخاء														0
الدال		1	2		1		2		1			1		8
الذال				1										1
الراء	2		7	4	1			3	1	2	3		1	24
الزاي														0
السين	1		2				1		1					5
الشين														0
الصاد														0
الضاد								1			1			2
الطاء														0
الظاء											2			2
العين	1	1	1	1	1			2				1		8
الغين														0
الفاء		1	1	1		1					1	1		6
القاف	2		1	1										4
الكاف									1					1
اللام	1		2		2		1			1	1	3		11
الميم	1		6	1	3	1	1	1	1	1		1		17
النون	1	1		1	1				1					5
الهاء														0
الواو														0
الياء			2	1										3
الألف			1											1
بلا									1					1
المجموع	10	5	29	13	9	3	5	10	7	4	10	7	1	113

القافية المقيدة

الغرض	العدد	البحر	الروي	القافية	النوع
الوصف	3	المتقارب	ميم	مقيدة	مقطوعة
المدح	2	مخلّع البسيط	ميم	مقيدة	نتفة
المراسلات	2	مجزوء المجتثّ	فاء	مقيدة	نتفة
المراسلات	2	السريع	راء	مقيدة	نتفة
الزهد	2	السريع	لام	مقيدة	نتفة
الزهد	7	المتقارب	راء	مقيدة	قصيدة
الرثاء	1	السريع	فاء	مقيدة	بيت
الوصف	3	المنسرح	راء	مقيدة	مقطوعة
العلم	3	الطويل	راء	مقيدة	مقطوعة
الزهد	2	الطويل	ميم	مقيدة	نتفة

ثبت المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

القرآن الكريم.

ابن الأبار، أبو عبد ا محمد بن عبد ا بن أبي بكر القضاعي: **الحلة السيراء**، 2ج. تحقّيق: حسين مؤنس، ط2. دار المعارف: القاهرة 1985م.

ابن الأثير، ضياء الدين نصر ا بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، 2مج. ط1، تحقّيق: الشيخ كامل محمد محمد عويضة. دار الكتب العلمية: بيروت 1419هـ- 1998م.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: **الكامل في التاريخ**، 12مج. دار صادر ودار بيروت: بيروت 1385هـ-1965م.

إسبر، محمد سعيد، وبلال جنيدي: **معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها**. ط1.دار العودة: بيروت 1981م.

الأصفهاني، العماد: **خريدة القصر وجريدة العصر**. تحقّيق: عمر الدسوقي وعلي عبد ا العظيم. دار نهضة مصر: الفجالة 1964م.

أنيس، إبراهيم، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف ا الأحمر: **المعجم الوسيط**، 2ج. ط2. مجمع اللغة العرية: القاهرة 1392هـ- 1972م.

البخاري، أبو عبد ا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة: **صحيح البخاري**، 5مج، 8ج. تحقّيق: الشيخ عبد العزيز بن عبد ا بن باز، ط1. دار الفكر: بيروت 1411هـ- 1991م.

ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، 4 قسم. دار الثقافة: بيروت (د.ت).

البستي، أبو حاتم محمود بن أحمد بن حبان: **مشاهير علماء الأمصار**. تحقّيق: مجدي بن منصور بن سعيد الشوري، ط1. دار الكتب العلمية: بيروت: 1416هـ- 1995م.

ابن بشكوال، أبو القاسم خاف بن عبد الملك: **كتاب الصلة**، 2قسم. الدار المصرية للتأليف والترجمة: 1966م.

البهوتي، منصور بن يونس: **الروض المربع بشرح زاد المستنقع**، 2ج. ط1. مكتبة العبيكان: الرياض 1413هـ- 1993م.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي: **السنن الكبرى**، 11ج. تحقّبق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية: بيروت 1414هـ- 1994م.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى: **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**، 5ج. تحقّيق: إبراهيم عطوة عوض، ط2. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده: مصر 1395هـ- 1975م.

التهانوي، الشيخ المولوي محمد أعلى بن علي: **موسوعة اصطلاحات العلوم الإنسانية (المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون)**، 6ج. خياط: بيروت (د.ت).

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك النيسابوري: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، 4ج. تحقّيق: د. مفيد محمد قميحة، ط1. دار الكتب العلمية: بيروت 1403هـ- 1983م.

الجرجاني، الإمام عبد القادر: **أسرار البلاغة في علم البيان**. تحقّيق: السيد محمد رشيد رضا، ط1. دار الكتب العلمية: بيروت 1409هـ- 1988م.

الجرجاني، القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز: **الوساطة بين المتنبي وخصومه**. تحقّيق: أحمد عارف الزين. مطبعة الفرقان: صيدا 1331هـ.

الجرجاني، علي بن محمد الشريف: **كتاب التعريفات**. مكتبة لبنان: بيروت 1969م.

الجوهري، إسماعيل بن حماد: **الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية**، 6ج. تحقّيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين: بيروت 1399هـ- 1979م.

ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني: **كتاب تهذيب التهذيب**، 14ج. ط1. دار الفكر: بيروت 1404هـ- 1984م.

ابن حزم ، أبو محمد علي بن الأحمد بن سعيد الأندلسي: **المحلـى**، 8مج، 11ج. تحقّيق: لجنـة إحياء التراث العربي: بيروت (د.ت).

الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى. ت: إحسان عبـاس. دار العروبـة: القـاهرة 1960.

الحموي، ياقوت: **معجم الأدباء**، 10مج، 20ج. ط3. دار الفكر: بيروت 1400هـ- 1980.

الحميدي، أبو عبد ا محمد بن أبي نصر: **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأنـدلس**، 2قـسم. تحقّيق: إبراهيم الأبياري، ط2. دار الكتب الإسلامية: القـاهرة وبيـروت 1403هـ- 1983م.

الحميري، محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقّيق: د. إحسان عبـاس، ط2. مكتبة لبنان: بيروت: 1984م.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد ا القيسي الإشبيلي: **مطمـح الأنفـس ومـسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**. تحقّيق: محمد علـي شـوابكة، ط1. دار عمـار ودار الرسالة: بيروت 1403هـ- 1983م.

الخشني، أبو عبد ا محمد بن حارث بن أسد القيرواني: **قضاة قرطبة**. الدار المصرية للتـأليف والترجمة: 1966م.

ابن الخطيب، لسان الدين: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 4ج. تحقّيق: محمد عبد ا عنـان، ط2. مكتبة الخانجي: القاهرة 1393هـ- 1973م.

ابن خفاجة. **ديوان ابن خفاجة**. تحقّيق: كرم البـستاني. دار صـادر، ودار بيـروت: بيـروت 1381هـ- 1961م.

ابن خلدون، عبد الرحمن محمد: **مقدمة ابن خلدون،** 3ج. ط3. تحقيق: الدكتور علي عبد الواحد وافي. دار نهضة مصر للطبع والنشر: الفجالة- القاهرة 1979م.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: **وفيات الأعيان وأنبـاء أبنـاء الزمان،** 8ج. تحقّيق: إحسان عباس. دار الثقافة: بيروت (د.ت).

الدارمي، عبد ا بن عبد الرحمن السمرقندي: **سنن الدارمي،** 2ج. ط1، تحقّيق: فـواز أحمـد زمرلي وخالد السبع العلمي. دار الكتاب العربي: بيروت 1407هـ- 1987م.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: **سنن أبي داود،** 2مج، 4ج. تحقّيـق: محمـد محيي الدين عبد الحميد. دار الفكر: بيروت (د.ت).

ابن أبي الدم، القاضي شهاب الدين إبراهيم بن عبد ربه: **كتاب أدب القضاء**. تحقّيق: محمد عبـد القادر عطا، ط1. دار الكتب العلمية: بيروت 1407هـ- 1987م.

الذهبي، الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**. ط2، تحقّيق: د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتـاب العربـي: بيـروت 1414هـ- 1993م.

الذهبي، شمس الدين أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء،** 25ج. تحقّيق: شعيب الأرنؤوط، ط7. مؤسسة الرسالة: 1410هـ- 1990م.

الذهبي، الإمام أبو عبد ا شمس الدين: **تذكرة الحفاظ،** 2مج، 4ج. دار إحياء التراث العربـي، بيروت (د.ت).

الرشداني، أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني: **الهداية في شرح بداية المبتـدي،** 2مـج، 4ج. تحقّيق: الشيخ طلال يوسف. دار إحياء التراث العربي: بيروت (د.ت).

ابن رشد القرطبي، الإمام أبو الوليد محمد بن أحمد: **بداية المجتهد ونهايـة المقتـصد،** 2ج. ط10. دار الكتب العلمية: بيروت 1408هـ- 1988م.

ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني: **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، 2ج. تحقّيـق: الـسيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، ط1. محلّ محمد أمين الخـانجي الكتبـي وشـركاه بمصر: 1325هـ- 1907م.

الرملي، شمس الدين محمد بن أبي العباس الأنصاري: **نهاية المحتاج إلى شرح المنهـاج**، 8ج. الطبعة الأخيرة. مطبعة مصطفى الحلبي: مصر 1386هـ- 1967م.

الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن: **طبقات النحويين واللغويين**. تحقّيق: محمـد أبـو الفـضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، القاهرة: 1973.

الزبيدي، الإمام محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسيني: **تاج العروس من جـواهر القاموس**، 25ج. تحقّيق: علي شيري. دار الفكر: بيروت 1414هـ- 1994م.

الزنجاني، عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب الخزرجي: **كتاب معيار النظـار فـي علـوم الأشعار**، 2ج. تحقّيق: الدكتور محمد علي رزق الخفاجي. دار المعارف: 1991م.

الزوزني، أبو عبد ا الحسين بن أحمد: **شرح المعلقات السبع**. ط2. دار الجيل- بيروت، مكتبة المحتسب: عمان 1972م.

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري: **الطبقات الكبرى**، 9ج، قسم. دار صـادر: بيروت (د.ت).

ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك: **المغرب في حلى المغـرب**، 2ج. تحقّيـق: خليل المنصور، ط1. دار الكتب العلمية: بيروت 1417هـ- 1997م.

السكّاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: **مفتاح العلوم**، ج. تحقّيق: الأستاذ نعيم زرزور. دار الكتب العلمية: بيروت 1403هـ- 1983م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **كتاب بغية الوعاة فـي طبقـات اللغـويين والنحـاة**. دار المعرفة: بيروت (د.ت).

الشربيني، شمس الدين محمد بن الخطيب: **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، 4ج. تحقّيق: محمد خليل عيتاني، ط1. دار المعرفة: بيروت 1418هـ- 1997م.

الصاحب، إسماعيل بن عباد: **المحيط في اللغة**، 11ج. تحقّيق: الشيخ محمد حـسن آل ياسـين. عالم الكتب: بيروت 1414هـ- 1994م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**. دار النشر فرانز شتايز شتوتغ: بيروت 1411هـ- 1991م.

الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة: **بغية الملتمس في تاريخ رجـال أهـل الأنـدلس**. تحقّيق: روحية عبد الرحمن السويفي، ط1. دار الكتب العلميـة: بيـروت 1417هـ- 1997م.

الطبيب، أبو عبد ا محمد بن الكتاني: **كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأنـدلس**. تحقّيـق: د. إحسان عباس. دار الشروق: بيروت والقاهرة (د.ت).

ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، 15مج، 30ج. دار سحنون للنشر والتوزيع: تونس 1997م.

ابن عبد البر. أبو عمر يوسف بن عبد ا بن محمد النمري القرطبي: **جامع بيان العلم وفـضله وما ينبغي في روايته وجمعه**. تحقّيق: عبد الكريم الخطيـب. دار الكتـب الحديثـة: القاهرة 1975م.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 4ج. تحقّيق: علي محمد البجاوي، ط1. دار الجيل: بيـروت: 1412هـ- 1992م.

الكافي في فقه أهل المدينة المالكي،. ط1. دار الكتب العلمية: بيروت 1407هـ- 1987م.

التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، 11مج. تحقّيق: محمد عبد القـادر عطـا. دار الكتب العلمية: بيروت 1419هـ- 1999م

بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، 2قسم. تحقّيق: محمد مرسي الخولي. الدار المصرية للتأليف والترجمة: الفجالة (د.ت).

ابن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، 4ج. تحقّيق: ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنسال، ط3. دار الثقافة: بيروت 1973م.

العسقلاني، ابن حجر: **الإصابة في تمييز الصحابة**، 8مج. تحقّيق: علي محمد البجاوي، ط1. دار الجيل: بيروت 1412هـ- 1992م.

ابن عسكر، أبو عبد ا وأبو بكر بن خميس: **أعلام مالقة**. تقديم: د. عبد ا المرابط الترغي، ط1. دار الأمان: 1420هـ- 1999م.

عطية ا ، أحمد: **القاموس الإسلامي**، 5مج. ط1. دار النهضة المصرية: القاهرة 1390هـ- 1970م.

عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، 3مج، 4ج. تحقّيق: أحمد بكير محمود. مكتبة الحياة، بيروت، مكتبة الفكر: طرابلس 1387هـ- 1997م.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد: **كتاب العين**، 8ج. تحقّيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، ط1. مؤسسة الأعلى للمطبوعات: بيروت 1408هـ- 1988م.

ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري المدني المالكي: **كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**. دار الكتب العلمية: بيروت (د.ت).

ابن الفرضي، أبو الوليد عبد ا بن محمد بن يوسف بن نصير: **تاريخ علماء الأندلس**. تحقّيق: روحية بن عبد الرحمن السويقي، ط1. دار الكتب العلمية: بيروت 1417هـ-1997م.

ابن قدامى، الإمامان موفق الدين وشمس الدين: **المغني ويليه الشرح الكبير**، 12ج. دار الكتاب العربي: بيروت 1403هـ- 1983م.

القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس: **الذخيرة،** 13ج. تحقّيق: الأستاذ محمد بوخبزة، ط1. دار الغرب الإسلامي: بيروت 1994م.

الكاساني، الإمام علاء الدين أبو بكر بن مسعود. **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع،** 6ج. ط2. دار الكتب العلمية: بيروت 1406هـ- 1986م.

الكتبي، محمد شاكر: **فوات الوفيات والذيل عليها،** 5مج. تحقّيق: إحسان عبـاس. دار صـادر: بيروت 1973م.

ابن ماجة، أبو عبد ا محمد بن يزيد القزويني: **سنن ابن ماجة،** 2ج. تحقّيق: محمد فؤاد عبـد الباقي. دار الفكر: بيروت 1373هـ- 1954م.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب: **الأحكام السلطانية والولايـات القـضائية**. دار الكتب العلمية: بيروت (د.ت).

أدب القاضي، 2ج. تحقّيق: محيي هلال السرحان. مطبعة الإرشاد: بغداد 1391هـ- 1971م.

المتنبي: ديوان المتنبي. دار بيروت ودار صادر: بيروت1377هـ- 1958م.

المراكشي، أبو عبد ا محمد بن محمد بن عبد الملك: **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة،** 2قسم. تحقّيق: الدكتور محمد بن شريفة. دار الثقافة: بيروت (د.ت).

المراكشي، عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تحقّيق: محمـد سـعيد العريـان. الجمهورية العهربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التـراث لإسلامي: القاهرة 1383هـ- 1963م.

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: **صحيح مسلم،** 5ج. تحقّيق: محمـد فـؤاد عبـد الباقي. دار الفكر: بيروت: 1398هـ- 1978م.

مطلوب، أحمد: **معجم الملابس في لسان العرب**. ط1. مكتبة لبنان ناشرون: بيروت 1995م.

المقري، الشيخ أحمد بن محمد التلمساني: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،** 8ج. تحقّيق: د. إحسان عباس. دار صادر: بيروت 1388هـ- 1968م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العـرب**، 14ج. دار صـادر ودار بيروت: بيروت 1955م.

النابغة الذبياني: **ديوان النابغة الذبياني**. تحقّيق: كرم البستاني. دار صادر ودار بيروت: بيروت 1383هـ- 1963م.

النباهي، الشيخ أبو الحسن عبد ا بن الحسن المالقي: **تاريخ قضاة الأندلس والمـسمى كتـاب المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا**. المكتـب التجـاري للطباعـة والنـشر والتوزيع: مصر (د.ت).

الهذليون: **ديوان الهذليين**. الدار القومية للطباعة والنشر: القاهرة 1385هـ- 1965م.

الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، 10مج. ط2. دار الكتـاب العربي: بيروت 1402هـ- 1982م.

وهبة، مجدي، وكامل المهندس: **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**. ط2. مكتبة لبنان: بيروت 1984م.

يعقوب، إميل بديع: **المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر**. ط1. دار الكتـب العلمية: بيروت 1411هـ -1991م.

ثانيا: المراجع:

أحمد، محمد، ومولاي حفيظ بابوي، وبشرى عليطي: **البنية الإيقاعية في شعر عز الدين المناصرة**. ط1. منشورات اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين: القدس 1998م.

أنيس، إبراهيم: **موسيقى الشعر**. ط5. مكتبة الأنجلو المصرية: مصر1978.

البستاني، سليمان: **شرح إلياذة هوميروس**، 2مج. دار المعرفة للطباعة والنشر: بيروت (د.ت).

بهجت، الدكتور منجد مصطفى: **الاتّجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين**. ط1. مؤسسة الرسالة: بيروت 1407هـ- 1986م.

الجندي، علي: **الشعراء وإنشاد الشعر**. دار المعارف: القاهرة 1967م-1387هـ.

أبو حلتم، نبيل خليل: **اتّجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري**. دار الثقافة: الدوحة 1405هـ- 1985م.

الدقاق، د. عمر: **ملامح الشعر الأندلسي**. دار الشرق: بيروت 1975م.

دياب، حامد الشافعي: **الكتب والمكتبات في الأندلس**. ط1. دار قباء: القاهرة1998م.

زيدان، عبد الكريم: **نظام القضاء في الشريعة الإسلامية**. ط3. مؤسسة الرسالة: بيروت 1419هـ- 1998م.

سمعان، سعيد: **الجديد في البيان والعروض**. مكتبة لبنان: بيروت 1969م.

الشكعة، الدكتور مصطفى: **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه**. ط2. دار العلم للملايين: بيروت 1975م.

الشعر والشعراء في العصر العباسي. ط2. دار العلم للملايين: بيروت 1975م.

شلبي، د. أسعد إسماعيل: **البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر -عصر ملوك الطوائف-** . نهضة مصر: القاهرة 1978م.

الأصول الفنية للشعر الأندلسي "عصر الإمارة". دار النهضة: الفجالة- القاهرة 1983م.

الشنّاوي، علي غريب محمد: **القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة "دراسة فنية"**. ط1. مكتبة الآداب: القاهرة 2003م.

أبو صالح، وائل: **منذر بن سعيد البلوطي**. جامعة النجاح الوطنية: 1987م.

الصعيدي ، عبد الفتاح، وحسين يوسف موسى: **الإفصاح في فقه اللغة،** 2ج. ط2. دار لاالفكـر العربي: 1384هـ- 1964م.

ضيف، شوقي: **تاريخ الأدب العربي2، العصر الإسلامي**. ط4. دار المعارف بمصر: 1963م.

عصر الدول والإمارات الأندلس. ط3. دار المعارف: القاهرة1989م.

الطيب، عبد ا : **المرشد إلى فهم أشعار العـرب وصـناعتها**، 2ج. ط2. الـدار الـسودانية: الخرطوم 1970م.

عباس، فضل حسن: **البلاغة فنونها وأفنانها "علم البيان والبديع"**. ط3. دار الفرقان:1419هـ- 1998م.

عبد الجليل، محمد بدري: **تصوير المقام في البلاغة العربية**. دار المعرفـة الجامعيـة: مـصر 2003م.

عبد الرحيم، مصطفى عليان: **تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخـامس الهجـري**. مؤسسة الرسالة: (د.ت).

عتيق، عبد العزيز: **الأدب العربي في الأنـدلس**. ط2. دار النهضة العربيـة،بيروت:1396هـ- 1976م

علم المعاني. دار النهضة العربية: بيروت 1405هـ- 1985م.

عطية، الدكتور مختار: **علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلّقات السبع، دراسـة بلاغيـة**. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر: الإسكندرية 2004م.

أبو علي، الدكتور محمد بركات حميدي: **البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية الـسياق**. ط1. دار وائل للنشر: 2003م.

عيسى، عبد العزيز محمد: **الأدب العربي في الأندلس**. مطبعة الاستقامة: مصر 1355هـ.

فيود، الدكتور بسيوني عبد الفتاح: **علم البيان، دراسة تحليلية لمسائل البيان**. مؤسسة المختار- مصر، ودار المعالم الثقافية: الأحساء 1418هـ- 1998م.

القاسمي، ظافر: **نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الكتاب الثاني (السلطة القضائية)**. ط3. دار النفائس: بيروت 1407هـ- 1987م.

المدني، علي صدر الدين بن معصوم: **أنوار الربيع في أنواع البديع**،7ج. ط1. تحقيق: شـاكر هادي شكر. مطبعة النعمان: النجف 1969م.

أبو موسى، محمد: **التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيـان**. مكتبـة وهبـة: القـاهرة 1400هـ- 1980م.

نجا، أشرف: **قصيدة المديح في الأندلس، قضاياها الموضوعية والفنية "عصر ملوك الطوائف"**. ط1. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر: الإسكندرية 2003م.

هلال، محمد غنيمي: **النقد الأدبي الحديث**. دار العودة: بيروت 1987م.

وافي، د. علي عبد الواحد: **فقه اللغة**. ط7. دار نهضة مصر للطباعة والنشر: الفجالة- القاهرة 1393هـ- 1973م.

ثالثا: الدوريات:

حمادي، عبد ا : الدين بمعزل عن الشعر. **نزوى**. 2001/26، ص85.

أبو صالح، وائل: شعر أبي الوليد الباجي جمع ودراسة. **مجلة جامعة بيت لحم للأبحاث**. 1996/15، ص138- 142 .

رابعا: الرسائل الجامعية:

عتيق، عمر عبد الهادي قاسم إبراهيم: **دراسة الأسلوبية في شعر الأخطل**، 135. (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة النجاح الوطنية. نابلس. فلسطين 2000م-2001م.

مصطفى، محمود راشد يوسف: **الفخر عند الشاعر يوسف الثالث**. (رسالة ماجستيرغير منشورة). جامعة النجاح الوطنية. نابلس. فلسطين 1425هـ- 2004م.

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

The Poetry of Andalusia Judges from the Conquest to the End of Princelings Era

Critical Analysis

Prepered by
Ashja' Rushdi Abdul-Jabbar Duraidi

Superviesed by
Prof. Wael Fuad Abu-Saleh

Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arts in Arabic Language and Literature, Faculty of Graduate Studies, at An-Najah National University, Nablus, Palestine.

2006

The Poetry of Andalusia Judges from the Conquest to the End of Princelings Era
Critical Analysis

Prepered by
Ashja' Rushdi Abdul-Jabbar Duraidi
Superviesed by
Prof. Wael Fuad Abu-Saleh

Abstract

The title of my thesis was (the poetry of al andalus judges from the islamic conquest to the end of the age of the sects kings). The judicial system gained great importance among the puplic and private people because it was organically related to their religion and lives. There were certain conditions to appoint a judge: right brains, muslim, male, just, familiar with religious laws, sound senses, and some others which would earn him great praise, respect, and credibility.

The judge used to be chosen by the ruler; how ever vice rulers, the princes or the judges of provinces, advisors were allowed to set up the judges. Also the plebians had the chance to nominate their judge.

The judges had some other responsibilitis like marriage contracts, prison affairs , and heritages. The judges had assistants such as copyists, porters, and security forces.

They lead a life of humbleness, simplicity, and honesty. They had meagre incomes from the treasury; there residencies were so simple and had no signs of luxturies. They would decide cases at mosques. Besides, they had offices to organize their judicial jobs.

The number of them was large, but, unfortunately, poetry of sixteen judges were found . Some of them left a lot of poetry, others left alittle. Their poetry was easy, prose- like and their dictions were affected by then -

civilization. Their poetry works were full of synonyms and antonyms. They injected their poems with emphatic items in their statements.

They used different figures of speech like similes, synechdoches, etc. Most of their poetic writings were no more than six lines for each short stanza. The main focus of which was on description, and ethics. The poems, on the other hand, tactled longing, elegy, and knowledge.

The sources which contain the poetic works lacked good printting and accuracy, so that's why I had to correct the wrong musical structures.